مارلون جيمس

رواية

شياطين الغربان

ترجمة: أسماء يس

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

أسماء يس/ كاتبة ومترجمة مصرية، مواليد 1979، صدر لها مجموعتين قصصيتين: "كرسي أزرق في نهاية البهو"، و"البُعد الرابع". وثلاثة كتب شعرية: "البحر سر العازف"، و"صندوق الأحجار الملونة"، و"متشابهون وهذا مخيف". وفي الترجمة: "جورج أورويل اليوميات"، و"عانقني بقوة"، و"سلسلة أحداث مؤسفة"، و"تاريخ موجز للحب".

شياطين الغربان
طبعة 2025
رقم الإيـــــداع: 2025/11878
الترقيم الدولي: 978-977-821-498-7
جميع الحقوق محفوظة ©
عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.
No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This is a full translation of the novel ©2005 John Crow's Devil
Originally published in English by Akashic Books, New York (www.akashicbooks.com)

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
sefsafapr@gmail.com
دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
37 شارع قصر النيل- القاهرة- مصر

إلى تشي، ذاك الثوري الآخر.

إلى أمي، التي لا ينبغي أن تقرأ هذا الكتاب.

شكر وعرفان

أودُّ أن أعبّر عن خالص شكري لكل الذين علّموني أنه بالإضافة إلى الاسم الموجود تحت العنوان، فإن شخصًا واحدًا لا يصنع كتابًا: كايلي جونز، محرّرتي ومرشدتي وصديقتي، التي حفظت هذه الرواية بطريقة سأكشفها ذات يوم. وكولين تشانر، وكوامي داوز، وجوستين هينزل، وكالاباش، وإليزابيت نونيز شارلوت وإسرستين، والضحايا الذين قرؤوا المسوّدة الأولى للمخطوطة: دانييل جودمان، وكويزي ديكسون، وجوني تيمبل. والجميع في هالين بانك: ألكوان وعائلة جيمس هيل، وكلينت وإليزابيث هيل، وإنجريد رايلي، وسيمون ليفي، وآل جيمس، وديلونز، ومسادوس، وأي شخص قد يكون مستحقًّا للشكر وسقط اسمه سهوًا.

ثلاثة أطفال صغار

بحمائم على أكتافهم

يبعدون الشيطان

كلٌ بإصبعين في يديه

داكو بلوز. كابتن بيفهارت

النهاية

لم يحلّق طائرٌ فوق قرية جيبيه. لا عصفور، ولا حمامة، ولا غراب. ومع ذلك، نظر قلّةٌ من الناس إلى الأعلى؛ رعبًا من أي نذير شؤم قد يظهر في صرخة أو رفّة. لم يطِز شيء إلا الغبار الذي تسلل بين شيش النوافذ وشقوق الأبواب والطين على أسطح المنازل، فغطى المنازل والأرض والأسقف والأشجار والسيارات ببطانية رمادية. أخفى الدم، ولم يُخفِ الذكرى.

احتاج الرسول«يورك» ثلاثة أيام ليتخذ قراره؛ حبس نفسه في المكتب بينما انتظر رجله عند الباب. يلامس«كلارنس» وجهه كثيرًا بشكل لا إرادي، يمرّر أصابعه على الخدوش التي تجلّط الدم فوقها، وهو لا يزال يرتدي ملابس الكنيسة: حُلّة سوداء، وقميص رمادي بأزرار بنية، تلائم لون بشرته باستثناء شفتيه الحمراوين اللتين كانتا ورديتين قبل تعرّضهما للضرب، منذ ثلاثة أيام. بذل كلارنس وقفته من رجل إلى أخرى، وضغط على مفاصله ليمنع ارتعاشها، لكن دون جدوى. ومن وراء الباب نادى الرسول: «كلارنس.. اجمعها كلها.. اجمعها عند مفترق الطرق، ثم أحرِقْها جميعًا».

ثُرِكَت جثث الجميع من رجال ونساء وأطفال على الطريق. أما أولئك الذين هرعوا إلى البيوت فقد نجوا بحيواتهم، بعد أن سجنوا أنفسهم خلف الأبواب. على طريق بريللو خمس جُثَث، أمّا الجثة السادسة، مكسورة الرقبة، ففي الحفرة حيث كان الجسر. عرج كلارنس وهو يسبُّ ويجرُّ قدمه، ثم توقف عند مفترق الطرق صارخًا: «ليسمع الجميع! حان الوقت للقيام بعمل الرب... الرسول يناديكم».

تجمّعَت الرؤوس في النوافذ، وظلت الأبواب مغلقة، بعضهم نظر إلى كلارنس، لكن معظمهم نظروا إلى السماء. نظر كلارنس إلى أعلى، وطرقع بأصابعه مرة أخرى، وفجأة انهالت حمامة على وجهه مباشرة فخدشت شفته السفلية، وكادت تخدش عينه اليسرى، شعر أن مزيدًا من الأذى على وشك الحدوث لكن الرسول شجّعه: «كلامي موجّه إلى كل رجل يمكنه الوقوف.. اسمعوا جيدًا وإلا سيهاجمكم ما هو أسوأ من الطيور». الطيور. انقضّت الطيور بسرعة شديدة وهي تصرخ صراخًا عاليًا وتخدش بمخالبها.

«تعلمون ما يمكن أن يفعله رسولي».

يعرف كلارنس المنازل التي يختبئ الرجال فيها، فقفز، وركل أبوابها جميعًا، وهو يصيح: «عند غروب الشمس».

قبل ثلاثة أيام، قتلَت القرية «هيكتور بلاي» في عز الظهر، وجاء الحساب سريعًا، قبل حتى أن يجتاحهم غضب الرب الأبيض بالمناقير والمخالب وألوف الأجنحة. لكن دائمًا توجد أشياء يخشاها القرويون أكثر ممّا يخشون الطيور، فخرجوا واحدًا تلو الآخر، وألقوا بالجثث في النار.

قال الرسول يورك: «كان هذا حكم الدينونة». خرج من المكتب بعد إشعال النار، وليس في وجهه خدش واحد. صرخ مجدّدًا بصوتٍ غطّى على قرقعة النار المشتعلة واللحم المحترق:»حكم الدينونة»!

«حُكم الدينونة». قالها مرة أخرى في صلاة الصباح، وفي صلاة الظهر، وصلاة المساء، وقداس الليل، وصلاة الندم، وصلاة الأطفال، وصلاة النساء، وكفّارة الدم، والصلاة على القديسين، وصلاة مدرسة

الأنبياء. ومنذ ذلك اليوم، لم يذكر أحدٌ الحادث قطُّ كي لا يصبّ الرب غضبه على جيبيه مرة أخرى.

كان البناء قد بدأ قبل أسبوع من القتل، أقام القرويون سياجًا من جذوع الأشجار حول جيبيه، ثم أحاطوه بأسلاك شائكة. قال الرسول إن لكل مدينة صالحة سورًا، وإن هذه طريقة الرب في إسباغ القداسة، وإبعاد الظلم عن القرية. بأسرع من المتوقّع ثني السياج، لكن سرعان ما غطت الطبيعة أخشابه وأسلاكه بالأوراق والكروم والزهور، وسرعان ما اختفت جيبيه من خريطة البشر، وسرعان ما نسي الجميع فيما عدا «لوسيندا».

بعد أن أمضت ثلاثة أيام في غرفةٍ بابُها مغلق من الخارج، أصيبت لوسيندا بالذعر عندما علقت أصابعها في شعرها المتشابك، وبرزت عيناها من جلدها الأسود. لقد صدقت الرسول باسم الحب، لكن الرب عاقبها على الخطيئة. قبل أن تصاب بالجنون، كانت ترى وجهين في المرآة، كلاهما ليس لها، لكنها بعد وفاة هيكتور بلاي صارت ترى ثلاثة.

طاردتها عينا بلاي. عذبتاها في الأحلام. صرختا في وجهها في الغرفة الصغيرة التي تفوح منها رائحة الكلور أسفل برج الكنيسة. وفي نوبة غضب محموم أشبه بالجنون، ضربت المرآة وحطّمتها، لكن في كل قطعة مكسورة ظهر وجه آخر. أصبحت الوجوه ثلاثة عشر، ثم مائة، ثم ألف وأكثر. مليون عين رأت كل شيء، وحكمت مثل الرب. لم تستطع فعل شيء سوى الصراخ. في النهار تكون غرفتها مظلمة، لكن في الليل يخايلها الضوء، صانعًا ظِلًّا أسود في

لحظة، وظِلًا جليًا في اللحظة التالية.

تحوّل الرّماد البشري إلى غبار، أما ما لم يُغطّه الغبار، فجرفته الرياح. أقامت جيبيه سورًا محا القرية من الذاكرة، لكن داخل أسوارها لن تنسى لوسيندا أبدًا أن شبحه يعيش معها الآن، صوته يقلّد صرخاتها، وعيناه رأتا لحمها العاري. لقد وصف الرسول هيكتور «بلاي» بأنه آثِمٌ ودجّال وضد المسيح، وأطلقت عليه هي قسّ الزّم.

الجزء الأول

قسُّ الرّم

دعنا نخبرك عن قسّ الرّم. فحتى لو لم تعِش قطُّ في أي مكان قريب، لا بُدّ وأنك سمعت عنه. بعد ست سنوات، تتداخل القصة المزيفة والقصة الحقيقية معًا فلا تعرف أيهما الحقيقية. يعتقد الناس أن كل شيء تحوّل إلى جحيم بعد أن استولى الشيطان على «ليلاماي بيركنز» لكن إذا كنت تعرف القس هكتور بلاي من كنيسة القديس توما الرسولية، ستعرف أن الطريق إلى الجحيم بدأ قبل ذلك بوقت طويل.

قبل أن يأتي القس بلاي إلى جيبيه، لم يرَ أحد رجلًا من رجال الرب يشرب الخمر. يحكي البعض أن الآيات من واحد إلى إحدى عشرة من إنجيل يوحنا الثاني تقول إن يسوع حوّل الماء إلى خمر؛ لذلك لا بُدّ أن يشرب القسُّ الخمرَ أيضًا. يجلس ثلاثة رجال في الحانة طول اليوم يفكرون بأنه في نهاية الأمر رجل؛ والرجل له كامل الحق في أن يسكر، تمامًا مثلما له كامل الحق في أن يهرش خصيتيه حين يريد أن يهرش خصيتيه، وأن يضرب امرأته حين تخطئ.

اعتاد بلاي أن يشرب بطريقة خارجة عن المألوف، كل ليلة سبت، وبينما ينبغي أن يستعد للقداس، يجلس ليشرب الخمر، والحديث عن شؤون الناس، حتى يحين وقت الكرازة فلا يدري ما يقول. لم نرَ من قبل قسًّا مثل هذا؛ إذ إنه عندما يشرب لا يُسمع منه سوى غمغمة. يخشنُّ صوته، ويبدو مثل القبطان الغاضب في فيلم موبي ديك، الذي يُعرَض في سينما ماچيستيك. كان القس الذي سبقه متحمسًا

لكن هكتور بلاي بارڈ. وربما نكون مخطئين لأن القرويين يأخذون الأشياء كما هي، كأن الرجل الأبيض سيهزمنا إذا غيّرناها.

ليلاماي

مضى عامان على استيقاظ والد «ليلاماي بيركنز» في ذلك الصباح لدقيقة واحدة فقط ليشاهد سريره أحمر، والدم يتدفق مثل ينبوع من موضع قضيبه. لم يرَ أحدٌ ما حدث قطُّ، لكن الجميع رأوا ليلاماي خارج باب بيتها مثل ساحرة شعبية، تمسك السكين بيد وبالأخرى تمسك القضيب النازف. أكلت نبات الباوباو الأخضر لتتخلص من جنينها.

بعد ذلك بعامين، وفي يوم أحد وبينما القس بلاي في حالة شكر، وقد رمى بنفسه على مقعد القس قرب المنبر كأنه سينهار على الأرض إن لم يفعل، ذهبت إليه ليلاماي ليمحو عنها خطيئتها وإثمها، مع أن القس لم يكن قد دعا أحدًا بعد. سمعها الجميع وهي تصرخ: «سيدي يسوع المسيح! سيدي يسوع المسيح! النار الآكلة! النار الآكلة! سيدددددي!».

كانت ليلاماي بيركنز ترمي بنفسها على الأرض، فتتحوّل ساقاها إلى مقص، تفتحهما، ثم تغلقهما، ثم تفتحهما، فيرى الجميع عضوها الذي لا يغطيه لباس داخلي.

ثم رأت لوسيندا تصرخ منادية «يسوع المسيح». فخاطبتها: «ما عسى يسوع أن يفعل لك يا عاهرة النهر؟ الشيطان يراقبك منذ بدأتِ بخلط الشاي». كان الناس يصرخون ويركضون، ويتعثرون، ويصرخون مجددًا، لأنها حين تفتح فمها يخرج صوت رجل. ثم رأت القس فانفتح باب الجحيم.

اندفع خمسة شمامسة نحو المذبح. يدعوهم مرتادو الكنيسة بالخطاة «الخمسة»: «الأول الأحمق، والثاني السكير، والثالث المُتطيِّر، والرابع الهزيل، والخامس الذي يضرب امرأة. والآن مَن هو أيهم؟ مَن هو أيهم؟». كان الخمسة حولها يشكّلون دائرة، يصارعونها، لكن لا أحد يستطيع الإمساك بها. انزلقت ليلاماي من أحدهم مثل الزئبق، وخدشت وجه آخر. وركلت شمّاسًا في خصيتيه فأصبح الرجال الخمسة أربعة. ضربتهم ليلاماي جميعًا: كسرت رقبة الرجل الثاني، وكسرت كل أصابع الرجل الثالث، وأعادت الربو مجددًا لصدر الرجل الرابع، وأعورت عين الشماس الأخير اليسرى.

لا أحد يعرف من أين أتت بالسكين. يقول البعض إنها كانت تقفز، ويقول البعض إنها كانت تطير. عندما يستولي عليك الشيطان، يمكنك فعل أي شيء. كل ما رآه الناس أنها مالت نحو القس بالسكين فمدّ يده كأنه على وشك الإمساك بها، لكنها طعنته مباشرة في منتصف يده اليسرى ليتعلق على الحائط مثل المسيح المصلوب، وهي تقول: «أحمق.. كان ينبغي عليك فعل ذلك قبل عامين عندما كنّا واحدًا.. الآن نحن واحد وسبعة». صرخ القس بلاي، لكن مَن يستطيع أن يقف أمام فتاة بداخلها ثمانية شياطين! صرخت ليلاماي، وخرجت من الكنيسة.

مرّ يومان ولم يتمكن أحد من العثور على ليلاماي، ثم في يوم الأربعاء، وجد صبيٌ صغيرٌ جسدَها يطفو على نهر العذراوين.

شرب القس بلاي بعد أن دفنها، وبعدها توقف الكثير من الناس عن القدوم إلى الكنيسة.

في طريق عودته إلى البيت من الحانة، تأرجح القس بلاي على الطريق مثل تمثال سكران، لكن النار حفرت ثقوبًا في أحشائه، وأرسلت باللهب إلى فخذيه، صارخًا طالبًا الخروج، مال إلى جانب الطريق وأطلق سراحه، مفجّرًا دائرة سوداء على الرصيف بسيل من البول الأصفر. أزعجت الشمس قفاه، لكن فجأة شعر بخفّة الصباح. لقد تعلم منذ زمن بعيد ألّا يثق أبدًا في السعادة، لكنّ شيئًا ما حدث جلب له متعة وخوفًا بسيطًا، بلاهة جعلته يقع في حب السماء الوردية، وفقاعات الندى البراقة، والدجاج الذي يصيح معلنًا استيقاظه. كان بلاى لا يزال سكرانًا جدًا، بنطلونه حول كاحليه، وعندما تحرك تعثّر، وسقط على قفاه مغشيًا عليه.

الأخت هي أول مَن رآه على هذه الحال حين خرجت لتسقي الكركديه، فاعتقدت أن رجلًا مجنونًا أو سكّيرًا سقط ميتًا على الطريق. اقتربت منه بحذر خشية أن يكون نائمًا فقط، ويستيقظ فى تلك اللحظة فجأة ليغتصبها بيدين خشنتين وأظافر متسخة. لكنها عبست مشمئزّة، غير متفاجئة، عندما رأت وجه القس بلاي، وقالت: «يا للعار!». مع ذلك شعرت بالارتياح من سلوكه، مثلما شعر الكثيرون في القرية؛ لقد عُذّب بسبب خطيئته إلى درجة أنه لم يتمكّن من إدانتهم على خطاياهم. وبينما تنظر إليه من رأسه حتى قدميه، توقف نظرها فى منتصف الطريق. ركّزت على قضيبه الداكن وخصيتيه المرتخيتين تمامًا مثل قضيبه المحاط بفخذيه، وأطراف قميصه المفتوحة. نسيت ذراعيه المفتوحتين، نسيت ظهره، نسيت وجهه الهزيل الرمادي، وفمه المفتوح الذي يسيل اللعاب منه. نسيت حذاءه المتسخ البنّيّ المغطّى معظمه بالبنطلون الملتف حول كاحليه.

لم تنتبه سوى لهذا الشيء الذي بلا حياة بين رجليه، فظيعًا مثل الحيّة في سِفر التكوين. وعندما هرعت إلى منزلها تحوّل وجهها الداكن إلى الأبيض، أو الوردي. لعدة دقائق ظلّ فاقدًا للوعي، لكنها دقائق أرعبت العجائز، وروّعت الأطفال الذين مروا في طريقهم إلى المدرسة. أما لوسيندا، التي لم تشهد تلك الحادثة، فسترويها بضمير المتكلم، بتلك النغمة التي تستعملها في هرطقاتها الخاصة.

بعد حادثة التبول فقد شكّانُ القرية القلقون صبرَهم، وتحديدًا لوسيندا. قال أحدهم: «اصبروا عليه، وسيستخدم كرسيه مرحاضًا الأحد القادم». لكن لأنه لم يكن عضوًا في الكنيسة؛ لم يهتم أحد بما قاله أو يتوقعه أو يخشاه. اختصارًا، لم يكن هذا الشخص هو لوسيندا التي بدأت حملة رسائل لشلح القس بلاي.

حاولت لوسيندا تذكُّر القَدر الضئيل جدًا من التعليم الذي حصّلَته بخلاف الكتاب المقدس؛ لذلك جاءت كلماتها مشتعلة بالحماسة والغضب والإدانة، أكثر حتى ممّا كانت تنوي. كتبت إلى كل كنيسة تعرفها، كتبت حتى إلى الأبرشية، مع أن القس بلاي لم يكن كاثوليكيًا. لم يُجِب بلاي على أحدٍ سوى الرب، ولم يقل يسوع شيئًا تريد لوسيندا سماعه. لم يرد أحدٌ على رسائلها. صحيح أنها لن تلعن الرب أبدًا، لكنها ذكّرته بأنه سبب صلاتها لشخص آخر.

صباح الأحد، وفي تمام العاشرة بدأت سينما ماچيستيك بعرض فيلم، فاختُصِر نصف المُصلّين إلى الرُبع. في سبيله للانهيار، والقرية معه، صار القس الآن يشرب ليلًا ونهارًا. لولا الآخر، الذي قادهم إلى سوادٍ أقل كثافة من هذا، بعد أن جاء مثل لص في ليلة مقمرة على

عجلتين، ودراجته النارية تنفث دخانًا جعل الأطفال يسعلون في أثناء نومهم، وهي تنهب طريق بريللو تاركة أثرًا أفعوانيًا من الغبار.

لا يوجد شهود على مجيئه، إلا البومة، والقمر، والشيطان.

تقول إنك رأيت ذلك قادمًا

أجل

لكنك لم تهرب بعد

«سبلنتس»- 16 حصانًا

القس والرسول

ظهرت أسراب الغربان أوّلًا، غطّت المئات منها الشمس وسوّدَت السماء، كأن كسوفًا واسعًا نزل بجيبيه. حلّقت الطيور فوق الطريق مكوّنة موكبًا داكنًا، اخترقت أجنحتها الريح، وأخافت حتى الأطفال الصغار. لكن عندما هبط عدد قليل منها إلى الطريق، كشفتها أعناقها الحمراء. ليست غربان عادية، بل غربان يطلق عليها سكان الريف اسم غربان جون. كانت تقترب، ثم تحلّق مرة أخرى، ثم تقترب من الأرض. تنقّب في القمامة وهي تخرب القرية، وبمجرد أن ترى الناس تميل برؤوسها غاضبة متحفّزة. بدأت بين غربان جون والقرية لعبة انتظار مروعة. ثم أقلع السرب الضخم بصوت أعلى من ذي قبل، طائرًا من سقف إلى آخر كأنه يزلزل الأرواح الشريرة، ثم لا شيء.

وفي الصباح التالي، وتأكيدًا لوجوده، عاد الروتين المعتاد يقطع طريق بريللو القرية مثل جذع الصليب، ويمتد طريق هانوفر بالعرض، مكملًا شكل الصليب. من أعلى بدت القرية مثل فطيرة صليب ساخنة مهروسة، هذه هي جيبيه.

مزرعة أستور للسكر على بعد ثلاثين ميلاً تقريبًا. وعندما أُطلِق سراح العبيد في عام 1838م استردُّوا ملكيتها، ومع ذلك، فإن المبشّرين البيض الذين سعوا وراء تحرير الزنوج تراجعوا عن فكرة القبول بوجود زنجي في غرفة الطعام، أو غرفة الاجتماعات، أو غرفة نوم أي شخص أبيض، فأنشؤوا قرى عشوائية في جميع أنحاء الجزيرة. جيبيه واحدة من هذه القرى. كان للعبيد المُحرّرين أراضيهم الخاصة، لكن لم يملكوا مالًا أو طعامًا.

وبعد مرور عام على زوال العبودية، عاد العبيد السابقون إلى المزرعة ليساهموا طواعية في إعمارها مجددًا.

ومع ذلك، ذبلت المزرعة، خرَّبَتها فئةٌ جبانة من الرجال البيض الذين فرُّوا عائدين إلى أوطانهم الأم. أما الذين بقوا فقد أمعنوا في إهمالهم، فتركوا الحقول تجفُّ، أو تستولي عليها قوانين الإصلاح الزراعي. اختفت المجاورات، وفرضت الدولة الأم عبر حكومة مستعمرة التاج مساحات أقل لمحاصيل البنجر وقصب السكر. وحلّت محل الفلّاك القدامى سُلالةٌ جديدة من الرجل الأبيض الذي كان أسودَ في بعض الأحيان، وهم تجار ووسطاء ووكلاء محليون جلبوا الأمريكيين الذين حوّلوا المزارع إلى استراحات، أو فنادق بالقرب من البحر.

صنعت الأموال نوعًا جديدًا من السادة، مثل «ألويسيوس جارفي».

وفي عام 1928م اشترى السيد ألويسيوس جارفي وبنى وامتلك معظم الأراضي، وأعاد تسمية القرية. أسماها «قرية جارفي»، لكن الجميع ظلوا يطلقون عليها اسم جيبيه. ألويسيوس جارفي رجل نحيفٌ كهيكل عظمي، حتى عندما كان صغيرًا، بشفتين زنجيتين وبشرة داكنة تتناقض مع أنفه المعقوف وشعره الناعم. ومع أنه لقيط أسود، لم يعترف به والده الأبيض، فقد تمتّع بالحق في أمواله. لكنه كان رجلًا خارج الزمن، بلا زوجة ولا رفيق. تفوح رائحة الموت النتنة من بيته الأحمر الكبير، الذي بُنيَ وسط مزرعة كبيرة، على قمة طريق بريللو، بأرضية من حجر وسقوف خشبية. كان المنزل ذا سقف مقوّس مُزيّن بنقوش فلكية، تغطي نوافذه الفرنسية ستائر داكنة

تخفي أسرارًا. بمرور الوقت وبسبب الأوساخ المتراكمة، نسي الناس لون البيت الأحمر، وصاروا يصفونه بالأسود. سَرَت الشائعات بأنه مثليّ، بالإضافة إلى بعض تساؤلات بشأن العديد من أبناء أخيه ذوي البشرة الفاتحة، لكن الكلمات كانت تذهب هباءً في جيبيه.

ولما كان السيد ألويسيوس جارفي صاحب القرية، فقد أعلن الشكل الذي يريدها عليه. في عام 1928م جعل جميع المنازل تواجه الشارع، وتُطلَى باللون الأحمر الباهت. وفي أثناء الصوم الكبير، عندما يزداد الجفاف، كانت الأوساخ تلتصق بالجدران، فتبدو القرية كأنها مُحاصَرة في قلب عاصفة ترابية. جميع المنازل متشابهة، بشرفات لها أرضيات ذات صرير، وأبواب مزدوجة تنفتح على غرفة معيشة صغيرة مع غرف نوم على الجانبين. غرفة المعيشة، التي كانت بالفعل عبارة عن مدخل، تؤدي إلى غرفة الطعام التي استخدمها البعض كغرفة معيشة. وعلى يسار غرفة الطعام يوجد المطبخ. وقد دخلت مياه المواسير القرية بعد ثلاثة وعشرين عامًا على يد بلاي عام 1951م. لا يوجد في جيبيه سوى طريقين. فكّر السيد جارفي في بناء منازل بامتداد مفترق الطرق، لكنه لم يستطع منع واضعي اليد الآخرين على الأرض من بناء أكواخ متهالكة كما تراءى لهم. ومع ذلك بنيت المنازل الجديدة بنفس ألوان المنازل القديمة. كان نهر جيبيه يحاصر القرية مثل خندقٍ مائي، والجسر هو السبيل الوحيد للدخول أو الخروج.

***

في يوم أربعاء الرّماد، جاءت الغربان وذهبت. وهذا واحد من

خمسة صباحات خرج فيها السيد جارفي إلى الأماكن العامة، باستثناء جنازات أصحاب المنزلة الرفيعة، أو أولئك الذين لقوا حتفهم في ظروف مأساوية. الجنازات في جيبيه عروض ملابس، سوداء، مستوردة باهظة الثمن، أرسلها إلى القرية في براميل الأقارب الذين يعيشون في أمريكا أو إنجلترا أو بنما. ملابس شتوية، مخملية، أو شورتات، أو جينز، أو صوف، تتآمر مع الشمس لتشوي مَن يرتديها بينما يتصبّب عرقًا. لم يكن لمشهد موكب جارفي مثيل؛ إذ يسير بخطوات بطيئة مثل حاملي النعش، لكن دون نعش، يجلس وأبناء أخيه في صفٍّ واحد خلفه، في الجهة اليسرى من مقدمة الكنيسة، بالقرب من النافذة، دون أن يكلّف نفسه عناء خلع قبعته البنية ذات الزخارف الوردية حتى في الكنيسة، وكان أبناء أخيه يملؤون الصف بترتيب تَنازُليّ وفقًا لأطوالهم.

قد يثرثر البعض أنهم يجلسون بترتيب تنازلي وفقًا للونهم، إذ يجلس الطفل الأفتح بجانب السيد جارفي، والأغمق قرب الممر، بحيث يكون أقرب إلى بقية السود. وقبل انتهاء القداس، ينهض ويمرّر أصابعه الرفيعة على بدلته السوداء المخططة بالأسود، كما ينهض أبناء أخيه أيضًا.

ويغادرون في طابور: ابن أخيه الأصغر في المقدمة، والسيد جارفي في الخلف، ينثر بعض النقود على المذبح، ويخرج عبر الباب، بينما يرفرف ذيل معطفه في الهواء.

لكن في يوم أربعاء الرّماد هذا، حين كان القداس على وشك البدء، لم يوجد ما يشير إلى وجود السيد جارفي. وتملّك الفضول من

الكثيرين، لكن معظمهم كانوا مثل لوسيندا التي تجاهلت مثل هذه الأشياء. الرجل ثري إلى درجة أنه جعل الأسود أبيض، وبطبيعة الحال سيتوقف عاجلًا أو آجلًا عن القدوم إلى كنيسة السود، خصوصًا إن كان شاذًا في طريقه إلى الجحيم، وقد تقبّل القرويون غيابه مثلما تقبّلوا كل شيء آخر. لكن في ذاك الصباح كان القش رصينًا. حتى إن الكثيرين تغافلوا عن طوله. كان مثل «جريجوري بيك» وسطًا بين فيلمَي رومان هوليداي وموبي ديك المعروضَين في سينما ماچستيك.

كان القش بلاي نحيلًا، لكنه عملاق في القرية. ربما قلّل الخزي منه، وأثقل الشعور بالذنب كاهله وصعّب موقفه، ذا فكٍّ مُربّع وحاجبين كثيفين فوق عينين ضيقتين وشعر أشيب قصير، أبيض عند الصدغين، ليس داكنًا ولا فاتحًا كذلك، لونه ضبابي، مثل صوته المنخفض للغاية، ليس ضعيفًا، لكنه في نفس الوقت لين، غير قادر على إصدار الأوامر.

وفي بلدة تفضّل الأسود أو الأبيض، لم يكن اللون الرّمادي مثله موضعَ ترحيب.

رفض بلاي الصداقة. تذبذبت خُطَبُه، حتى وهو يَقِظ، بين الرعب وعدم اليقين الذي يوحي برجل ليس مسيطرًا تمامًا. وعندما تتمكّن منه الخمر ينهار بلا رحمة ويعرق ويرتعش. وقد تجنّبوه خارج الكنيسة، لئلّا تتمكن منه الخمر في تلك اللحظة بالذات فيعاقبهم الرب أيضًا. كانت الخطيئة، والشعور بالذنب والقناعة، والفداء أشياء ربما تحدّث عنها أحيانًا لكن ارتعاش صوته وشى بها دائمًا.

بدأ القداس في الثامنة والربع، اختبأت الشمس خلف مجموعة من الغيوم الرّمادية الحمراء. أغلقت الرياح أبواب الكنيسة، وتعالى صفيرها، وصَفَّقَت الأبواب والنوافذ نصف المغلقة. ثم انفتحت الأبواب واندفعت الرياح فخلعت القبعات وأغطية الرأس واكتسحت التنانير والفساتين. لبضع ثوانٍ اضطربت الكنيسة؛ دفعت الريح نفسها إلى المذبح، وأسقطت زجاجة ماء القس التي سقطت على السجادة البنفسجية لكنها لم تنكسر. ثم اختفت.

بدأ عازف الأرغن ترنيمة، وفي غضون ثوانٍ كان الناس كالمعتاد عند المذبح يصلُّون ويسبِّحون ويمجِّدون.

سيلقي القس بلاي كلمة اليوم. الكلمة جسد قبل أن يكون هو جسدًا. ليس له أن يدّعي شيئًا، كل ما عليه أن يقول، وهو عبء شعر أنه لا يصلح له، لكن ما نصيبه في عذاب أولي العزم من الأنبياء؟ لقد شعر بالتواضع لأن الرب تحمله لفترة طويلة. الرب يقود وعليه أن يتبع. هو الواجب إذن لا اللذة أو الغرض. لذلك وقف دون أن يضطر إلى تمالُك توازنه، وشارك الكنيسة غناءها.

قريبًا جدًا ستحلُّ

كل مشكلاتي ومصائبي

عندما أصل إلى البيت

على الجانب الآخر

سأصافح كبار السن

سأقول لكل الناس صباح الخير

سأجلس بجوار يسوع

سأجلس وأرتاح قليلًا!

ضجّت الجوقة بالغناء والابتهال، هلّلويا. تمايل الرجال والنساء أمام الرب اعترافًا بعظمته. من آخر الكنيسة نصف الممتلئة دوّى صوت وكأنه تحطّم ذفٌّ، ومن الأمام انهارت نافذة زجاجية محدثة دويًا رهيبًا. اخترق أحد الغربان الضخمة النافذة التي انفجرت كأن رصاصة أصابتها، فسقط ميتًا وسط خليط من الألوان والدماء.

لم يرَ عازف الأرغن شيئًا سوى الذعر الذي أصاب الجوقة. صرخت لوسيندا عندما سقط الغراب ميتًا على المنبر. وعاد المصلون القريبون من المذبح إلى مقاعدهم متقزّزين. أمر القش بلاي الخمسة بإزالة الطائر، لكنهم تردّدوا. يعرف الجميع أن الغراب من رُسُل الشيطان. ركل القس الغراب من المنبر إلى الأرض. فأخذه أحد الخمسة عبر الباب، مُخلّفًا أثرًا من بقع الدم.

قال هيكتور بلاي: «الشر... أرسل الرب يونس ليحذّر نينوى من الشر... إيليا حذّر أخاب.. ويحيى حذّر هيرودس.. لكن لم يستمع أحدٌ لرسل الرب، منهم مَن أحرقوه أو طعنوه أو ضربوه أو قطعوا رأسه أو صلبوه... إنهم يقتلون الأنبياء ويرمون الرسالة كبذرة برتقال مرة... الجميع يقتل الرسل، ويتغافل عن الرسالة».

لقد شهده المصلون من قبل وهو سكران، لكن في تلك اللحظة تنقّلَت خطبة بلاي بين عدة نقاط في الكتاب المقدس في وقت واحد، فلم يفهموا منها شيئًا. وهو يَقِظ تعالى رنين خطبته تصاعديًا

حتى وصل إلى صدى حادٌ مرير في النهاية، فتوقفوا عن الاستماع إليه، وتوقّف هو عن وعظهم. لقد تحدث دون توقُّف أو تفكير، لم يعِظ الإنسان أو الرب أو حتى نفسه، وتقَبّل كل هذا كما تقبّل كل الهزائم السابقة، وجالت عيناه في الغرفة فرأى المصلين ينظرون لكن لا يبصرون، الكل ما عدا واحد.

«شيء ما قادم.. شيء ما قادم.. قادم على أجنحة قوية.. أنا حزين من أجل مَن لم يستعد بعدُ.. لم يكن هذا ما جئت أعِظُكم به. جئت لأعظ عن الغفران. كان للرب عباد آخرون.. هذا ما أبلغني يسوع به؛ لأخبركم عنه.. هناك من بينكم غير مستعدين.. إذا مُتم الآن ستَصلَون جحيمًا.. إذا جاءكم الموت الليلة ستُدَلّون من شجرة مثل يهوذا الإسخريوطي.. سيأتي الشيطان كأسد يزأر، وسوف يلتهمكم ما لم تتركوا الرب يسكنكم.. إذا لم تعودوا إلى الرب.. هناك من بينكم مَن يُحزنون الروح القدس.. عليكم تنقية قلوبكم قبل فوات الأوان.. سيأتي الشيطان كأسد يزأر.. من يريد نهر شفاء الرب فليأتِ إلى المذبح.. فغدًا قد يكون الأوان قد فات.. إن انتقام الرب سريع ووحشي.. لن يهرب أحد من عرش الدينونة الأبيض».

بعد سبع دقائق قام رجل من مقعده وذهب إلى المذبح. قطع هيكله الضخم، وحذاؤه العسكري الضخم سكونَ الكنيسة. عزف عازف الأرغن «يسوعي أقرب لي من أخي»، همهمت الجوقة. سرعان ما قامت فتاة، تلتها امرأة. لكن المذبح الذي كان من السهل الوصول إليه للابتهال كان من الصعب الوصول إليه لطلب الغفران. وعبر نظراتهم صنع شعب الكنيسة حدودًا من الخجل لم يتخطّها سوى القليل منهم. لكن لاحقًا وقف رجل آخر، ثم ثلاث نساء أخريات،

ثم طفل، وهنا لم يعُد لدى لوسيندا خيار آخر، بعد أن فاتها موقعها المُفضَّل على يمين المنصة، التي طالما سلخت ركبتيها، فعبست. صلّى القس بلاي «أيها الآب اغفر ذنوبنا كما نغفر لمن أساء إلينا».

كان الرجل يراقبهم من وراء الكنيسة، ثم جاء ليلًا، لكن الظلام ظل يلازمه نهارًا.

أزعجته كل هذه الإثارة. شعور غريب يشبه النشوة أو الندم. فيوم مزدحم أو عام فارغ لهما نفس الوزن إذا كان المرء يعاني من نفس الكراهية. هو أطول من القس، بحذاء أسود وبدلة سوداء وقميص أسود وشعر أسود وبشرة فاتحة حمّصَتها الشمس. دعاه المذبح فشق طريقه نحوه. حتى وقف خلف الركب الراكعة، والأجساد الساجدة. في البداية لم يره القس، ثم التقت نظراتهما، فأغمض هيكتور بلاي عينيه، ونظر بعيدًا مستمرًا في إعلان تحرير رعاياه، لكنّ عينَي الرجل تبعتاه. مدّ ذراعيه على نطاق واسع وخطا نحو منصة القس. كان الطريق أمامه خاليًا تمامًا كأن الكنيسة كانت تنتظره. لاحظه القس، فأغمض الرجل عينيه، لكنه نظر إلى الأعلى، كأنه ينظر إلى سماء أعلى من سماء القس. تردّد هيكتور بلاي قبل أن يقترب منه، موبِّخًا نفسه بأن الخوف ليس من صفات الرب. لم تلعب المفاجأة دورًا في هذه الحادثة؛ لذلك عندما وضع القس يديه على الرجل الذي يرتدي الأسود ودفعه بعيدًا، لم يعُد بالإمكان التراجع. هذه ليست روحًا هائمة سيهديها صراطًا مستقيمًا، يعرف ذلك، وشعر بأنه مُجبَرٌ على أن يتصرف كراعٍ.

وضع هيكتور بلاي يديه على رأس الرجل، لكن الرجل بقليل من

الجهد، أمسك بهما وضغط عليهما بشدّة. عرف هيكتور بلاي أنه ضعيف، لكن لم يظهر ضعفه من قبل قطّ «إذن مَن سيسامحكم؟ مَن الذي سيغفر لكم جميعًا؟».

لم يفطن بلاي للألفة، هذا الشيطان حلّ بالرجل الخطأ. شدّد الرجل قبضته على ذراعيه فشعر بالألم في كتفيه «مَن الذي سيغفر لك، أيها الجاهل ابن القحبة؟». أمسك الرجل القسّ بلاي من جنبه «مَن الذي سيغسل خطيئتك؟ مَن الذي سيُطهّرك من إثمك؟ مَن الذي سيجعلك أبيض مثل الثلج؟». ثم ألقاه إلى الحائط، وعندما ارتطم بالطوب، شعر أن الريح ستفجّر رئتيه. لكن الرجل ذو الرداء الأسود لم يتوقف، توقّف فقط عازف الأرغن، أما المصلون فاستمروا.

اقتحم الخمسة المنبرَ متحمّسين للتصدي للعنف الذي طال الكنيسة عنوةً. تقدّم الرجل إلى القس وأمسكه من ثيابه، فدار الخمسة حوله وهم على وشك الانقضاض، لكنه بعد ذلك رفع يده ولوّح بإصبعين؛ فتوقّف الرجال، اندفعوا إلى الأمام بقوة، لكن أقدامهم ظلّت ثابتة على الأرض. كانوا يعلمون أنهم لم يُجمّدوا، وأنهم يستطيعون المشي إذا اختاروا ذلك. وفكّر الخمسة أنه من السخف والجنون أن يكون هذا الرجل الغريب قد أمرهم وقيّدهم هكذا دون كلام، كأنهم أبقار، لكن لم يجرؤ أحد على التحرك. صرخ أحدهم في المصلّين، وصاح آخر، وعلت أصوات التذمر وارتفعت اللعنات، لكن الرجل رفع يده مرة أخرى، ولوّح بإصبعين فسكت جميع المصلين.

***

لتحلّ رحمةُ الرّبّ

كان يجب أن ترى حين اندلعت الفوضى العارمة في الكنيسة، ثم تخبرنا الحدوتة الشعبية:

كنا نرى هذا الرجل فقط.

أولًا اعتقدنا أنه الشيطان.

ثم اعتقدنا أنه جبريل أو ميكائيل أو أحدهما، أو أحد الملائكة الأقوياء.

خبّرَتنا عن اندلاع الفوضى العارمة،

نعم عزيزي، الرجل الذي عامل القس بلاي كما لو كان كلبًا أجرب، كأنه ضرطة!

هل تفهم؟ لقد أمسك الرجل بالقس كأنه ورقة وقذف به من فوق المنبر.

ورفعه عاليًا ليرتطم بالزجاج.

يا يسوع المسيح!

الذي نعرفه، أنه لاحقًا أمسك الرجل بالقس مثل الشيطان، صفعه، ثم صفعه مرة تلو الأخرى، وفي لحظة كان القس يبصق الدم.

يا للجحيم!

كل هذا ولم ينتهِ، بل واصل

ضرب القس على رأسه،

ركله في ظهره، ثم ركله في خصيتيه،

هرس وجه القس،

كل هذا قبل أن نفكر في زئير الأسد الذي حذّرنا منه القس.

يا للجحيم!

ثم نعت القس بثلاثة نعوت

ثلاثة نعوت؟ ما الثلاثة نعوت؟

في البداية دعاه بعدوّ المسيح،

وهو ما عليه فعلًا،

شكرًا يا يسوع،

ثم دعاه بالآثم،

يا بابابا... ليكيم... شيكم!

ثم دعاه بالدّجّال،

قالها بهذه الطريقة: دجّاااال

لتحلّ رحمة يسوع الأب،

ثم تحدث بكلام غير مفهوم،

وهو ممسك بالقس ومستمر في ركله،

ما هذا بحق يسوع الرب!

أمسك الرجل بالقس بلاي كأنه خرقة بالية وألقاه خارج الكنيسة، رأينا ذلك بأعيننا،

لكن مَن يكون هذا الرجل؟!

***

بعد أسبوع، قالت لوسيندا إن الروح القدس كانت تتحرك بقوة، لكن في تلك اللحظة، بدا أن روحًا أخرى تتحرك عبر المقاعد. في تلك الدقائق القليلة استطال الرجل، وارتدّ صوته ذو النبرة القوية المتسلطة من سقف إلى آخر. ربما هو جبريل أو ميكائيل أو ملاك مُنتقِم أرسله الرب ليخبرهم أنه مستاء؛ عقابًا لجيلهم على الكذب والسرقة والزنا. شيء جيد إذن أن جسد لوسيندا طاهر. لكن الظلمة تلفُّ الرجل إلى درجة أنها تساءلت عمّا إذا كانت روحه سوداء تمامًا. تراجعت عندما شحِب جسد القس فاقدَ الوعي أمامها، كان بلاي يغمغم لنفسه ويسراه متدلية على الأرض، ويمناه في قبضة الرجل الأسود الذي جرّه عبر الممر، وخرج به من باب الكنيسة الذي لم ينتبه أحد وهو يفتحه. بعد أسبوع أعلنت لوسيندا أن ظهوره من عمل يسوع، لكنها في ذلك الوقت كانت تخشى عمل روح أخرى، تلك التي أسماها القس بصوت خافت «العدو».

بالعودة إلى الكنيسة، استجمعت لوسيندا نفسها، وتلت صلاة شفاعية مرتاعة لكنها في توقٍ إلى عودة الرجل.. توق؟ لقد استثار عاطفة ميتة منذ فترة طويلة في نفسها طالما دَفَنَتها تحت ركام

العبادة.

انتظرت الكنيسة، ليعود من الخارج كأن الشمس ولدته؛ متورّد ووسيم، خليط بين الأبيض والأسمر، أو ربما من الهنود ذوي اللون الفاتح أو صيني مخلّط. تطايَر شَعرُه الطويل المجعّد من ضرب بلاي، لكن لوسيندا تخيّلَت أنه على هذا النحو دائمًا. شفّت ناره فاتجهت إلى كرسيها على الفور. لكنه رآها وهي تهرب.

«لكن يا أخت لوسيندا، أليس هذا ما كنت تُصلّين من أجله؟ ألم تتعب أصابعك من الكتابة؟ ألا تتألّم ركبتاك من الركوع انتظارًا لردّ الرب؟»، ثم لمس وجهها وهمس: «ألم يَرَكِ تمزجين الشاي فأتى؟».

وبربتة واحدة أدانها وباركها، فسقطت على الأرض وهي تصلّي وتبكي. صعد الرجل إلى المنبر ولوّح للخمسة، الذين كانوا لا يزالون واقفين حتى تلك اللحظة. شعر المصلون بالحرية أيضًا، وانطلقت الهمسات والأحاديث الجانبية. رفع يده مرة أخرى فسكتت الكنيسة، باستثناء لوسيندا التي مدحت الرب على ناره الآكِلَة، لكنها تساءلت عن مدى معرفة الرجل الأسود، وارتجفت؛ كيف سمع عن الشاي؟ تخلط لوسيندا الأعشاب خفية كلما ارتدت جلدها السري في الليل.

«مَن يدري ما حدث هنا؟» ساد الصمت.

«ألا يريد أحد أن يخمّن.. لا؟ ارفعوا أصواتكم، لقد كنتم جميعًا تنبحون منذ دقيقة واحدة فقط».

«النار الآكلة!».

«النصر... لقد باركَكم ربي بالنصر! اصرخوا ببركته من أعلى

الهضاب، اصرخي بها من أدنى الأرض يا جيبيه. لقد سمع الرب صراخكم، ورأى معاناتكم.. إن بقاء الجسد لفترة طويلة مع هذا الرجس والمنكرات على رأسه فقط بسبب رحمة الخالق... هذه الكنيسة وصمة عار، أقول لكم.. وصمة عار، وجميعكم مسؤولون عن ذلك... هل قلت كلّ شيء؟ ها أنا ذا أقف مستقيمًا.. والكنيسة نصف فارغة. يبدو أن المعنيين يجدون الرب في مكان آخر. أين هم؟ هل هم في المنزل؟ في السرير؟ في سرير شخص آخر؟ يسرقون؟ يرتكبون الآثام؟ حسنًا، تحدثوا، لقد كان لديكم جميعًا أفواه قبل قليل... أهذا ما جاء إليه جسد المسيح؟ ربما ليس خطأكم... ربما تحصل الرعية على الرعاة الذين يستحقونهم.. ربما بينكم وبينه شيء ما، ها؟ فهو لا يحاول إنقاذكم، وأنتم لا تحاولون أن تلعنوه.. أوه، نعم، أنا أدرك ما يجري هنا.. إنها أمور من شأنها أن تجعل الشاذ يحمرُّ خجلًا.. لكن الرب أرسلني.. وأول ما سنفعله هو تنظيف هذه الكنيسة.. اسمعيني يا جيبيه، لقد جئت لإعادة الاستقامة وسحق الظلم، هللويا.. جئت لتعزية المنكوب ونكبة المرتاح.. جيبيه، لقد جئت بالسيف!».

اعتلى المنصة فشاهد المصلون وجهه، وقد ارتخت خطوط غضبه المنعقدة، وأصبح وجهه دافئًا.

«متى كانت آخر مرة رأيتم فيها الرب؟ هل شعرتم بحضوره؟ هل سمعتم صوته؟ متى كانت آخر مرة دخلتم فيها أبوابه بالشكر وبيته بالتسبيح؟ لم تروه، لكني أراه بوضوح.. الرب على وشك الخروج من هذا المكان.. لكن الرب.. هل تشعرون بالروح؟ أيمكنكم سماعها؟ إنها هنا.. هذا إحياء.. رؤية جديدة.. وحي جديد.. وأنا أتنبأ باسمه. هل

يمكنك الشعور به يا أختي؟ هل يغمرك يا أخي؟ أنا أشعر به.. كل مَن هو من أبناء الرب ينبغي أن يشعر بذلك الآن.. الآن! أيتها الكنيسة، هذا يوم جديد.. عهد جديد؛ أتعرفون ماذا يعني العهد؟ يعني أن شيئًا قديمًا قد مضى وشيئًا جديدًا يبدأ.. نعم بالتأكيد.. اسمي يورك.. أيعرف أحدكم ترنيمة (أنا سعيد للغاية)؟».

أطلق على نفسه اسم الرسول يورك. حتى الآن لم يتغير أي شيء في جيبيه المرتجّة بفِعل قوته المزلزلة: لا الراديو، ولا علكة بازوكا جو، ولا الواقيات الذكرية. كان زوبعة، تدور حول نفسها. اختلجت الأصوات المهتاجة بالحديث عن مظهره، وبأنه يشبه تايرون باور في فيلم «قناع زورو» الذي يُعرَض في سينما ماچيستيك، لكن بلحية مشذّبة وعينين واسعتين، وشعر أسود جامح مثل عمال المناجم. أرسله الرب إلى جيبيه، يشبه يسوع تمامًا، وهذا يعني أن لديه القدرة على التعامل مع القس بلاي بصرامة مثلما تعامل يسوع مع مرابيّ المعبد.

اختفى القس بلاي بخزيه وعاره، اختفى هكذا ببساطة. لم يكن أحد متأكدًا من سلطة هيكتور بلاي كقس، لكن يورك رسول؛ مثل بطرس وبولس، مثل شخص يعرف يسوع، هذا ما أوحت به خطبته. علّقت لوسيندا اللافتة على المكتب الذي قضت يومين في تطهيره من آثار هيكتور بلاي. ساعدت الرسول على الانتقال، وتحوّلَت عزيمتها الصلبة إلى قلب وديع مستكين. ومع ذلك، لم يكن هناك الكثير لنقله، فلم يجلب الرسول أي شيء تقريبًا في رحلته.

في خلال خمسة أيام، تغيّرَت لوسيندا، أرخت كتفيها المتوترتين دائمًا، وأزالت تكشيرة أنفها التي تجعلها عابسة دائمًا. لكنها لم تكن مرتاحة؛ لقد ذكر الشاي، ومع أنه ذكره مرة واحدة فقط، فلا تزال تلك اللحظة تزعجها، وتساءلت كيف خمّن، وماذا يعرف؛ فلم يُفشِ الرب أسرارها من قبل!

أعاد التغيير تشكيل جيبيه؛ لكل قرية إيقاع ينكشف في السرعة التي يسير بها الرجال وتتحدث بها النساء. أثار التغيير قلق المسنّين الذين انحصرت حياتهم في الفرجة على ما يحدث. استمرت القرية تدندن وتصفر وتهمس وتصرخ وتضحك لكن حتى العصاة اهتموا بمقابلته. شعر الرجال السكارى والنساء المنحلات بالفضول تجاه الرسول يورك، هذا السفاح المنقذ لكنيسة القديس توما الرسولية الإنجيلية، الرجل الذي ضرب وربما قتل القس بلاي، ثم أرسله إلى الجحيم، الرجل الذي جعل الروح القدس رعدًا.

مسحت لوسيندا الكنيسة لتطهيرها من هيكتور بلاى الذى أسمته هيكتور المخرّب، سكبت المياه على الأرض، وجاءت بممسحة ودلو ومنظّف، بعقل عازم على الخلاص وقلب عازم على التجدد نظفت لوسيندا الكنيسة لتنظف نفسها، كانت تمسح وهي تدندن لحن «أقرب من الأخ» وتنظف المقعد الجانبي، وهي تدندن أغنية «انسابي ببطء أيتها العربة الجميلة». هذا عملها وهدفها، لقد أمرها الرب أن تمهد الطريق، وأن تجعل الكنيسة جاهزة، فمسحت المنصة، وأرضية المذبح، ودعكت النوافذ كي يتلألأ بريقها، حتى إن ضوء الشمس انسال من خلالها، وارتد على المقاعد الخشبية، ثم ذهبت لتنظف المكتب.

سوّدت الفوضى الغرفة، وغطّت ظلال الكتب والصور والخرائط الجدران الزرقاء الفاتحة. فتحت النافذة الزجاجية فتطاير الغبار من حولها مثل الشياطين. شتمت القس المنفلت الذي حملت الغرفة رائحته مختلطة برائحة الخمور والفشل. تخلّصَت من كل كتاب لا يحمل علامة الكتاب المقدس، وبعد ساعتين صارت الغرفة نظيفة

فسيحة، استعاد المكتب الماهوجني الكبير وسط الغرفة روعته، وخلفه الكرسي الكبير، وأعيدت الأناجيل إلى الأرفف النظيفة التي أحاطت بالمكتب يمينًا ويسارًا. مسحت الأرض وصقلتها حتى رأت ركبتها المسلوخة منعكسة عليها. وبينما لا تزال تدندن «أقرب من الأخ» و«انسابي ببطء أيتها العربة الجميلة» رتّبَت كتب الرسول حتى لو لم يُطلب منها ذلك، وربتت على الكتب التي تعرّفَت عليها: الكتاب المقدس الأمريكي، والمعجم المفهرس للكتاب المقدس، وكتب المكابيين، والحكمة، والفنون سيئة السمعة، والسحر. كانت بعض الكتب دون عنوان، وهو ما أثار حيرتها لبرهة، لكنها رضّتها بثقة عندما صادفت اسم سليمان، وهي تقول: «الحكمة هي الحكمة». وأخيرًا صار المكتب جاهزًا.

«يا إلهي! ماذا أقول يا لوسيندا، لديك موهبة.. موهبة حقيقية! ليباركك الرب! لقد كان هذا المكان جحيمًا محضًا، لكن الرب استخدم ابنته للتو... نعم لقد فعل، نعم فعل». ثم لمس جبهتها، فتدفقت الدماء إلى خديها الأبنوسيين.

«شكرًا.. أيها القس.. أعني أيها الرسول.. بالإذن يا سيدي». ثم غادَرَت بسرعة، غير مرتاحة لرجل أعلنت بالفعل أنه قوة روحية. الرسول أكثر بكثير من مجرد قس، أو خاطئ. قال مبتسمًا:

«يمكنك الذهاب... إلى الأحد إذن». ظهرت خيوط الضحك على وجهه فأضعفت ركبتيها: «إلى الأ.. الأحد».

***

كان القس بلاي نائمًا خلف القرية على ضفة النهر، سقط خلف

أشجار جوز الهند والموز الذابلة، مستريحًا تحت سقف صنعته الأغصان المتساقطة المتهالكة الضعيفة، المهددة بالسقوط في أي لحظة، تمامًا مثلما يشعر هو. ومع ذلك قاوم الشعور بالوهن. لقد أيقن أن الأشياء تحدث لحكمة أرادها الرب، وبمجرد قبولها سيجد السلام. عرف بلاي أن هذا اليوم سيأتي لا محالة، فقد رآه في قاع زجاجة الرّم، إنه انتقام الرب، وها هو ينفُذه. آلمه وجهه المصاب بالكدمات. كان عقله مضطربًا، يتناوب عليه الشعور بالذنب والارتباك وعار الفضيحة. يمكن للمرء أن يلعب دور القس لفترة طويلة حتى يحين وقتٌ يدوس فيه الرب بقدميه هذه المهزلة وينهيها. جعله صخب النهر يهدأ وينام.

قَدِمَ هيكتور بلاي إلى جيبيه عام 1951م، ومكث هناك ست سنوات. سمع عنه كثيرون، لكن لم يسمع به أحد من جيبيه قبل ذلك. توفي والده وشقيقه في عام 1927م، والده بقلب مكسور، وشقيقه برقبة مكسورة. تذكر هيكتور الأرضية الرخامية وخطوط البلاط التي ارتطم بها جسد أخيه المهشم بعد سقوطه من الشرفة. صرخت مدبّرة المنزل، ومن مكانها في الأعلى نظرت إلى الأرض فرأت هيكتور عاريًا، تفوح منه رائحة العَرَق، وقضيبه لا يزال منتصبًا، فصرخت مرة أخرى. وفي غرفة نوم هكتور، جلست زوجة أخيه عارية في زاوية مظلمة تبكي، والسرير المشوش شاهد على خطاياهما. وبعد فترة وجيزة التحق بمعهد اللاهوت.

قاد الشعور بالذنب حياة القس بلاي. بدا الفشل مستمرًا ومتعمّدًا. جيبيه أبرشيته الحادية عشرة في عشرين سنة. عشر منها قضاها في الدراسة، وهذا مريح بالنظر إلى فشله كقسٍّ، فسجلُّ خدمة

بلاي هو الأسوأ في المقاطعة. سيقول الناس إنه إذا كان ما يفعله قس الرّم هو الحؤول بين الجنة والجحيم، فسيؤدي جدار أسمنتي هذه المَهمّة بشكل أفضل. وتساءل البعض عن سبب قيام رجل ثري مثل أليوسوس جارفي بتوظيف شخص عديم القيمة مثله، لكنّ آخرين عرفوا لماذا؛ لم يعتد أليوسوس جارفي التدخل في شؤون الفقراء، وليس من المنتظر أن يتدخل الفقراء في شؤونه، فقد اعتاد القرويون دفع الإيجار بوضع النقود في صندوق بريده، لا بالتعامل معه شخصيًا. هكذا تجري الأمور، والآباء والأمهات يعلّمون أبناءهم الأسلوب نفسه. لم يُشاهد السيد جارفي ولا أبناء أخيه منذ أسابيع؛ لذلك لم يتوقع أحد رؤيته الآن مُرحّبًا بالرسول، فهذا شأن من شؤون الفقراء.

نخس شيء ما بلاي بحثًا عن طريق للداخل، فاعتقد أنه يحلم حتى دفعت العصا نفسها بين شفتيه الكسولتين، وضربت أسنانه بقوة وفظاظة، فاستيقظ من نومه مذهولًا، وصرخت الفتاة، الأصغر بين الثلاثة، مذعورة وفَرِحة لأنها أيقظت عملاق الشجيرة النائم، لكنه استيقظ الآن وقد يأكلها، وهذا ذنب أخيها الذي جرّأها على فعل ذلك. سقطت العصا من فمه وهو يفرك عينيه، وسمعهم يضحكون «لقد عثرنا على القس».

أزال بلاي الطين عن سترته ووقف، لا يزال جسده نائمًا. اختبأ خلف ظلال الأشجار حتى هرب الأطفال. حاليًا، كان في معظم المنازل الموجودة على طريق بريللو، مياه جارية، ولا يوجد سبب يدفع أحدًا للذهاب إلى النهر الذي يتدفق ببطء، في حركة حزينة كحزنه. راح بلاي طي النسيان، في المكان الذي عُثر فيه على جثة

الفتاة الشيطانية ليلاماي طافية. منذ ذلك الحين صار في النهر شيء من الموت، لكن ما هو، لم يكن أحد متأكدًا حقًّا. شيء حي، ليس على هيئة بخار، أو روح، أو ذاكرة، أو لا شيء على الإطلاق. من المحتَّم أن يكون هذا هو المكان المناسب للعثور على فتاة ميتة، كأنها أوفيليا. النهر الآن مجرد حدٌّ لإبقاء الخير قريبًا والشر بعيدًا.

جاهد عقله مُحاوِلًا فهم ما حدث يوم الأحد، لكنه لن يفكر في ذلك اليوم؛ لهذا ظلَّ يشرب كي لا يسمح لعقله بالتمرد على نفسه. تساءل البعض في جيبيه عمّا إذا كان قد ضجر من السخرية والازدراء، لكنه لم يرفض ذلك قطُّ، لقد قَبِل أن يُنظر إليه على أنه بسيط، ويائس، وحتى غبي، واستقبل الهمسات والضحكات الساخرة التي لاحقته أينما ذهب. قَبِل بهذه الأشياء لأنه يعلم أنهم إذا توقفوا عن الهمس أو الضحك فسوف يبدؤون في التفكير، وإذا بدأ القرويون بالتفكير فسيدركون لا محالة أنه ليس قسًّا، بل آثِمٌ يلعب دور القديس. كان شبح أخيه يهمس له في كل مرة يلبس الثوب الملون بالأبيض والأحمر.

كفى تفكيرًا، من الأفضل أن تعيش بجوار شجرة عند النهر. الرب أعطى والرب أخذ. وقبل انقضاء الأسبوع عرفت القرية مكان القس بلاي.

***

يا إلهي، ألم تسمعوا آخر أخبار القس يا أحبائي؟ لا!

هل أخفينا عنكم السر؟ تخبرنا الحدوتة الشعبية:

حسنًا، يقول الناس إن القس يعيش عند النهر يعيش مثل المجنون. قدّوس يسوع أبونا السماوي.

الحقيقة.. الحقيقة. إنه هناك.. يعيش مثل الكلب. يقول الناس إن حياته بائسة هناك.

أين كان الناس يتوقعون وجوده، في الخراء؟

لقد اعتقدنا أن الرسول قتله.. مَن قال لم يمُت؟

صحيح، قس الزّم ليس سوى شبح الآن، هيه هاي! يمكنك الذهاب لتلقي نظرة؟

لا يا بابا، مَن يريد أن يرى ذلك؟

مَن رأوه يقولون إنه عندما تخف رأسه يداعب قضيبه.

واو، كم أن لسان الناس قذرا كما أن الجميع في جيبيه يعرفون قضيبه بالفعل.

أهلًا، هل سيبقى القس بلاي عند النهر لبقية حياته؟

لا نعرف، لماذا لا تذهب وتسأله؟ لماذا لا يعود من حيث أتى؟ هذا ما يريد المسيحيون معرفته.

إييه! لا ينبغي أن يكون صعبًا أن يعود من حيث أتى.

هل تعتقدون أنه لا يعرف ذلك حتى الآن؟

أمر سهل! كل ما عليه فعله هو حفر حفرة عميقة ليرتاح فيها، هيا يا طفلي على بيتك!

الحقيقة.. الحقيقة. كان مهزومًا دائمًا.

ماذا كان؟

واو.. أيها الناس ألم تشاهدوا العرض السينمائي؟

أنت جاهل يا بابا. جاهل مثلك يا بابا!

***

عرف القس أن الجميع يعرفون، وعرف الجميع أن القس يعرف أن الجميع يعرفون، ومع ذلك تصرف الجميع كأنهم لا يعرفون شيئًا. كأن السر رهيب ولا تصحُّ مشاركته مع الرسول. اعتمدت القرية إيقاعًا جديدًا كأن هيكتور بلاي لم يكن موجودًا من قبل.

يوم الأحد اكتظّت الكنيسة، لدرجة أن لوسيندا أضافت خمسة أضعاف عدد الكراسي في الممرات الأمامية والجانبية. جاء البعض للتمجيد والعبادة، لكن الغالبية جاؤوا ليتفرجوا. جلسوا وتحدثوا وثرثروا وضحكوا مثل سمكة قرش نَتِنة. ترنَّمَت الجوقة بترانيم المديح، وكان أولئك الذين لا يعرفون الكلمات إمّا يهمهمون أو يحدقون في السقف، محاصرين في لحظة ليسوا جزءًا منها. صفقوا لأغنيات لا تحتاج إلى تصفيق، أو وقفوا صامتين، آملين أن يُقرأ الصمت على أنه تقديس. لوسيندا في المقدمة بالفعل، منهمكة في إدارة شؤون الأحد، لكنهم ليسوا هنا لرؤيتها، بل ينتظرون ظهوره. رفرفت أردية الرسول على الرغم من عدم وجود رياح. كانت أردية القس بلاي بيضاء وحمراء، كأنها لافندر ومبيض، منظف ومطهر. أما أردية الرسول بالأسود والأحمر فقد انفجرت بالحيوية والرعب

والعظمة.

رنّمت الجوقة بهدوء ترنيمة «النعمة المجيدة» حتى سيطر على المنصة، وتملّكته الروح.

«يا إلهي! يا الآب السماوي! ملك الملوك ورب الأرباب! خلّصنا لأننا بؤساء يا ربنا! أنا العاصي! خلّصنا أيها الجبار! كنا عُميانًا لكننا نرى الآن! أيها الرب الغالي».

«النااااار الأكلللللة... النااااااار آكلللللة».

«هللويا! ليتمجد اسم الرب! ليتمجد اسم الرب! يسوع».

من آخر الكنيسة جاءت امرأة، وقبل أن تجلس أصابها سعال شديد، فربّتَ على صدرها، لكن السعال اجتاح حلقها وزادت حدّته «أيها الرب اشفِ عبدتك هذه... نحن نقدّم لك أسمى درجات الحمد! وستقول الكنيسة».

«آمين».

«لا أيتها الكنيسة هذه آمين ضعيفة جدًا... يريد الرب أن يشمّ رائحة تسبيحكم العطرة.. وستقول الكنيسة؟».

«آمييييين».

زاد سعال المرأة واستمر، فأخذها أحد الخمسة إلى الخارج حيث تقيّأت، وعندما لم يبقَ شيء يُتقيّأ، أطرقت وتعفّرَت على الأرض، وعندما ساعدها أحدهم على النهوض تقيّأت مرة أخرى.

جلس المصلُّون، وحدق الرسول فيهم لعدة دقائق، ملقيًا نظرة

فضولية على البعض، وغاضبة على البعض الآخر «يبدو أن الكثير منّا... ما الكلمة التي أبحث عنها؟ ستأكلهم النار.. نعم، النار المقدسة؛ لذلك كان علينا أن نأتي إلى بيته اليوم، آمين؟ بعد كل شيء، ينبغي أن يكون الرب هو مَن أتينا جميعًا لنراه، أليس كذلك يا كلارنس؟ الكثير منكم ينظرون، لكن لا أحد يرى حقًا، أنتم عميان مكبّلون.. أعرف لماذا أتى بعضكم إلى هنا.. أعرف لماذا معظمكم هنا.. لم تجيئوا من أجل الرسالة، بل من أجل الفوضى.. لكنكم تعلمون، احمدوا الرب لأنه لا يأبه بكيفية دخولكم إلى بيته، ما دمتم قد دخلتموه».

«هللويا! هللويا!».

«لكني الآن أريد أن أفعل شيئًا غير معقول.. هل يمكنني فعله أيتها الكنيسة؟ هل يمكنني فعله؟ هل هذا جيد؟ نعم؟ حسنًا، ليقف كل مَن لم يكونوا في الكنيسة الأسبوع الماضي من فضلكم».

وقفوا واحدًا تلو الآخر. وبّخ السكارى أنفسهم لأنهم انجرُّوا إلى هذه المهزلة. حتى المسيحيُّون خشوا أن يكونوا عبرة. علت الابتسامات المحرجة وجوه البعض، وحدّق البعض إلى الأرض. قلّة فقط نظروا إلى الرسول، الذي صمت لبضع ثوانٍ ثم قال: «ليتمجد الرب، اليوم سنتحدث عن الخراف الضالة».

علم قشّ الزّم أنه لن يُرى، وهذا لا يتطلب يقينًا، يعرف حب جيبيه للمشهد. لقد انجذبوا إلى الرسول، وانجذب هو أيضًا. مشى بامتداد الطريق إلى المسار القديم المرصوف بالحصى حتى درجات الكنيسة، لكنه أصيب بحزن شديد بمجرد أن رأى برج الكنيسة، ولم يستطع

التقدم أكثر من ذلك.

«أخبرك أيتها الكنيسة أن الأمر متروك لكِ لإعادة كل هذه الخراف الضالة.. لا أستطيع أن أفعل الكثير.. لا يسعني إلا أن أناضل ضد الشرير.. الأمر متروك لكم.. الآن افهموني، أعلم أن ضلال الخراف ليس خطأكم، بل خطؤه.. أنتم تعرفون عمّن أتحدث».

«عِظنا أيها القس».

«القس يبدأ كنيسة بعشرة أعضاء ويموت بنفس العشرة اللعينة.. أنا لست قسًا، لقد جئت بالسيف... إذا كنتَ لا تخدم الرب، فأنت تخدم الشيطان.. إما هذا أو ذاك، حتى تموت.. لذلك عندما تزحف إلى سرير ليس لك، ففعلك هو فعل الشيطان.. هل يمكنني الحصول على شاهد.. كلارنس؟». شعر كلارنس بارتجاف خصيتيه.

«يوجد خروف ضالٌ، لكن البعض منا لا يريد العثور عليه.. هل أنتِ مستعدة لهذا السر يا جيبيه؟ هذا سيجعلك ترتجفين.. بعضكم وسط القطيع ولا يزال ضالًا».

فجأة استيقظت امرأة كانت تشخر، فتحت عينيها، وشعرت بالحرج وهي ترى لعابها السائل على الأرض، انسال من شفتها على الرغم منها، فجمعت شتات نفسها وجلست منتصبة، ثم فتحت كتابها المقدس كطالب متحمّس، وعندما سقط اللعاب على طرف الصفحة أغلقت الكتاب المقدس بصوت عالٍ، ومسحت شفتها، وهي تنظر باضطراب يسارًا ويمينًا.

عاد القس بلاي إلى النهر، فهو فقط مَن سيرحب به الآن. قبل

أيام قليلة فقط انهار تحت ثقل الشعور بالذنب والعار، لكنه الآن لا يستطيع الهروب من الشعور بالخفة. ماذا هذا إذن، الصدق النابع من مياه الحقيقة الآسنة؟ الارتياح؟ الرب أعطى والرب أخذ.

لقد تقرّر أن يصبح قسًا قبل وفاة أخيه، فلماذا تداعت حياته بعد ذلك؟ تقبّل بلاي الذنب كما فعل مع كل الأشياء، حُكِم عليه أن يعيش موت أخيه مرارًا وتكرارًا. وقته وذاكرته مثل الرب بلا حدود. لكن لماذا يعذبك رفض الأرض بينما أنت بالفعل مرفوض من السماء؟ ربما الرسول يورك نعمة ونقمة. ربما هذه عقوبة مؤجلة. ترك تدفق النهر الحر يقنعه. وفكر في مئات الذنوب التي غفرت، وفي ثقل الخطيئة، واعترافات الضمير المتهور. ليقلق شخص آخر بشأن إلقاء الأمهات اللوم على الأبناء، وبشأن الآباء الذين يحكُون قضبانهم ببناتهم. لقد غسلته الحرية. كان يغرق ركبته في الماء، يرشُه، ويركله، ويتمايل، لكنه ليس سعيدًا. ليس فَرِحًا إذن، ربما أطلق سراحه، لكن بلا ابتسامة بل لهث. لا ضحكة، بل نفَس مفاجئ حادٌ. خلع بلاي سترته الرعوية وقميصه الداخلي، وبنطلونه الرعوي وشورته. أغمض عينيه وعقّد نفسه. وعندما خرج من الماء، وجد الملابس وقد طفت بعيدًا. ابتعد شورته ذو الخطوط البيضاء والزرقاء، فطارده، وتعثّر عدة مرات. كشطت الصخور القاسية أصابع قدميه. سقط، وابتلع الماء البارد، لكن الشورت كان يقوده مثل القربة. سمع بلاي ضحكة. ضحكة الشيطان والأخ. انظروا إليه، المغفل الأكبر في العالم المسيحي.

أنساه الخجل الحرية، لقد سحبه الشورت وراءه في المياه العميقة والضحلة، والصخور الخشنة والزلقة، والتيارات الضعيفة والقوية،

ثم توقّف أخيرًا على لسان من الطين المعشوشب، الممتد من الضفة يكاد يغلق النهر، فلهث، وانحنى ممسكًا به، وعندما وقف، وجد الأرملة أمامه، يداها في خاصرتيها ووجها عابس. سرعان ما أبعد عينيه عن وجهها، ناظرًا إلى كتفيها العريضتين وذراعيها السميكتين اللتين صنعتهما سنوات من العمل الشاق كالرجال، ثم نظر إلى فستانها الأسود الذي اهترأت أطرافه عند ركبتيها.

«يا للمفاجأة! انظروا كيف صار الحال برجل الرب ..س..».

ترك فرصة للصمت والهدوء. في الماضي، كان الشكر ينقذه من الإحراج، لكن لا أمل الآن إلا أن تختفي من أمامه. وإذا مزّا ببعضهما بعضًا، فسيكون كِلاهما غارقًا في محنه الخاصة، ولن يعترفا بمعرفة تتجاوز الإيماءة. تذكّر مَن هي، الأرملة جرينفيلد التي دفَنَت زوجها قبل خمس سنوات، وتوقّفَت عن الحضور إلى الكنيسة منذ ذلك الحين.

«مالك تركض في النهر مثل كلب أجرب وكل ملابسك معلقة.. لكن هذا ليس جديدًا بالنسبة لك.. حسنًا، ماذا يمكنك أن تقول لنفسك؟ أظن أن عليك الحذر بشأن ما تقول... حسنًا، لا أعرف احتمال بقائك في النهر؛ لذا ليس أمامك إلا أن تأتي معي.. إلا إذا أرسل إليك الرب بدلةً من ثلاث قطع». تحرّكَت غير ناظرة لترى ما إذا كان سيتبعها. لم يكن لديه مكان يذهب إليه، فتبعها، ليس لأنّ تَحفُّل البعوض ليلة أخرى كان أمرًا لا يطاق، وليس لأنه سيكون مرة أخرى تحت سقف. تبعها لأنه أصبح الآن رجلاً مجرّدًا من السلطة، وذهب إلى حيث أخبَرَته السلطة.

بمجرد أن رأى طريق بريللو، اختفى شعوره بالارتياح، كان منزل الأرملة جرينفيلد قريبًا من القمة، وأثار اثنان يمشيان في الشارع الكثير من الضجة. أحدهما أشار إلى القس بلاي بطريقة أخجلته أكثر مما يشعر. وبينما يقطر ماءً ويرتدي شورتًا قصيرًا ويعرج، حملت كل خطوة إذلالاً جديدًا: القس المشلوح من منصبه، صاحب الفضيحة العلنية في الشارع، الذي طُرد منه دون خمور تُشتُت وعيه. ضحك الأطفال، وهمست الزوجات، واستدار الرجال. فقط لوسيندا يمكن أن تجعل الأمر أسوأ، أو الرجل ذو الرداء الأسود. دائمًا هو الرجل القوي الغريب الذي يرتدي الأسود. لم يكن قطُّ يورك الرسول. لكن هذا ليس كافيًا لأن يسير خلف الأرملة كأنه كلبٌ أو خادم. ما الذي يفوق هذا العار؟ المزيد من العار. وصمة عار حزينة قضت على كرامته بأفظع مما يمكنه تخيّله. كان محرجًا بشدة إلى درجة أنه انفصل عن الموضوع، وسخر منه، فتركه أكثر خجلًا. ليت الرب يميته الآن في هذه اللحظة بالذات، قبل أن تشاهده القرية، وهو يجرجر قدميه إلى منزل الأرملة جرينفيلد.

الإحياء

الجزء الأول

في يوم الأحد شفى ستة رجال وسبع نساء وثلاثة أطفال. معظمهم يعيش خارج جيبيه ولن يُرَوَا مرة أخرى، لكن وفقًا لإحصاء لوسيندا فالعدد لا يزال أكثر ممّا حدث في كل سنوات كرازة هيكتور بلاي. بعد أن صلّى من أجل الخلاص وأرسل المخلّصين حديثًا إلى مقاعدهم، مباشرة أمر الرسول الخمسة بالبقاء عند المذبح. لكنهم تباطؤوا، أحدهم وقف في حالة تأهُب، وتململ آخر، وألقى ثالث بنظرة على اليمين، وآخر على اليسار، وآخر على الأرض، خافوا جميعًا أن يكونوا عبرة.

«باسم الآب ألعن الروح الشريرة.. أربطها بدم الحمَل! أنتزعها من أحلامهم وأفكارهم وأعيدها إلى الجحيم». تحدث يورك بلغة لم يسمعوا بها من قبل. تلا ذلك أن صرخ «توني كيرتس» بصوت هزّ الكنيسة، وهو الأبكم منذ حادثة أصابته وهو في الثانية عشرة. لم يكن قد سقط بعدُ عندما بدأ بقية الخمسة بالصراخ والصياح والسقوط على الأرض متشنّجين. تذكر الناس أنه قبل أن تطعن ليلاماي القس بلاي كانت قد ألحقت الضرر بالخمسة الذين حاولوا إخضاعها. قفز الأخ «فيكستون» وهو يصرخ: هللويا! لقد عولج تصلُّب رقبته. وظل الأخ باتريك على الأرض منتحبًا لأنه استطاع التنفس بشكل عميق للمرة الأولى منذ عامين. ووضع الشماس«بينكني» يده على عينه اليسرى وبكى عندما أبصر بعينه اليمنى. وشكر الأخ چاكس الرب على ارتدائه ملابس داخلية ضيقة،

لأن المعجزة أذهلته، وأوقفت قضيبه منتصبًا طول الطريق إلى المنزل، حيث يمكنه للمرة الأولى منذ عامين أن يضاجع زوجته.

***

«أتعتقد أنها ستجفُّ من تلقاء نفسها؟» قالت الأرملة نافدة الصبر منزعجة من ثقل لسانها، وهي في الحمام مع القس بلاي. بعد أحد عشر عامًا دون رجل، لم تعُد تدرك المسافات التي ينبغي أن يحافظ عليها الرجال والنساء في تعاملاتهم. وبدا الابتعاد عن رجل لمجرد أنه كان يخلع ملابسه أو يتبرّز سخيفًا مثل الكذب بشأن زرقة السماء. من المؤكد أنها لم تغادر قبل أن يعطيها الشورت القصير. هذا ما ستفعله به، وهو يعلم ذلك؛ ستجعله صغيرًا، لكن بالمعنى الأكثر شرًّا للكلمة. لقد تقرر أن يتحول من رجل إلى طفل، عاجز وملتزم بالأخلاق. تركته هناك، وأغلقت الباب بقوة رجولية أثارت رياحًا جعلته يشعر بالبرد، ويشم رائحة اللافندر.

حين ترمَّلَت، أعادت السيدة جرينفيلد الحمام أنثويًا للغاية، بينما لا تزال بقية المنزل تحمل ختم حضور زوجها: غرف ذات ورق حائط مزخرف تطاردها برائحة التبغ، وكولونيا أولد سبايس، والأتربة، وشاي إيرل جراي الذي لم يكن يشرب غيره. لم يكن الحمام ورديًا فحسب، بل بنفسجي وردي بستارة دش شفافة مزينة بالدانتيل والكروشيه. وغطت سجادة بيضاوية الأرضية المبلطة وغطاء المرحاض. حتى المرآة البيضاوية سخرت منه؛ فنظر بعيدًا. لا بُدَّ أن هذا هو المكان الذي استعادت فيه نفسها. لكن لا يوجد شيء في الأرملة يمكن تلوينه بالوردي، أو البنفسجي، ربما هنا فقط، حيث

تركت نفسها القديمة.

ضرب الماء مؤخرة رقبته، وهو يتبول على نفسه. لقد سمع عن الاستحمام لكنه لم يشعر به قبل هذا اليوم. انبثقت أشعة قليلة من الماء من ثقوب متعددة مثل هيدرا، وهاجمته في الحال. رفع ذراعيه وترك الماء يغسل عيوبه السرية. ضرب الماء وجهه، ولَكَم جفنيه، وأبعد التجاعيد عن خده. يا لها من حيوية جعلته يشعر بالشباب مرة أخرى، هذه فرصته ليكون شخصًا جديدًا. يا لها من هبة إلهية!

يبلغ القس هيكتور بلاي ثلاثة وخمسين عامًا، لكن الشعور بالذنب والإخفاق جعل وجهه يتهدّل ويترهّل. كان على وشك التوصل إلى قرار جديد عندما سرحت أفكاره إلى الجنوب. منحه الدش الكثير من الأفكار، وتساءل عمّا إذا كان الناس يغادرون منازلهم كل صباح مزهوّين بسبب الماء المتدفق! لكنه لا يستطيع التخلص من أوساخه. عادت الأرملة إلى الغرفة غير مبالية بصدمته أو خجله: «أتستحمُّ فقط في مياه النهر؟».

«لا...نـــ...نعم...أنا».

«أعتقد أنك بحاجة إلى صابون أبيض لتشعر بأنك أبيض كالثلج... أعتقد أنك بحاجة إلى الروح القدس.. ارتدِ ملابسك، المنشفة في الخزانة بالخارج.. أحتاج المرحاض».

«المرح...».

«أريد أن أتبول! هل تفهمني الآن؟».

وقبل أن يخطو نحو الباب أنزلت لباسها الداخلي. غادر الغرفة

قابضًا على ما بين ساقيه، وكادت قدماه المبللتان تنزلقان على الأرض. قبل أن يغلق الباب سمع تيار تبوُّلها يخترق ماء المرحاض. أمسك بمنشفة من الخزانة وانتظر في الردهة. بعد دقائق خرجت وهي تمسح يديها على تنورتها، وقالت: «اتبعني».

قادته إلى غرفة الطعام خافتة الضوء. من غرفة الطعام انعطفت يسارًا فتبعها إلى غرفة نوم مظلمة. ومع أن الوقت هو الثانية والنصف ظهرًا، فالغرفة خافتة الإضاءة كوقت الغسق. الملابس في كل مكان، وكذلك الصناديق والخزائن والكتب التي لم تُفتَح منذ وفاة زوجها. في وسط الغرفة سرير مُغطًّى ذو أربعة أعمدة، وقد نُحت كل عمود على شكل أوراق العنب، تلتفُّ لتنتهي بمقبض في الأعلى. تذكر القس قصة «چاك وساق الفاصوليا»، وتخيل ماردًا خفيًا معلقًا أسفل السقف مباشرةً فوق السرير.

«يمكنك البقاء هنا».

«أهذا هو مكان؟».

«نعم... هذا هو.. نعم.. لكني منذ ذلك الحين... لم أعُد أنام هنا.. هل تريد معرفة المزيد عن شؤوني الخاصة؟».

«لا... شكرًا».

«العشاء في الساعة الخامسة والنصف.. أظن أن بإمكانك ارتداء ملابسه، مع أنه كان أقصر منك قليلًا.. أعتقد أنك لو

واجهت مشكلة فبمقدوره أن يحلها لك، فأنت رجل روحاني وما إلى ذلك».

بمجرد أن أصبح بمفرده، بدت الغرفة أكبر، وأكثر زُرقةً، وأكثر ظُلمةً، ولا تخصُّه. تذكَّر بلاي مرة أخرى أنه يبلغ من العمر ثلاثة وخمسين عامًا، وأن حياته كلها خُطِّطَت وهو في الثانية والعشرين؛ أن يتقاعد لمدة عشرين عامًا في سنّ الأربعين، ويقضي أعوامه في الخمول والبستنة والموت. ستأتي اللا مبالاة بعد ذلك، لا قبل ذلك. وبالنسبة لإله شديد الغموض لم تكن ثمة طريقتان لعقابه.

سيقدم العشاء في الخامسة والنصف مساءً. تلا هيكتور بلاي صلاة آمِلًا أنه مع ضوء الشمس ستفقد ذكريات اليوم لونها وتتلاشى مع السواد.

«سيبرد الأكل».

جلس، وقد أعدّت المرأة، التي بدت غير مكترثة، مائدةً من أجله. ليس من المعقول أنها طهت كل ذلك بنفسها، لكن الكثير من النساء اللائي ينكرن الفراغ الذي يسببه الموت ما زلن يطبخن كما لو كان المنزل ممتلئًا؛ هذا ليس جديدًا. خلف قناع الإسراف اختبأ الفراغ الذي يسبّبه الحزن، قدّمَت الدجاج مقليًا في الزبدة مع حساء العسل والثوم، والأرز مطهوًّا على البخار، والبازلاء والبطاطا الحلوة، والموز المسحوق بالزبدة، وخليط الجزر الحلو، والكرنب المبشور مع خلّ قصب السكر. وفي وسط الطاولة إبريق زجاجي كبير به شراب البنش الأحمر وكوبان بلاستيكيان.

«تفضل».

كان يفضل أن تساعده؛ فهذه تجربة مقلقة وغير مريحة، وذكّره ذلك بشعور طفل قلق ينتظر عقاب والده. وسط ذلك الصمت القاسي

لا يوجد سوى عذاب التخمين. الكثير من الطعام سيكون شراهة، والقليل جدًا سيكون مزعجًا. أوه، يستطيع ببساطة أن يأكل مثل أي رجل وينتهي من كل ذلك. تريد النساء أن يكون الرجال رجالًا، وإلا لماذا توضع هذه المكافأة أمامه؟ لماذا تعدُّ له مائدة عامرة في قرية الأعداء؟ وضع كومة من الأكل في طبقه. جميع الأطعمة على البخار، تنزُّ دهونًا، مالحة، ودسمة. هذه أول وجبة حقيقية له منذ سنوات. كان لدى القس امرأة تتولى مهمة الطهو، لكن وجباتها كانت متشابهة بشكل كريه. وبعد قضمتين من وجبة الأرملة، كاد يغصُّ بالنعيم. ثم شرب العصير الذي أحيا لسانًا ظنه ميتًا؛ كأنه مليون قبلة حارة، كل واحدة أكثر بهجة من قبلها. كأنه لوحة فارغة أعيد تعبئتها في دقائق. قالت: «حاذِر، تكاد تختنق».

بدا كأن الأرملة تبتسم، لكنها دفعت كرسيها للخلف، في الظلام، قبل أن يتمكن القس من التيقن. لم تأكل شيئًا. كان العشاء فوضى مزعجة في فمه؛ تقطع شفتاه ولثته الطعام، وبعد أن تقطعه الأسنان يمضغ كل شيء بصوت عالٍ، ويبتلعه مسببًا شعورًا رائعًا. أكل وحده، لا بُدَّ إذن أنها كانت تراقبه، يعتقد أن النساء تحب مشاهدة الرجال يأكلون، هذا آخر انفجار للطاقة البدائية التي خلفها الصياد القديم. لكن كلما رفع رأسه، حتى لو فجأة، وجد عقلها في مكان آخر، تائهة في مساحتها الداخلية، واستنتج القس أنها مكان مرير، لكن ليس أكثر مرارة من مكانه. ولأنها لم تكن تراقبه قرر مراقبتها: امرأة جميلة، استغلت مرارتها لتبدو أكبر سنًا. حارب التجهم بين حاجبيها ليونة بشرتها السمراء، ضفرت شعرها دون عناية، ولديها القليل من الشيب. لا يوجد تناقص بين عينيها الكبيرتين المستديرتين

وعبوسهما. ترمّلَت في وقت مبكر جدًا؛ هي أصغر أرامل القرية. تكون النساء المسِنّات أكثر استعدادًا إذ عندما تموت العلاقة الحميمية يموت معها الرجل. يأتي وقت يصبح فيه السرير خليجًا، ويتخلّى جسدان مُسِنّان عن كونهما جسدًا واحدًا. أفول الحرارة الجنسية هو الموت الأول. والحديث السخيف عن العشاق الذي يفسح المجال للجدل والردود والرفض هو الموت الثاني. واكتشاف مكان هادئ داخل الرأس أو خارج المنزل هو الموت الثالث. والشراب هو الرابع. ثم المرض وعقله الخابي هو الخامس. وتحميمه وتنظيفه كطفل، ثم تمشيط شعره وتنظيف فضلاته هو السادس. وسيأتي الموت السابع، عندما تنهار رئتاه، وتصبح عيناه بيضاوين، ويكون الذباب أول من يعرف.

يا له من تسلسل مبتذل مثل الغسق!.

لكن السيد جرينفيلد مات شابًا، وحملت هي الذكرى مثل سيزيف، هذا ما تفعله الأرامل حتى الموت. أنقذها الرب من رؤية موت زوجها بنفسها، لكن السكارى رأوا ذلك، وحكوا لها كيف مات: شرب أربعة كؤوس من الرّم، ومع كل رشفة كان يشتم زوجته صعبة الإرضاء، ثم سار في خطٍّ مستقيم من كرسي البار حتى الباب ثم حتى الطريق. صعد إلى الشاحنة صاخبًا مسرعًا واختفى، غير مخلّفٍ سوى صدى المعدن والزجاج المصطدم باللحم. وبعد أسبوع، عادت الشاحنة إلى الطريق، والتقطت الحجارة التي كسرها القرويون من الصخور.

في الجنازة، وهي إحدى المناسبات القليلة التي كان القش بلاي يَقِظًا فيها، اقتربت الأرملة من النعش وهمست بشيء ما، ثم غادرت

الكنيسة، ولم تعُد إلى الجنازة أو إلى الكنيسة. أقسم العديد من أعضاء الجوقة، الذين وقفوا قرب التابوت أنها سبّت الرب ذلك اليوم. عادت الأرملة جرينفيلد إلى منزلها، وضعت ستائر على نوافذها. كان الزواج والأطفال رحلة لم تحظ بها هي ولا زوجها.

رفعت الأرملة عينيها فالتقت نظراتهما، وجهها لطيف، غير مسترخٍ لكن لا مبالٍ. نظر إلى طبقه الفارغ، وقال: «شكرًا لك.. شكرًا لك».

«على الرحب والسعة أيها القس».

«أنا... سأعود إلى الغرفة. أنا...».

لوّحت له بلا اكتراث، فشعر بالنبذ والإهانة. لكن عندما نظرت بعيدًا رأى امرأة لا تختبر شيئًا سوى العيش في مكان مكسور.

هل أطلعته على مكمن انكسارها؟ عاد إلى الغرفة مرتبكًا.

9:30

كانت لديه نظرية، حتى إنه وعظ بها، مفادها أن كل شخص في العالم لديه فراغ في قلبه على شكل الرب، لكنّ قليلًا من الناس اختاروا ملء هذا الفراغ بالرب. ربما ملؤوه بالخمور، أو بالشعور بالذنب، أو بأي شيء حفره الفراغ. الفراغ حالة غير طبيعية من الإحباط أو الذنب. أهذا ما أصبحت عليه ليلة الأربعاء، اختيارًا بين حالتين بغيضتين، بأي منهما ستحل لعنة السعادة؟ أحبّ القس هيكتور بلاي الشراب، وأطلقوا عليه اسم قس الرّم، لكنه لم يشرب الرّم قطُّ، يُفضِّل الويسكي ذا القشرة الحادة التي تُسبِّب مرارة تُعاقِبُكَ لأنك اعتقدتَ أنك صِرتَ رجلًا بما يكفي لشربه. لقد فكّر في

هذا. في غرفة من السكارى، كلهم يعبّون مشروبات كحولية لا يمكن لأحدهم الاستمتاع بها. أهو استمناء؟ إن مرارة الشعير هي مرارة الحياة نفسها. لكن المشروب أثار فيه إيمانًا أخرس. أملًا عنيدًا أنه في قاع تلك الزجاجة، في قاع حياته، عند آخر قطرة من جوهره الداخلي، سيجد نغمة نهائية للمتعة، لا توجد إلا وهو فاقد للعقل.

9:45

«أنا ذاهب للخارج».

كانت لا تزال على المائدة، تساءل عمّا إذا كان هذا هو المكان الذي تنام فيه. ربما تنتظر أن يأتي شبح زوجها لتناول العشاء.

ربما سيبقى بعيدًا هذه الليلة، وتجلس هي لتراقب الصراصير والفئران وهي تأتي على الطاولة، ثم تأتي على جسدها، فتظل جالسة تنتظر، بلا استجابة، ليس بسبب الإيمان، بل لأنه لا يوجد شيء آخر تفعله. يوجد مكان واحد للهروب من عرش دينونة الرب الأبيض، ربما ليس هروبًا طويلًا، لكن السقف المتعفن، وصندوق موسيقى سكا المبهجة، والألسنة الكسولة أخمدت رعد يهوه.

الشكر في الحانة متعة عامة وشخصية في آنٍ، من لا يشربون هم البائسون، الرصانة بالنسبة له هجوم قاسٍ على الضمير يخفي نفسه في رداء الوعي. إذا كان اليقظون مدركين لذلك، فكيف ينطقون بالحقيقة فقط وهم في حالة شكر؟ قارن الرومانسية التي يتمتع بها السكير بسخط الشخص الممتنع عن الشراب في أي يوم.

على باب الحانة رحّبَت به قرقعة الكؤوس وضباب الدخان

والأحاديث المرحة عن الخطيئة.

سأل بلاي: «هل السيدة هنا؟».

«لا يا بابا».

«أهي مريضة؟».

«لماذا تريد أن تعرف، هل ستشفيها؟».

نظر إلى فتاة صغيرة تقيس حجم لسانها بلسان امرأة أخرى. ثمة مصير معتاد للفتيات من أمثالها. تبدأ بابتسامة وتنتهي بثلّة من الأطفال القبيحين، وزوج يضربها بسبب وقاحتها.

«هل قلتِ إنها مريضة؟».

«لم أقُل لك شيئًا قطّ».

لم يكن يعرف الفتاة حتى، كبرت أمامه لتصبح امرأة أكبر ممّا كانت تحاول الأرملة جرينفيلد أن تكون. قالت الفتاة أخيرًا: «إنها تقيم في المنزل... وتقرأ كتابها المقدس».

«الكتاب المقدس؟».

«هل تحوّلت إلى صدى الآن بعد أن توقّفتَ عن أن تكون قسًّا؟ نعم، إنها تتحرق من أجل يسوع منذ أن ركل.. الرسول يورك، أعني، تعال اجلس هنا.. لقد قالت إنها تقرأ الكتاب المقدس بإمعان.. وتتكلم كثيرًا عن بيع الحانة، وقريبًا سيجد هؤلاء المساكين أنفسهم بلا عمل». نظرت إليه كأنه مسؤول. لم يقُل القس شيئًا، وقد أرادته أن يقول شيئًا، كانت جاهزة، لديها سيل متواصل من العبارات البذيئة الجاهزة

التي من شأنها أن تحرمه مكانه، لكنه لم يقُل شيئًا، فوقفت هناك باستجابة ميتة في حلقها، لا يمكن ابتلاعها.

«ماذا تريد؟».

«ويسكي وصودا... السيدة تنسى دائمًا المكان الذي تحتفظ فيه بالصودا».

«لكنها تحت المنضدة مباشرة».

«لا. ما قصدته أنها تنسى دائمًا المكان الذي تحتفظ فيه بالصودا».

«هل أنت أصمُّ؟ أقول إنها تحت...».

«إنها لعبة بيني وبينها، فقط هاتي الصودا!».

«تقصد الويسكي؟».

«نعم، الويسكي! الويسكي! الويسكي!».

«لا تزعجني لأن الرجل ذا الخصيتين الكبيرتين جعلك تبدو مثل العاهرة».

«اتركي الزجاجة».

يعترف قس الرّم أنه يشعر بالراحة أكثر في الحانة منه عند المذبح، إذ إنه كرئيس للكنيسة، لم يكن بإمكانه الهروب من ثقل الدينونة الجماعي. فرغت الكأس في يده، فشرب كأسًا أخرى رطبة، ذهبية، يخشخش فيها الثلج. ماذا بعد العار والحرية؟ كان على بُعد سبع رشفات من اللامبالاة، وخمس عشرة من عدم تذكُّر هويته، وعشرين من الثّبوُّل على نفسه. كانت سيدة الحانة ستقول: خُذ الأمر ببساطة

أيها القس. لكنها تستمتع برفقة أكثر إلهية من رفاقه، وبغيابها لم يكن هناك مَن يتحدث معه إلا نفسه. هو ثمل، وهذه عادة حالة من السلام التام، ولكن حدث خطأ ما. عادة، يمكن للويسكي محو الجملة في منتصف الطريق حتى قبل أن تنتهي، مثل الطباشير على السبورة، لم تختفِ الذاكرة تمامًا، تشوّشَت فقط، فلم يعُد بالإمكان فك شفرتها وصلتها بالموضوع. لكن هذه المرة جاءت الذاكرة في موجات من التاريخ الذي نسيه لسنوات عديدة. فجأة انهالت عليه محنٌ لا يتحملها، وتحولت عينه اليسرى إلى اللون الأسود، امتدّ الألم بطول عموده الفقري، فسقط من فوق كرسي الحانة.

حاول في نوبةٍ يائسةٍ أن يلتقط أنفاسه، لكنّ قوّةً غير مرئية ضربته في خصيتيه، فتدحرج مثل عجل، تعثّر القس وفقد توازنه وانهار على الأرض. انسكب الويسكي والعصارة الصفراء من بطنه، اصطكّت أسنانه بعنف، وعضّت لسانه، فامتلأ حلقه بالدم. ألقى بنفسه في النوبة، كما لو أن روحًا تحاول الفرار من جسده. غارت عيناه في جمجمته وسقط على الأرض.

صرخ رجل بجواره: «يا يسوع المسيح! إنه مصاب بنوبة! إنه مصاب بنوبة!».

وقال آخر «يا إلهي!».

وصاحت الساقية والرجل يناوله ملعقة: «ضعها في فمه بسرعة! لقد أراد أن يشرب زجاجة كاملة.. يقال إنه يشرب زجاجة چوني ووكر كاملة».

«ألا يزال مصابًا بالنوبة؟».

قال الرجل الأقرب إلى بلاي ممسكًا بالملعقة التي دفعها في فمه: «هل يسكنه الشيطان؟ لقد قرأت ذلك في الكتاب المقدس».

من آخر الحانة قالت الساقية: «سأنكح حمارًا إن كنت تقرأ الكتاب المقدس... لا شأن لي بكل ذلك أخرجوه من هنا!». «أنا؟ لا لن ألمسه... ألا ترى أنه لا يزال يعاني من نوبة؟ أتريده أن يركلني؟».

وقالت الفتاة: «مَن يخرجه سيحصل على مشروباته الثلاثة التالية مجانًا».

قال الرجل: «أنا أحب هذا البار».

«انظر، لقد توقّف عن الارتعاش الآن. إنه على ما يرام... على ما يرام... على ما يرام... انظر، لقد توقف عن الارتعاش... والآن أعطِني هذه الملعقة، وأخرِج هذه الخرية من حانتي... سيد سي، اسحبا هذا القس اللعين خارجًا».

«أيتها الفتاة الصغيرة، أنت تُصدرين الكثير من الأوامر لرجل لا يعمل لديك».

«لا، أنا أسأل مَن يريد ثلاثة كؤوس أخرى مجانًا».

«إلى أين أسحبه؟».

«إلى الخارج، إلى الطريق، مباشرة إلى الجحيم، لا يهمُّني، فقط أخرِجه من هنا... ما هذه الرائحة الكريهة؟ لا تقُل لي أن أقول إن الرجل تغوّط! أخرِجه! أخرِجه!».

تحت غطاء ظلام الفجر، ألقوا به عند باب الأرملة جرينفيلد، التي

كانت تنتظر. أمسكته من قدمه اليسرى وسحبته إلى داخل المنزل. على السرير جرّدته من ملابسه، بطريقة ستزعجه وهو مستيقظ. غلبها التحفظ والرزانة، فالرجال على أي حال أطفال، لكنهم أطول فقط. لم يشعر بما فعلته نهائيًا، إلا في اليوم التالي عندما استيقظ على سرير الرجل الميت. زارته في ظلام الغرفة ومضات وذكريات مثل لقطات ثابتة اقتُطِعَت من سياقها خلال استعادة الذاكرة المتناثرة؛ رأسه وهو يصطدم ببلاط أرضية الحمام، قميصه المخلوع بعنف، قدماه المرفوعتان في الهواء وهي تخلعه بنطلونه، سقوط دفقة عالية من الماء البارد فوقه، ومضة سريعة للأرملة وهي تفرك أنفها. وهو يتعثر، يلفُّ، رذاذ البانيو البنفسجي، اللاڤندر والصابون، قطعة القماش المبللة على وجهه وظهره ورجليه وبين ردفيه، أنثى ضبابية، وجه غير واضح. يد (أهي يده؟) تمتدُّ إلى ثدييها وتضغط بدهشة، مثل طفل، كفٌّ تضربه مثل البرق الأسود، ماء اللاڤندر. يشهق مختنقًا، ويرتدُّ ظهره إثر ضربات يدها وهي تجبر الماء على الخروج. ثم تسحبه من البانيو، وتجفِّفه بمناشف وردية تفوح منها رائحة الصابون.

البرية

استيقظ بلاي والشمس تلقي وهجًا أبيض. لم يغمر الضوء الغرفة من قبل. الجدران التي وشت بالمساء تشي الآن بالامتداد الشاسع لسماء الظهيرة، خفّة الطفو أو الوجود. كأن الخشب الميت للسرير ينبض بالحياة، كأن الكروم المنحوت أزهر أوراقًا حقيقية غير تلك المختبئة أعلى العمود. لكن الضوء لم يحمل حرارة أو دفئًا، حمل فقط شحوب الضوء الكهربائي، أو نور الجنة. لقد فعلها أخيرًا، لقد شرب حتى الموت.

لكل إنسان صورته الخاصة عن الجنة، التي لم يشكّلها ما قرأ أو سمع، بل شكّلها الخوف. لم تتشكل صورته عن الجنة نقوش القلاع والشوارع والعباءات والأسنان باللون الأبيض، بل بكابوس الجحيم الذي رسمه دانتي، وشهود يهوه. طارده هذا الكابوس منذ الطفولة حتى الرجولة، لم يتأثر بكبره أو معرفته. الجحيم عنده ليس مجرد بحيرة من النار والدم، بل مكان أُحرقت فيه الحياة الطيبة والنوايا الحسنة، وشلب إلى الأبد الهدف أو الوفاء. على الناحية الأخرى، تُرك الشعور بالذنب حزًا ليعذبه، وأشعره هذا بالراحة، وهو شعور يعلم تمام العلم أنه زائف: إذا كان هذا هو الجحيم، فإن اللعنة شيئًا قد عاشه بالفعل، هذا إذن شيء آخر.

يعرف أنها ستظهر، وقد فعلت؛ همست بصوت غريب ومألوف: «هيكتور، هذه هي الأشياء التي يجب أن تحدث». بدت بالضبط كما توقعها، طفلة، ملائكية، كأنها جنية الحكايات، أو ربما شرًا قديمًا. وجه غريب ومألوف، ببشرة بيضاء، وشعر بني فاتح منسال على

كتفين ضيقتين، وعينين بلا حدقتين. لم تقُل شيئًا، ولم يقُل شيئًا، كلاهما يعرف، هذه هي الأشياء التي يجب أن تحدث.

هفهف شعرها رغم عدم وجود رياح، ومن خلال عينيها رأى وجهًا ثانيًا ومليون وجه آخر، وفي رفّة عين واحدة استحضرت كل الرجال ولا أحد. ضحكت الفتاة، سيدة خبيرة وطفل إلهي. توجّهَت نحوه وهي تضم شفتيها كأنها ستُقبّله، لكن من هاتين الشفتين انفجر إعصار، وتطاير الغبار في خِضَمّ وابل من الصرخات واسودّ عالمه.

استيقظ مقطوع الأنفاس. في أثناء نومه على ظهره اختنق بلاي بالبلغم، فلكم نفسه في صدره، وسعل طويلًا، ثم اقترب إلى جانب السرير ليبصق، ولكن فاجأه ما هو أكثر من البصق؛ وتناثر القيء على الأرض، ارتفع صدره مع كل تشنُّج مؤلم، وبقيت ساقاه على السرير بينما تدلّى بقية جسده إلى الأرض. للقيء رائحة كريهة وحلاوة جعلته يريد أن يتقيأ أكثر، حاول صدره مرة أخرى، لكن لم يخرج شيء.

«رائع، هذا رائع!».

حضرت الأرملة إلى الغرفة لترى ساقيه فقط على السرير، فأمسكته من كاحليه وشدّته.

«إلى أين تتجه؟ إلى تمبكتو؟»، وعندما شمّت رائحة القيء عبست وغطت أنفها.

«الحمام.. أوه... الحمام! ألم تعلّمكَ أمك قطّ كيف تستخدم حوض الحمام؟».

«أنا آسف... أنا آسف».

«أوف! الجميع يقول آسف، لكن ليس على الجميع تنظيف فوضى الآخرين. أسيأتي ربك قريبًا لتنظيف ذلك؟ لأنه إذا جاء الآن فسأعطيه ممسحة، اللعنة! انظر إلى هذا القرف!».

«أنا آسف».

«أنا آسفة أيضًا... آسفة أني آويث سكّيرًا في منزلي مرة أخرى ليتقيأ فيه... ربما ينبغي عليّ أن أشكر وأحمد لأن هذه الأشياء لم تخرج من ثقب آخر... سأجلب دلوًا، حاول ألّا تتقيأ حتى أعود».

مسح بلاي فمه، ووجهه غارق في العرق.

«هيكتور، هذه هي الأشياء التي يجب أن تحدث لك».

قفز هيكتور، بدا الصوت كأنه لفتاة صغيرة ولرجل في نفس الوقت. أهو صوت الرب؟ عرف الصوت لكنه نسي الوجه. عادت الأرملة ومعها دلو وممسحة. نظفت الأرضية في صمت بينما هو راقد في السرير ينظر إلى السقف ويشعر بثقل ذنوبه وأعماله.

هذه هي الأشياء التي يجب أن تحدث لك.

مساءً..

قالت الأرملة ثم غادَرَت: «الحمام هناك مباشرة إذا كنت لا تتذكر». ثم صاحت من خارج الغرفة «هل أنت جائع؟»، فأجاب بصوت خافت «لا». كان يتنفس بصعوبة ويتعرق بشكل رهيب. أثار البلل انزعاجه في البداية، لكن ذلك اختفى عندما انجرف إلى الغياب مرة أخرى.

أصبح السرير موجات تدفعه ذهابًا وإيابًا. مدَّ يده ليمسك بقاعدة السرير لكن يده ارتجفت بشدة لدرجة أنه أخطأ السرير.

«أسألك إن كنت جائعًا؟ أيها القس؟ أيها القس؟ يا للقرف!».

سقط من على السرير مرة أخرى، فظنت أنه فقد وعيه، لكن عندما أمسكت بقميصه لتسحبه، أمسك بيدها، واهتزَّ رأسه للأمام والخلف وهو يحاول أن يحدق بها. ويقول: «دعيني وشأني».

«أنت مريض، ما سأفعله هو..».

«اتركيني وحدي! أنت لا تستطيعين مساعدتي، اتركيني وحدي».

فقالت بأكبر قدر استطاعت تزييفه من اللا مبالاة، ثم أطلقت سراحه: «تولَّ أمر نفسك». ثم أغلقت الباب وألقت الغرفة في ظلام دامس.

قال: «يا يسوع!». فقد القس أثر الليل والنهار، لم يرَ سوى الظلام والحرارة. وفي غرفة الرجل الميت، لم يسمع سوى صيحات الأرملة، التي بدت كأنها أصداء مزيفة من برية أخرى. لم يمرض من قبل، وعادة ما يخبره عمق غثيانه عن المدة التي مرت منذ آخر مشروب له. لكن هذا مختلف، لم يستطع هيكتور التمييز بين الماضي والحاضر، أو الحلم من الواقع. سمع أخاه يبكي في الجنة ويقول: *لماذا خنتني؟*

نهض بلاي من السرير، واتجه نحو نافذة الغرفة الوحيدة. في الخارج، كانت السماء مظلمة بلون الغسق، لكنه لم يثق بما رآه.

ارتجفت يداه في الحلم والحقيقة، فتوقف عن محاولة معرفة

أيهما يحدث الآن. سال البلل على وجهه وإبطيه وظهره وأسفل ساقيه. ابتعد خطوة واحدة عن النافذة وكاد ينزلق في بركة مياهه. لم يتذكر متى تبول على نفسه.

في البداية اعتقد أن الشياطين هاجمته وهو نائم، لكنه بعد ذلك أدرك أنه لم ينم على الإطلاق. هذه أحلام يقظة، عذاب الشيطان. هو مستعدٌ لفِعل أي شيء كي يتناول مشروبًا، لكنه سمع صوته داخل جسده يقول لا. أهكذا يبدو صوت الرب الآن؟ أهذه سلطته؟ لكنها سلطة لم يسمع بها من قبل. ربما الرسول نعمة ولعنة، وربما استحق بلاي كلاهما. جثا على ركبتيه لكن لم يستطع الصلاة. ومن النافذة شاهد القمر يسخر منه.

ركع لما بدا وكأنه ساعة، لم يستطع التأكد من ذلك حقًا، فقد بدأ الوقت في الخارج كأنه آخر الغسق، أو وقت مبكر من الليل.

نظر إلى الألواح الخشبية في السقف فوجد شيئًا ما مثل سوط صغير أو ذيل.

نظر مرة أخرى ورأى ظلال اندفاعهم صعودًا وهبوطًا، يسارًا ويمينًا، الجرذان.

قفزت الجرذان من السقف إلى الأرض، وقفز هيكتور فوقها، وداس على أحدها ساحقًا صريره. قفز على السرير وجذب ركبتيه حتى صدره، فشعر ببرودة سرواله المبتل. انتشرت الجرذان وفي غمضة

عين غطت السرير.

«يا يسوع المسيح! ما الرسالة التي تصرخون بها؟».

هرعت الأرملة إلى الغرفة مرة أخرى، متوقعة رائحة التقيؤ الطازج. كان يرى الجرذان بوضوح، فلم يستطع رؤية وجه الأرملة، لكن حدّة لسانها وصلته.

«في كل مكان حولي... في كل مكان حولي».

«ماذا؟ ماذا تقول؟».

«إنهم حولي! في كل مكان حولي».

«مَن هو؟ الشيطان؟ أين؟ تشفع بقوة الدم؛ ألست قسًا».

قفز، فقفزت هي الأخرى؛ كان خوفها حقيقيًا مثله، وعندما حاولت شقّ طريقها إليه، سحب هيكتور نفسه إلى السرير، ضاربًا الجرذان بعيدًا عن قدميه، محدقًا في السرير؛ لذلك نظَرَت أيضًا إلى حركاته المهتاجة في الملاءة البيضاء ورطوبة العرق، فلم تر شيئًا، ثم رأت وجهه.

«يا يسوع!».

«في كل مكان حولي! في كل مكان...».

لم تستطع التفكير في أي شيء آخر. هربت الأرملة من الغرفة عندما بدأ بالصراخ خوفًا من الجرذان. ركلهم القس بعيدًا عن أصابع قدميه فكانوا ينسحبون مثل موجة؛ فقط ليتدحرجوا عائدين مجددًا. عادت الأرملة بزجاجة، وصعدت على السرير، وأمسكته من

كتفه.

«أيها القس، تماسَك... اللعنة!».

«الجرذان، الجرذان، الجرذان، الجرذان، الجرذان، الجرذان، الجرذان، الجرذان».

«أيها القس هذه قوة الوهم... لقد ذهبت جميعها، اشرب هذا وعالِج نفسك». ثم دفعت الكأس بين شفتيه قبل أن يقول لا.

بصق بلاي الرّم وسعل، ثم صرخ: «هل تحاولين قتلي؟».

«أنا أحاول أن أنقذك، أيها الناكر للجميل.. هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذك».

«هذا ما...»، كان بالكاد يستطيع أن يلتقط أنفاسه «هذا ما يقتلني».

«ربما هو الشيء الوحيد الذي ينقذك... لقد عرفت رجلًا مثلك، كما تعلم.. بعد فترة تتوقّف عن تنفُّس الهواء الذي لا يحتوي على رائحة الخمر.. بعد فترة يصير هذا كل ما يمكنك فعله، حتى لو كان...».

«يقتلني.. تريدين أن تقتليني مثلما قتلتِ زوجك؟».

همست: «ماذا؟» ثم سألت مرة أخرى «ماذا؟»، وهي تعلم أنها لا تتحمّل قول ذلك مرتين.

«لا شيء.. لا شيء... لم أقُل شيئًا، اذهبي أرجوك... اتركيني وحدي».

سحب بلاي البطانية حتى رقبته وتحدث دون النظر إليها: «سيدة جرينفيلد، ألديكِ مفتاح لهذا الباب؟».

«ما تظن؟».

«أغلقِي الباب لو سمحتِ... أغلقي الباب».

«يجب أن تتمالك نفسك كي لا تتبول، والآن تريد...».

«لو سمحتِ.. أتوسل إليك، أغلقي الباب، ولا تفتحيه مهما سمعتِ.. لو سمحتِ. أتوسل إليك. لو سمحتِ».

«تماسَك، أنت غاضب جدًا.. لكن لا تتبزّز على مُلاءتي». ثم أغلقت الباب، تاركة بلاي يشعر بثقل الظلام.

لم يمضِ وقت طويل بعد أن سمع صوت تكّة المفتاح، حتى انتصب قضيبه بقوة. على الجهة الأخرى من السرير، زوجة أخيه ووجهها مخفيٌ في الشّعر الأسود الوحشي. هي مجرد شبح الآن، والبخار يتصاعد من جلدها. زوجة أخيه عارية وبيضاء. باعدت ما بين ساقيه وفتحت سحّابه، فأغلق هيكتور عينيه وشعر بالحرارة بين ساقيه، لكن عندما فتحهما رآها بلا وجه، فقط جمجمة وبضعة أسنان. صرخ بلاي فاختفت الزوجة.

فظل يصرخ: «يا يسوع! يا يسوع! يا يسوع»!

أطاعت الأرملة طلب القس لمدة يوم ونصف اليوم. حاوَلَت ألّا تهتم، حاولت حتى ألّا تمر بالقرب من بابه، لكن قلبها خانها.

مجرد قلق، قالت لنفسها: بعد كل شيء، لم تُقَدّ من حجر. مجرد قلق لا يختلف عمّا تشعر به نحو الضعفاء أو المسنين أو الجرحى أو البؤساء. مجرد قلق.

في مساء اليوم الثاني، سمحت لنفسها بدخول الغرفة، فهاجمتها رائحة البول الكريهة. السرير فارغ، وهو تحت النافذة نائم يشخر.

«أيها القس».

«أيها القس... أيها القس».

«هيكتورا».

استيقظ بلاي، استند إلى مرفقيه حتى جلس على الأرض وظهره إلى النافذة. راقبته الأرملة، يعلم أن لديها ما تقوله. «أعرف ما حدث لك». وأغمضت عينيها لعدة ثوانٍ قبل أن تفتحهما وتنظر إليه مباشرة: «لقد غادَرَكَ الرب».

الإحياء

الجزء الثاني

كانت النساء، المتراوحات بين زوجات وعوانس، ومُسِنّات وشابّات، ويافعات ومنقطعات الطمث، يملأن المقعد الأمامي. كأنهن يعاقبن بالطريقة التي يتعزّقن بها حتى مع وجود ثلاث مراوح في السقف. هكذا يقفز إلى المنصة: نقرتان صغيرتان يتبعهما دوي، ثم يقول «اهدؤوا! اهدؤوا! اهدؤوا!». ربما دم الغجري في خلاياه هو ما يجعل شعره يبدو مبتلًّا دائمًا، وجامحًا للغاية.

لقد وقعن تمامًا في فخّ رقصته. كلما نطق الرسول بكلمة، كلمة حلوة، لاحقه انفجار الأرغن والجوقة: آمين.

يقفز وينشر ذراعيه على نطاق واسع، ويصيح، هللويا! والعَرَق يتطاير من أصابعه، ويقبّل النساء في الصف الأمامي فيشعرن بالبركة حقًّا. لكن الرسول أغوى الرجال أيضًا.

يوم الأحد الثالث، في منتصف الطريق إلى التسبيح والعبادة، صُدِمَت الكنيسة بالصمت. أربعة عشر قدمًا غير مألوفة في الطوابق المقدّسة، دخلت بهدوء إلى الكنيسة. لوّح الرسول بيده فاستأنف عازف الأرغن العزف بسرعة، وعادت الجوقة مرة أخرى إلى الترنيم.

جاء الأولاد الوقحون عبر طريق بريللو، إلى الكنيسة، يتقدمهم قائدهم في ارتباك، يرتدي قميصه الأصفر وسرواله الأخضر المموّه. أزال قبعته فظهرت خيوطها الصوفية مثل الزهور. اختفت جوارب بوبي الحمراء داخل حذائه. كان الرسول ينتظر، مدّ يده وأشار إلى

الجانب الأيسر الفارغ من الصف الثاني.

في ذلك الأحد، تحدث الرسول يورك عن أساس الدعوة: «*وحدث أنه عندما اقترب من أريحا، جلس رجل أعمى على الطريق متسولًا، ولما سمع حشدًا يمر، سأل ما هذا؟ فأخبروه أن الناصري يمر. فصرخ قائلًا (يا يسوع ابن داود ارحمني.. فوقف ابن الإنسان وأمر أن يقدم إليه، فتقدم وسأله: ماذا تريد أن أفعل بك؟ فقال يا رب لأبصر.. فقال له ابن آدم أبصر إيمانك قد خلصك) وللوقت أبصره وتبعه وهو يمجد الرب، وحمد الرب جميع الشعب إذ رأوه*».

رأت لوسيندا أكثر من اللازم قبل خمس وأربعين دقيقة، اتّسعَت عيناها حتى أحرَقَتاها بالدموع. منذ ذلك اليوم، لم تعد ترى أي شيء بالطريقة نفسها، لكنها لا تلقي باللوم على الخطبة.

«يا إلهي.. هللويا! عندما يغفر لك الرب إله السماء والأرض العظيم.. سأقرأ فقط شيئًا من متّى، الإصحاح الرابع، الآية من ثماني عشرة إلى خمس وعشرين».

قبل الساعة بخمس عشرة دقيقة، رتبت لوسيندا كتب التراتيل على مقاعد الكنيسة. لهدفٍ ماكر في نفسها لم تتعطّر قطُّ، لكن نضارتها الجديدة ونشاطها جلَبَا الحرارة والعَرَق؛ ما جعلها ترشُّ صدرها ببودرة التَلْك ماركة كوسونز، حتى بدا صدرها مثل ريش الطيور. استحمّت بمنظف الأرضيات برائحة اللافندر، سكبته في ماء الحمام، متجاهلة الحرق الذي حدث في فتحتيها. شيء تافه ينبغي فعله، لكن لوسيندا وقعت في حب التفاهة، وها هي تلعب الآن بالأشياء التافهة. كانت تخبره أن كتب التراتيل مرتبة بعناية،

لتتيقّن فقط من علمه أنها مسؤولة. أرادت رضاه، حتى لو تُرجم ذلك فقط في الارتفاع الطفيف لحاجبه الأيسر والتواء شفتيه بابتسامة مؤقتة. لقد فوجئت بمدى رغبتها في أن تكون مرغوبة. ضاقت حياة لوسيندا واختصرت بشكل كبير إلى درجة أنها لم تكن تريد شيئًا من رجل سوى هذه المسافة. «أيها الرسول، وضعت التراتيل على المقاعد، هل تريدني أن أضع الكتاب المقدس...».

انزلقت المفاتيح من بين أصابعها وسقطت على الأرض. فتحت الباب قليلًا، وفي داخل المكتب، على الأرض، كتب حمراء وسوداء، مفتوحة وغير مفتوحة مبعثرة في كل مكان. وقف الرسول بثبات، يكاد يواجهها ويداه على وركيه، عاريًا تمامًا ينظر خلفه إلى المرآة الكاملة.

دوّت شهقتها القصيرة مثل الرعد. التفت، فرأى ارتباكها وهي تغلق الباب وتولّي هاربة.

للمرة الأولى، جلست لوسيندا في آخر الكنيسة، محدّقةً في الأرض بينما الخطبة تُتلَى أمامها في أجواء ضبابية.

... ومن هناك رأى شقيقين آخرين، يعقوب ابن زبدي وأخاه يوحنا. فدعاهما، وعلى الفور تركا قارب والدهما وتبعاه.

«أيها الأحبّاء، الرب يفتح عيونكم.. كم منكم يعلم أننا جميعًا عميان؟ وإذا لم نكن عُميانًا، يمكن لبعضنا فقط أن ينظر خلفه.. لكن عندما يفتح الرب عيونكم، فهو يدعوكم لاتباعه! استمعوا إليّ.. الآن هو الوقت المناسب لتتبعوه! في أي وقت يكشف لك الرب شيئًا، يريدك أن تكون مثل أليشع.. بِع كل شيء! تخلّص من كل شيء! انضمّ

إليه الآن.. لا تضيّع المزيد من الوقت في سرير تلك المرأة الذي لا يجب أن تنام فيه.. أو في إنفاق المال الذي سرقته.. أو قراءة تلك الرسالة التي لا يجب أن تفتحها.. أو الخوض في عرض سيدة لا ينبغي أن تتحرّش بشأنها.. أو شرب الخمور التي لا ينبغي أن تشربها.. أوه، ألديّ شاهد هنا هذا الصباح؟ ألن تدعيني أبدأ الكرازة أيتها الكنيسة! اهدؤوا! اهدؤوا! الرب يبحث عن أتباع.. أتذكرون قصة الرجل الثري في إصحاح مرقس العاشر؟ أو الحادي عشر، لا تبحثوا عنها.. أتعلمون لماذا ليس لدينا ثلاثة عشر حواريًّا؟ ليس لأن آدم وحواء يخطئان يوم الجمعة الثالث عشر.. أتعلمون لماذا ليس لدينا ثلاثة عشر حواريًّا؟ لأن الأخير لم يستطع رمي كل شيء واتباع ابن الإنسان.. والآن هو مُدان، لا يزال يحترق في غرف النار، ضعوا في اعتباركم أن كل ملايين الدولارات التي يملكها لا يستطيع شراء مكعب ثلج واحد في الجحيم.. أهذا هو المكان الذي تتجهون إليه؟ إنه يناديكم.. توجد أشياء عليكم حرقها.. هدمها.. استسلِموا.. اتركوا كل شيء خلفكم.. إن فعلتم ذلك، قابلوني عند المذبح الآن، مجّدوا الرب!».

كان المذبح ممتلئًا، وصرخ رجل «يسوع» ثم انهار على الأرض! خطا الرسول فوقه للوصول إلى الآخرين. ظلت لوسيندا في الخلف، تحاول أن تبعد الأفكار عن عقلها بلا جدوى. شبح مقدس. شبح مقدس. شبح مقدس. شبح مقدس. بلا غلفة. شبح مقدس. شبح مقدس. شبح مقدس.

«لوسيندا»..

أيقظها صوته من أفكارها، فأدركت أن الكنيسة فارغة، إلا من الرجل الذي لا يزال مُلقًى على الأرض ولم تره. التفتت مصدومة ومحرجة من أن الوقت قد مضى وتركها معه. كان بإمكانها أن تخرج مع مَن غادروا في أثناء خطبة المذبح، مع أن الكثيرين لم يعودوا يغادرون هذه الأيام، وبدلًا من ذلك ظلّت وحدها معه، يجلس على مقعد، ظهره لها، وشعره الجامح يتلألأ مثل ألف عين صغيرة.

«لوسيندا، أعتقد أننا بحاجة إلى توضيح مسألة معينة.. ما تعتقدين أنك رأيته».

«نعم، نعم... أعني، أيها الرسول...» ثم أطرقت. فقال للمرة الثانية محبطًا من ارتباكها: «لوسيندا؟ لوسيندا، القساوسة يغيرون ملابسهم في المكتب طول الوقت.. أعلم كيف يبدو الأمر، لكن كل شيء بريء، صدّقيني.. قد تجدينه خُمقًا، أو حتى شيئًا مضحكًا... لكنني كنت أغير ملابسي في مكتبي، تمامًا كما خلقني الرب.. أنت تعرفين أن الرب لا يحترم الأشخاص.. أعني، ماذا أقول، كم مرة أرسل لك الروح القدس وحيًا وأنت على المرحاض؟ لا بأس في ذلك، الرب هو الرب.. على أي حال، كنت على وشك أن أرتدي ملابسي، عندما مممم.. منحني الرب كلمة قوية حتى كدت أن أبلّل نفسي.. حسنًا، كان عليّ أن أركع وأقول هللويا عشر مرات على الفور! كما قلت في قداس اليوم، عندما يفتح الرب عينيك، يريدك أن تفعل ذلك الآن! هل تسمعينني يا لوسيندا؟ لا يمكنك أبدًا أن تجعلي الرب ينتظر».

«نعم أيها الرسول».

«لذلك جَثَوتُ على ركبتي شكرًا للرب، وعندما وقفت على قدمي،

رأيتني.. هذا ما حدث». ثم استدار وواجهها: «أنا آسف جدًا».

«نعم صحيح...».

«هل تسامحينني؟».

«أيها الرسول؟».

«السماح؛ إنها عادة قديمة، تحدث هذه عادة بعد أن يقول شخص ما إنه آسف».

«نعم صحيح».

«لا يبدو أنك سامحتِني».

«أيها الرسول؟».

«أريد نظرة متسامحة وابتسامة... ما الذي يتطلّبه الحصول على ابتسامة منك؟ أنتِ حسّاسة؟ ربما ينبغي أن أدعو أحد ملائكة الرب ليدغدغك؟».

ضحكت لوسيندا ضحكة فتاة صغيرة.

«آها! انظري إلى ذلك.. لا شيء يضاهي ابتسامة تستيقظ على وجه جميل.. هذا يعني أننا لا نزال صديقين.. هذا جيد.. أعِذكِ يا لوسيندا بأنني من الآن فصاعدًا سأغير ملابسي في الحمام».

قبل أن تبلغ الثالثة عشرة من عمرها، ضربتها أمها مرتين. ومنحتها اسمين: لوسيندا النهارية، ولوسيندا الليلية. كانت والدتها نفسها راهبةً ترتاد الكنيسة في بعض الأيام، تُلقي العِظات على البعض، وتلاعب البعض الآخر حين تسوء ظروفها. ولتنجو بحياتها، أو على

الأقل لتلافي الجلْد؛ انقسمت لوسيندا إلى قسمين إرضاءً لأمها: لوسيندا النهارية، التي تظهر عندما تشعر والدتها بالتقوى، وتتحدث عن مدرسة الأحد وعن أصدقاء ليس لهم وجود؛ ولوسيندا الليلية التي تساعد أمها في العثور على نبتة كاللالو التي لا تؤكل، بل تستخدم في صنع الشاي لطائفة بنج السرية. وعندما تضربها والدتها بوحشية، وهو ما كان يحدث كثيرًا، كانت لوسيندا النهارية تخفي كدماتها تحت ثوب محتشم من قماش الكاليكو، وقلب قوي. وعندما تضل والدتها طريقها، وهو ما كان يحدث غالبًا ليلًا، تسرق لوسيندا، تسرق أسنان قطتها، وجلود السحالي، والخرز، والحبال المعقودة، وتتحدث إلى ساسا سرًا. بشخصيّتَيها المزدوجتين كبرت لوسيندا بسرعة، مستخدمة كلتيهما للاستقواء على الأخريات، حتى جاء الرسول.

النهار للانضباط، والليل للفوضى. النهار للقفازات والتنانير البيضاء تحت الركبة، والليل لدم الماعز على الجلد الأسود. النهار للشفتين المزموتين وآية الكتاب المقدس، والليل للعربدة بموزة خضراء لشبح أسطوري. ثم جاء الرسول ورأت يسوع في وجهه، وحية تحت حزامه، هناك، فيما بين ساقيه الذي انتفخ عندما جلس بساقين مفرودتين مثلما يفعل دائمًا، ليشير إلى مفتاح التحويل على الآلة الكاتبة. تصادمت شخصيتاها عند تقاطع صليبه، وعشّشَتا في جلده المشعر، مشيرتين إلى الطرف الأحمر الجريء لقضيبه، وساعتها لم يعد بإمكانها التمييز بين النهار والليل.

لذا جلَدَت لوسيندا نفسها حتى نامت. اليسوعيون يفعلون هذا في كينجستون، سمعت ذلك من راهبة، وتخيّلَت سبعة كهنة على التوالي

يجلدون ظهورهم الملطّخة بالدماء وهم يحدّقون في قضبانهم الصلبة. يجلدون أنفسهم حتى يتدفق الدم مثل أخدود، وينكمش انتصابهم خزيًا.

لم تستحق أقل من أن يقال عنها عاهرة التفكير. تعرف لوسيندا الرسول تمامًا مثلما عرف حام والده نوحًا في الكتاب المقدس. أصبحت كلاهما في نفس الوقت. نوح مخمور، يترنح عاريًا في خيمته، يتناول الطعام والشراب ويتمدد على الوسائد، ينتشر كي تراه الطبيعة. تستطيع أن ترى جسدًا صلّبته الطاعة، لا يسمح للشيخوخة أن تقترب، يتبول ويضرط بهذه الروعة التي يتمتع بها الرجال عندما يفقدون الاهتمام. رمشت لوسيندا عينيها فتحولت إلى حام، ابنه الأسود، الذي انزلق في الخيمة وأصابته الروعة بالعمى أيضًا. أصبحت أبًا وابنًا في نفس الوقت، وهي ترتجف من العمى في حالة شكر من متعة الأب المفاجئة، ترتجف من الخوف والخطيئة عندما أخذ الابن والده في فمه. هاجمتها الشهوة عندما تحطم على غير رغبة الجدار الذي شيّدَته بين ذاتيها. الدم اللعين. ذلك الوقت اللعين من الشهر الذي يشهد البلل والألم والانتفاخ؛ أثار ذلك جنونًا عميقًا داخل المنطقة الوردية من جسدها، وجعلها في خيالاتها تتألق بلهيبه الخاص مرتين، أحمر مثل كتبه. يفعل اليسوعيون هذا. وقد أرادت أن تكون صالحة؛ لا مزيد من لوسيندا الليلية، تجلد الظلام باسم يسوع.

في الخزانة وجدت الثعبان الأسود، الحزام المخصّص لعقاب أطفال مدارس الأحد العاصين. خلعت بلوزتها، وحدقت في ضعفها في المرآة، في ثدييها، فرأت أحدهما متدليًا قليلًا عن الآخر. رأت

جناحيه، وشيطان خطيئتها ينتظر أن يفتح ساقيها.

النار الآكلة. توسّلَت بدم يسوع وأنزلت الحمّالة عن كتفها اليسرى. مزّق الجَلْدُ بشرتها الناعمة مثل سوط السيد. ارتجفت وانهمرت دموعها، ونظرت إلى نفسها مرة أخرى. الآن بالعزيمة ستتغلّب على لوسيندا التي لم تستطع خدمة الرسول بنقاء، فأنزلت الحمّالة على كتفها اليمنى، ثم يسارًا، فيمينًا، ثم يسارًا، فيمينًا مرة أخرى. مرارًا وتكرارًا حتى صار كل جلدها مشرّحًا غارقًا باللحم والدم. ترنّمَت المرآة بترنيمة العار حتى لم يبق بينها وبينها سوى النور.

***

حين ذهبت لوسيندا إلى الكنيسة ارتدت قميصين، وأقمشة ممزقة ملفوفة ومتقاطعة على ظهرها. ليس من الممكن التساؤل، أو التشكيك، بشأن أنها عيّنَت نفسها سكرتيرة، واجبها الأول التخلص من كميات الكعك التي تحضرها يوميًا أرامل، وعوانس، وفتيات بلغن سنّ الرشد. من الجيد ألّا يتزوج الرجل؛ هذا ما قاله الكتاب المقدس، هذا أفضل للرسول بالفعل؛ فليس محتاجًا إلى زوجة تلهيه؛ كل ما يحتاجه من المرأة موجود لديه بالفعل، ارتجفت متلهفة وخائفة من نهاية تفكيرها. المكتب بحاجة إلى التنظيف؛ فبدأت بوضع كتبه الحمراء على الرف.

«لوسيندا؟ آآآآه! هل وصلت إلى هنا قبلي؟ بدأتِ تدهشينني، ربما كنت تطمعين في وظيفتي.. لم أفاجئك، أليس كذلك؟».

«لا، لا، أيها القس، أعني، أيها الرسول».

اتجه نحو مكتبه.

«أنا أجرُّ رجلك يا لوسيندا.. لكن لا يزال علينا أن نفعل شيئًا حيال انزلاقك المستمر هذا».

«انزلاقي؟ هل يظهر؟ اعذرني؟».

«لا أقصد أبدًا أن آثَمَ بهذا الفستان القصير... إنها زلّة لسان، أيتها الطفلة».

«أوه! لقد عرفت ذلك، أيها القس، أعني، أيها الرسول».

«انظري، لقد أمسكت بك مرة أخرى.. ها أنت ذي تناديننني بالقس.. هل تفتقدين القس بلاي؟».

«لا يا سيدي! أفتقده مثلما أفتقد سبعة أوبئة في لباسي... يا إلهي.. عفوًا أيها الرسول».

لوّح لها، فأكملت: «إنه رجسٌ عند الرب»...

«لا يزال ابنًا للرب، والرب يحبه بقدر ما يحبك... أسَمَحَ لك الرب بانتقاده؟».

قالت: «يسوع». وضع يده على فمها بسرعة، فشمّت الصابون على أصابعه، وشعرت بأنه مألوف. وعندما تركها أحسّت بأنها تتذوق الملح على شفتيها.

«أنت... أنا... نحن... أنتم...».

«لم تكن لحظة مضيئة يا لوسيندا أن أطرد رجل الرب من الكنيسة.. إنها كأس صلّيث كي أتمكن من تجرُّعها.. انظري إليّ، حتى

رجل الرب الضال لا يزال رجل الرب.. لا يزال أخي يا لوسيندا... إذا كنا جميعًا كاملين إلى هذا الحد، فلماذا نحتاج إلى ابن الرب؟ ربما يحتاج بلاي إليه الآن أكثر من أي وقت مضى.. وبدلًا من طرده يجب أن نحييه بقبلة مقدسة.. أعني، ألا يقول أهل كورنثوس الثانية أنه بعد أن نطرد الأخ المارق، ينبغي أن نرحب به مرة أخرى وإلا خاطرنا بأن يرحب الشيطان به؟».

«أنا لا، أنا لا أفهم».

«ششش.. لا تحاولي التفكير في الأمر كثيرًا.. لقد سامحني الرب، وبصفتي خادمه الأمين، فقد سامحت القس بلاي، أتعلمين أين هو؟».

«نعم أيها الرسول».

«أرسِلي له رسالةً مني؛ أبلغيه أن الرسول يورك يخبره بأنه يستطيع العودة».

الشُّقاق

بحلول الساعة الخامسة، ظلّلت الغيوم الكهرمانية الكثيفة الأشجارَ باللون البرتقالي، لكن الصدمة حلّت قبل الظلام، وأعطت الرطوبة يومًا في منتصف الأسبوع طابع الأحد. مطر المساء جعل اليوم ينسى نفسه، لكن لم ينسَ الهدف منه. فعل المطر الشيء نفسه للناس، أخافهم من الستر أو الفضيحة، لكنه لم يسمح لهم بنسيان هدفهم. كان هذا المطر الغزير يضرب ظهرها. ومع ذلك لا يمكن لهذه المهمة أن تنتظر حتى الغد، لا شيء قاله يمكنه الانتظار، على لوسيندا أن تخبر الأرملة جرينفيلد أنه يسمح للقسّ بالعودة إلى الكنيسة، لكن للعبادة فقط. يجب إخبارها الليلة؛ فالتأخير مرض، والعلاج الوحيد للتسويف هو الغرض؛ لذلك غطّت رأسها بالصحيفة، وركضت حتى نهاية طريق بريللو.

عندما وصلت إلى مفترق الطرق، رأت لوسيندا منزل الأرملة، ونافذته الأمامية الوحيدة تومض بضوء خافت. لكن بينما تخطو وتتعثر على الطريق، انفجرت المئات، بل الألوف من الأجنحة السوداء، مائة أو ألف انفجرت في رفرفة مدوية. فشعرت كأنها عمياء في الظلام. عندما رفرفت الأجنحة، اهتز الهواء. الغربان بحجم الشياطين، أو شياطين بحجم الإنسان، تصرخ وتدور مع الريح. صرخت لوسيندا وسمعت صوتها يتلاشى في الدوامة، سوف يبتلعها الظلام الدائر. أغمضت عينيها بإحكام وأخذت ترنّم، ثم فتحتهما ببطء لترى أنهم ذهبوا، وأن المطر ضعف حتى أصبح رذاذًا، فركضت نحو المنزل.

«سيدة جرينفيلد؟ سيدة جرينفيلد؟» سمعت رفرفة، ودوّى صوت آخر طرقاتها في الفضاء، قبل أن تفتح الأرملة الباب.

«سيدة جرينفيلد».

«آوه، يا إلهي.. ماذا تفعلين هنا؟».

«سيدة جرينفيلد، أنا...».

«ستبقين هكذا في الخارج عرضة للبلل أم ستدخلين؟».

«لم أخطط لذلك مطلقًا، لكن...».

«معلما تحبين!».

«سيدة جرينفيلد...».

قاطعتها الأرملة بتلك النبرة التي ألفها قش الزّم :»دعيني أسألك شيئًا، هل ترين السيد جرينفيلد هنا؟».

«حسنًا... آه... لا!».

«إذن لماذا تُصرّين على مخاطبتي بالسيدة جرينفيلد؟ أنسيتِ أنك تعرفينني منذ وقت طويل؟ قبل أن تصبحي بهذه المكانة ويحبك الرب».

«الرب يحب كل شخص صالح».

«نعم، لكن الجميع يعرف أنه يحبك حبًا خاصًا».

«على أي حال، لم آتِ إلى هنا أبدًا للتحدث عني».

«ها، لماذا أتيتِ إذن؟ لندخل في لبّ الموضوع، فلا أعرف ما قد

تريده امرأة من أرملة».

«لم أكن السبب في موته كما تعملين».

وقفت الأرملة على بابها لمدة دقيقة تقريبًا، متصلّبةً بلا انفعالات. وأطرقت لوسيندا وهي تستمع لرفرفة مفاجئة. ارتجفت يدا الأرملة، وشعرت بهجوم ذكريات منفية منذ سنوات، لوجه زوجها المسحوق المخبأ في تابوت مغلق. عاودتها الذكريات بسبب هذه القحبة، عدوّتها منذ المراهقة التي منحت الأرملة صدرًا وأردافًا أكبر، ما جعلها تكرهها كثيرًا، وقد تَجدّد هذا اليوم.

«على الأقل ليس عليه أن يختبئ منك بعد الآن.. أي شجرة تتسلّقين منذ الصباح، أيتها الملكة لوسيندا؟».

في قرية سحرة أوبيه يوجد العديد من أنواع الشاي، يعتقد الناس أن التاريخ السري للسحر هو الزيوت، لكن هذا ليس سرًا، فالزيوت لمن يدفع، لكن الشاي لمن يؤمن. يوجد شراب لعلاج المعدة، وأوراق قشطة شائكة للأعصاب، وسنفرة للصحة والقوة، لكن يوجد شاي آخر يحمل اسمًا فقده أولئك الذين يعيشون في النور، شاي يُحضَّر في أماكن خفية لا يشربه فيها أحد بمفرده. أخفت والدة لوسيندا الكاللالو السري تحت سريرها ولم تحذّر ابنتها منه، فخلطت لوسيندا الشاي معلما فعلت والدتها، غَلَت الأعشاب الضارة وابتلعت المغلي اللاذع على ثلاث رشفات، ثم غطّت فمها، وحين أحرق أحشاءها، ملأت فمها بماء النهر وبصقت في النار، فارتفعت سحابة بخار ضخمة وأحاطتها بالضباب، شعرت لوسيندا بالبرد القارس، هبّت ريح رطبة؛ حينها لم تعد على الأرض أو في ملابسها حتى، بل حلّقت

عاليًا في غمضة عين حتى صغرت جيبيه، وصارت نقطة من الضوء الخافت. في ومضة أخرى لم يكن هناك سوى القمر والسماء. صرخت وضحكت، وأرادت أن تذهب إلى هناك، وفجأة ذهبت، لا شيء يوقف انتقامها، ومن أعلى شجرة أكى رأتهما: العروس والعريس، قبل سنوات من أن يصبحا أرملة وجثة، يُتمّان زواجهما، وفي وميض غرفة النوم المضاء بضوء القمر، رأت الحركات الجنونية للجسدين المتعرقين، وبياض قدمي الأرملة يتمايل في الهواء بينما زوجها يمارس الجنس معها. قطعت كل حركة قلب لوسيندا الأسود، وعندما فتحت السيدة جرينفيلد عينيها متوقعة أن ترى الحب الحار، رأت بدلًا من ذلك ظلًا يسقط من شجرة أكي، كان شَعر الظل مفترقًا من المنتصف، وهي الطريقة التي اعتمدتها لوسيندا لتصفيف شعرها حتى يوم وفاتها.

ارتجفت يدا لوسيندا وهي تقف عند باب الأرملة، استدارت لتغادر لكن المطر كان ينتظرها وخافت من ضربات الأجنحة، هل سمعت الأرملة الرفرفة؟ لم يتغير وجهها.

وأخيرًا قالت لوسيندا: «أخبريه أن الرسول قد سمح له بالعودة». ثم ابتلعها المطر مبتعدة.

سمع قس الرّم ما قيل، وقفت الأرملة جرينفيلد عند المدخل تنظر إلى الخارج، لكنها تدري أنه يتسمّع خلسة، وعندما استدارت رأته ينظر بعيدًا.

«يبدو أن كنيستك تريدك مرة أخرى. هل تعتقد أنهم سيقيمون لك وليمة؟».

كانت في مزاج جيد، وقد أثارت لوسيندا شهيتها للمزيد، على كل حال كانت ستشعر بالتعاسة بمفردها. انسحب القس وعاد إلى غرفته تاركًا إياها في الفضاء الميت. الرب أعطى الرب أخذ؛ مثلما في صلاة الشكر.

هطل المطر طوال الليل، وتساءل البعض عمّا إذا كان الرب قد تراجع عن وعده بعدم إغراق الأرض أبدًا مهما أخطأ الإنسان؛ هطل المطر على الجميع؛ الصالحين والآثمين؛ هطل المطر على كلارنس وهو يغادر منزل السيد چونسون بعد مضاجعة زوجة السيد چونسون، مثلما يفعل في معظم الليالي، بينما الزوج ينام بهدوء في نفس السرير. أجبره الرعد على أن يتركها مهتاجةً، وعلى مسافة قريبة من المنزل بلّل السائل المنوي فخذيه، مذكّرًا إيّاه بأنه نسي ملابسه الداخلية. ثم ضرب البرق، فكشفه الوميض، ثم تركه مرة أخرى. ركض كلارنس إلى المنزل، وهو يتعثر مرة تلو الأخرى في المياه الموحلة.

كأن البرق أصبع دينونة الرب، أهل جيبيه يعرفون ذلك جيدًا. قتل البرق رجل الآلة. كشف ضوؤه المسبّب للعمى عن الإثم، وتفجّرَت قوته الفريدة من جلد الخطيئة الداكن. يعيش رجل الآلة وحيدًا، ليس في جيبيه نفسها، بل على بُعد أقل من ميل من النهر. في كل يوم يُرى مرتين: مرة وهو يقود أبقاره إلى الحقل عند الفجر، ومرة وهو عائد إلى الحظيرة عند الغسق. لكن من منزله جاء صوت الصناعة؛ صخب الأيادي والآلات والمطارق والمناشير والبكرات والحبال والأخشاب. وفي إحدى الأمسيات، قبل هطول الأمطار بقليل، انبعثت رائحة غريبة من سقيفة منزله، رائحة واهنة ولطيفة.

وبسرعة الريح، تحوّلَت الرائحة اللطيفة إلى رائحة شخص يحترق.

عندما وجدوه، كان المطر قد بدأ يهطل برذاذ عشوائي ورعد خافت، ثم هبّت العواصف على القرية، وفي الجزء الخلفي من المنزل بدت الآلة الغريبة كأنها مذنّب: لوحان شاهقان من الخشب على جانبي منصة ضيقة محاطة بسياج. تتعلق الحبال المتدلية لأسفل بالبكرات الموجودة في الجزء العلوي من الألواح، وكل حبل مزوّد بحزام مربوط به من فخذيه، هذا هو اختراعه الرائع إذن، الآن يمكنه ضبط ارتفاعه لمضاجعة الأبقار من كل الأحجام. من بعيد بدا الأمر كما لو أن أربطة جوارب نسائية تسحبه لأعلى، وعندما ضرب البرق كان في الأعلى بالفعل، مدعومًا بالبكرات ومتحمسًا بسبب احتكاك ردفيه. أدى الانفجار المفاجئ للضوء الأبيض والحرارة إلى إحراقه حتى تحول إلى قشور، وظلت الحبال وألواح الخشب والبكرات تئز بانتظام. لم تُصَب البقرة بأذى، ولمدة يومين لم يقترب منه أحد. ظلت الرياح تؤرجحه على وقع صرير الحبل المحترق المحتك بالخشب. حتى في الموت، فضحت أفعاله، ضربه البرق وهو مستعدٌ للغاية، والآن، ستظل أكثر أجزائه المفضوحة جثة إلى الأبد. أنزله الرجال بعد أن هرب كلب السيدة فراكاس بأصابع قدمه اليسرى، كأن البرق أصبع دينونة الرب.

***

ظلّ قسّ الرّم يصلي دون توقف منذ ما قبل الفجر. سمع المطر ينهمر. الأرملة على حق، لكن ألم يقُل الكتاب المقدس إن التجديف هو ما سيجعل الروح القُدُس تغادرك، وهو آثم ارتكب الذنب الأبشع.

لقد جثا على ركبتيه من قبل، لكنه الآن سقط على الأرض حزينًا على نفسه. «ثلاثون سنة، دمه يسيل على مدى ثلاثين سنة.. يا يسوع! يا يسوع! يا يسوع! أيتها الروح القدس! أيها الرب الغالي اغفر لي! الروح القدس! الروح القدس! أشفِقْ على ابنك اللعين!».

سقط شقيقه من الشرفة مرة أخرى، وانتشر الدم على الأرض بشكل عشوائي كأنه خريطة. لقد اشتهى هيكتور وكذب وسرق من أخيه، ثم دمّره. مرة أخرى في غرفة النوم المظلمة انهار بلاي على الأرض، وانتحب، وعلا نحيبه فأيقظ الأرملة التي تسللت إلى الباب. ما رأته أعادها إلى نفسها كامرأة، نظرت إلى الرجل فرأت طفلًا، وربما حمَلًا. كسر قلبها المتيبس فتركته يكمل صلاته.

«أيها الأب أعطِني الكأس.. أبتِ، ليست إرادتي بل إرادتك! أرجوك يا يسوع. أنا أطلب الألم.. أطلب الموت. أنا أطالب بالصلب. أريد أن أقوم يا يسوع، أريد أن أقوم. أريد أن أقوم!».

لم يطلب الصفح مرة واحدة في تلك السنوات منذ المدرسة اللاهوتية، ولم يشعر لمرة واحدة أنه يستحقه. حتى الآن كان يحسد حياة أخيه: فرحته، وعدم خوفه، وبلاهته. كان يكره حياة أخيه المختارة، التي كانت إحدى واجباته، كان بلاي لا يزال يرى نفسه معتليًا زوجة أخيه، وقضيبه الذي صلّبه شعوره بالحسد، في بضع ساعات فقط أفسدها، جعلها تفقد إيمانها بالحب، وتمنح نفسها له. ثم أصبح كاهنًا، أو هكذا ادّعى. ارتفع الإخلاص إلى السطح مثلما كان من قبل، لقد نادته لسريرها، لم يكن لديها إيمان بالحب أو الربح أو الخسارة. مثل آدم الذي أغوته الحية وتفاحتها لكسر عذريته

فقط، ليسقط في المعرفة الرهيبة للخير والشر، ثم اختفت بعد وفاة شقيقه.

لكن مع الرسول جاء دور هيكتور ليشعر بخسارة كل شيء، هذا عدل الرب. لقد أحب الرب لكنه كرهه أيضًا. قالت له الفتاة في المنام إن هذه هي الأشياء التي ينبغي أن تحدث، لكن أشياء أخرى تحرّكَت فيه، أشياء لم تكن لتظهر لو أنه لم ينزلق إلى هذا الحد. لم يسبق أن فكّر في حياته كثيرًا عندما كان يملكها، لكن الأمور اختلفت الآن بعد أن فقد كل شيء، ولا بُدَّ أن هذا جديد. لقد طردته الكنيسة، والآن تريد عودته. أولئك الذين أحبهم الرب، وعاقبهم الرب، ولم يعاقبهم الرب قطُّ حتى الآن. لمدة ثلاثين عامًا كان يعتقد أنه ليس أكثر من بقعة غير مرئية على ظهر الرب، خائف لكنه محتاج إلى يده القوية، وهذا ما دفعه للشرب، وكم كان مخطئًا!

يا هيكتور بلاي، الحال في السماء كما هو الحال على الأرض، إلى متى يجب أن يكون هذا حالك؟ إلى متى يجب أن تكون أنت إلهك؟ في السعادة والحزن ما زلت ربّ عالمك. لم يكن هذا ليحدث لو غفر لك. يدور القمر حول الأرض، تدور الأرض حول الشمس، تدور الشمس حول مركز الكون. ومع ذلك، ليس هناك ما هو أكثر أهمية من ذَرّة، نقطة، مبدأ، لا أكثر ولا أقل. كم أنت ضئيل إزاء الكون! ومع ذلك، انظر إلى الصورة التي خُلِقتَ عليها. يا لك من مخلوق! لقد تمّ الغفران على الصليب، فأي حق تملك في أن تشعر بمعاناة أولي العزم من الأنبياء؟ تسأل عن الحياة ولكن هديتي لك ستكون العمى.

تلاحقت الصور دون استدعاء أو قصد: الأطفال، الظلام، الأجنحة،

الجدران السوداء التي صرخت بشهادتها، الصلبان المتأرجحة من صدور تفوح منها رائحة العرق، الانسحاب، تدفُّق المني الدافئ، الصراخ، العواء، الموجات البنفسجية والبيضاء، الوجه؛ الأخ، العاشق، المرآة التي سقطت وتحطّمَت. يهوذا على الأرض، يسوع يتأرجح من حبل المشنقة، طفل صغير ينحني، بشعر حيوي للغاية وأقفال معوجة. اختلط الأولاد بالفتيات. سيرافيم، الملاك، الرضيع. كان يعرفهم، لا يعرف وجوههم، بل أحجامهم، يعرف سواد شعرهم وبشرتهم الفاتحة. ومن الظلام جاء رجل امتزجت ثيابه السوداء بالظلام، له طول رجل ووجه طفل. رفرفت ثيابه رغم عدم وجود رياح. وعندما نهض بلاي من على الأرض، كان قد عرف الرجل ولماذا أتى.

ارتدى القس بلاي البدلة التي وجدتها الأرملة قرب النهر، وأعادت إليها لونها الأبيض. فتح الباب لتقابله رائحة البيض ولحم الخنزير المقدّد.

«إلى أين أنت ذاهب؟».

«إلى الكنيسة.. إلى ذلك الرجل الذي يدعو نفسه الرسول».

«ألا تظنه تصرُّفًا أحمق؟».

«الرب يستخدم الحماقة لإرباك الحكماء».

«كفى وعظًا.. سيبرد البيض».

«ليس لديّ وقت أضيّعه.. سيفعل الرب ما يري...».

«في الحالتين عليك أن تأكل، وعلى الرب أن ينتظر».

«لكن أنا...».

«اسمع، لا تُجبِرني على التعامل معك بعنف.. البيض ولحم الخنزير المقدّد ليسا رخيصين، فإما أن تأكلهما، أو ألقي بالزيت الساخن مباشرة على بدلتك البيضاء، الناس يستيقظون مبكرًا لطهي وجبة الإفطار و...». أكملت كلامها وظهرها له، لكن الرسالة وصَلَت، ومن الأفضل عدم قول أي شيء. «كُل... ينبئني شيء ما أنك اليوم بحاجة لأن تكون قويًا.. قويًا للغاية».

***

أبكَرَت لوسيندا بالعمل، تعرف ما تريد أن تراه، لكنها أسرّت لنفسها أنه ليس لديها مثل هذه الرغبة، لقد جعلت ذكرى الجَلْد ظهرَها يحترق من جديد، المعاناة خيالية، لكنها فشلت في إنكارها أو قمعها. نظرت من خلال ثقب المفتاح ورأت الأسود، هو يعمل بالتأكيد. عاقبت لوسيندا نفسها، ماذا عساها ترى وهي جاثمة مثل طفل شرير عند باب مكتب رسولها؟ نظرت من خلال ثقب المفتاح مرة أخرى ورأت الأسود، ثم تحرّك الأسود فقفز قلبها، أصبح الأسود ظلًا، ثم أصبح الظل منحنًى، والمنحنى أصبح مؤخَرة، تحرّكَت المؤخرة يمينًا واختفت عن الأنظار. تحرّكَت يمينًا فاصطدم صدغها بمقبض الباب. متجاهلة نبضات الألم، نظرت لوسيندا من ثقب المفتاح لعدة دقائق حتى استسلمت لخيبة الأمل. ثم نهضت لتجد نفسها مباشرة في صدره.

«أوه.. يا يسو...».

أمسكها من حلقها بقوة لكنه لم يضغط عليها. حاولت التراجع لكنها فشلت، كانت في قبضته. اتّسعَت عينا الرسول مثل طفل في لحظة، وفي اللحظة التالية مثل قاضٍ. شعرت لوسيندا أن خوفها يضعف ساقيها. أمسكها من حلقها لعدة ثوانٍ ثم أطلقها تاركًا ذقنها بين أصابعه، وعندما لمست سبابته شفتيها همس: «شششش... هل ننطق باسم الرب سدى؟ لوسيندا، ماذا تفعلين؟».

«نعم، نعم، نعم...».

«هل أسقطتِ شيئًا؟».

«يوه... نعم... نعم».

«أو ربما كنت تمشين وأنتِ نائمة؟ أيهما؟».

«ممم... أنا... الحمام!».

«حسنًا يا عزيزتي لن أعطلك».

هرعت لوسيندا إلى الحمام حيث أرادت أن تتقيأ؛ كانت حروق ظهرها حقيقية.

«لوسيندا؟».

قفزت، وقد أشعرها الخوف بالغثيان. في البداية بدا الصوت حميميًا لدرجة أنها اعتقدت أنه داخل الغرفة، لكنه جاء من خلف الباب.

«لوسيندا، هل أنت بخير؟».

«نعم، أيها الق... أعني الرسول».

«هل أنتِ مريضة؟».

«لا... نعم. أجزاء من جسدي مريضة، صحيح».

«يا إلهي، أنا آسف لسماع ذلك.. ولكن حمدًا للرب، من الأفضل أن يكون لديك جسد مريض لا عقل مريض، ها؟».

«نعم أيها الرسول».

عندما ابتعد، حضرتها ذكرى أو واقع؛ لم تكن متأكّدةً، تذكّرَت انفجار جسد فتاة صغيرة وتناثر دمها على الصخور. وتذكرت رجلًا وامرأة يختلط عَرَقُهما تحت غطاء من أوراق شجرة الأكي. وتذكّرَت

رائحة المرحاض وصوت الأطفال، ستة أو ستين، وهم يضحكون. أمسكت لوسيندا بطنها وتقيّأت.

***

قفز الأحد إلى الأحد التالي بسرعة، لكن قس الرّم مستعد. يوم الأربعاء ركض إلى قمة التل دون حذاء. ضخ قلبه بقوة وانفجر من القشرة الغليظة التي تكوّنت على مدى ثلاثة عقود. يوم الخميس قرأ كتاب المزامير من أوله إلى آخره على ركبتيه دون توقُّف. يوم الجمعة جلس بجانب دانيال في حفرة الأسود. ويوم السبت أعاد يسوع إلقاء خطبة الجبل لأذنيه فقط. هان عِظَم ما واجهه، لكن الرب اختاره. وكما قال الرب فإن النصر لا يأتي بالقوة أو ربما.

شاهدت الأرملة كل هذا بذهول ساخر، كانت محصّنةً ضد الإيمان، لكنه مع ذلك أثار شيئًا فيها أيضًا، لكنها لم تدرك ماهيته، وهي على يقين من أنها لا تريد ذلك، تعاملت الأرملة مع الكثير من الأشياء غير المرحب بها، بما في ذلك الاهتمام البالغ بالقس هيكتور بلاي.

«أبعد كل ما فعله بك ما زلت تصلي له.. أنت أكبر أحمق في جيبيه».

«الرب أعطي والرب أخذ».

«لا بُدّ أن الرب مانِحٌ هندي».

ابتعد عنها لكنها تبعته مسترسلة: «أنا فقط أريد أن أعرف لماذا.. أخبر الأرملة لماذا لا تزال جاثيًا على ركبتك بعد كل هذا... أتعتقد أن الرب يمكنه أن يساعدك؟ لم يستطع الرب حتى أن يساعد نفسه على

الصليب، كيف يساعد ضالًّا مثلك؟».

«أليس الرب هو مَن يفعل بي هذا، هل أفعل هذا بنفسي!».

«إذن يسمح الرب بذلك، أو لا يستطيع أن يفعل شيئًا حيال ذلك.. لا أفهم كيف يمكنك أن تحب أي شخص بهذه الطريقة المريضة».

«لأن الرب هو الرب».

«والخراء هو الخراء».

«لأن الرب هو الرب».

«أنا أعرف ربك، إنه هناك في خزانة مطبخي، لديّ ثمانون دليلًا، الرب شيطان».

«ماذا تريدين يا امرأة؟ أتعتقدين أن الرب هو أب عيد الميلاد؟ الرب هو الشّذّاي.. لا يدين لك بشيء.. الرب أعطى والرب أخذا».

«أعلم أنك لا تتحدث عن زوجي... أنا أعلم جيدًا أنك لا تتحدث عن زوجي».

ابتعد، لكنها تبعته، مشى مسرعًا داخلًا المنزل، لم ينظر إلى الأمام، لكنه سمعها تتبعه.

«أين تظن نفسك ذاهبًا؟ أكلمك عن إلهك! تعال بشّرني؟ هيا تعال وبشّرني».

كان محاطًا بأبواب مغلقة باستثناء باب واحد، هي خلفه مباشرة، وقد دفعه صوتها إلى الغرفة التي تفوح منها رائحة الصابون الكربولي، والنظافة الناتجة عن التطهير الدائم، على حائطها سبعة

صلبان، كلها مصنوعة من الخشب وكلها مقلوبة رأسًا على عقب. السرير مواجه للحائط بلا مُلاءة أو أغطية، فقط مرتبة مخططة. تسلَّلَت الرياح من خلال النوافذ المغلقة، وهمست له بحقيقة هذه الغرفة. تحوَّلَت المرآة لتواجه الحائط واللوحتين والخزانة. بالقرب من الباب صورة ليسوع عادة ما تعلق على جدران الكنيسة ومحلات البقالة، رأسه مائل كأنه غريب، وضوء مركز على شعر بني لطيف وعينين مبللتين وبريق أسفل الحاجبين المرفوعين بنظرة مشفقة. كانت الصورة مقطوعة من أعلى ومن أسفل، وكذلك القلب المحاط بتاج من الأشواك، يعرف أن الرب غادر هذا المكان.

«نعم انظر، انظر، انظر جيدًا. أهذا هو يسوع الذي أصلي له الآن؟ يسوع الذي لا قلب له. يسوع الذي لا روح له.. يسوعي مخلص لكلمته، انظر».

«أبانا الذي في السماء».

كان محاصرًا وكانت جريحة.

«ليتقدس اسمه اللعين».

«لم يضع الرب كأس الرّم في يده».

«من أنت لتتحدث؟ لطالما كنت سكيرًا كبيرًا، لكنك لا تزال على قيد الحياة».

لم يقُل القِسّ شيئًا، فتابعت: «لم يردني الرب أن أحصل عليه قطّ؛ لهذا أخذه مني، أليس هذا هو نفس الحب الذي يتحدث عنه؟ الرب أعطى الرب أخذ، لماذا أخذه مني، آه؟ لماذا أخذه مني؟».

«سيدة جرينفيلد...».

«لماذا أخذه مني؟ لديك ملايين وملايين، وأنا أملك واحدًا، فتأخذه!».

«سيدة جرينفيلد...».

«أتدري ماذا أريد؟».

«لا، سيدة...».

«أتدري ماذا أريد؟ يسوع؟».

«ماري!».

«لا أريد أن أصبح أرملة بعد الآن، لا أريد أن أكون أرملة، أريد أن أكون امرأة.. أيمكنك أن تمنحني ذلك يا يسوع؟ امنحني ذلك يا يسوع، امنحني ذلك يا يسوع.. أعِدني امرأةً. أعِذه إليّ يا يسوع». رفعت تنّورتها، لم يكن هناك ملابس داخلية تحتها، ثم تحرّكت نحوه وعيناها مبللتان بالدموع وأصابعها تمسك التنورة بإحكام. ما بين ساقيها مظلم، خاوٍ: «أيمكنك أن تعيدني امرأة؟ أيمكنك أن تعيدني امرأة يا يسوع؟».

«ماري جرينفيلد!».

«لديّ إيمان بيسوع الأب، أعلم أنني إذا لمسته سيشفيني». ثم أمسكت بقضيبه وعصرته. دفعها هيكتور بعيدًا، بقوة أكبر ممّا كان يقصد، فتعثرت ووقعت على السرير باكية.

«لا يمكن للرب أن يعيده يا ماري».

كان يخشى تخطّيها، تنتظره مَهمّةٌ خارج الباب لكن الشيطان حبسه في الداخل، وفي روحه كان صدرها يضغط على صدره، ويدها تمسك بقضيبه بهدوء في لحظة، وبقوة في اللحظة التالية، هذا من عمل الشيطان الذي لا يحترم أحدًا، ولا حتى أرملة محطّمة. لم يكن أمامه إلا الوقوف، وبدلته البيضاء تستمدُّ الضوء من الظلام، التفتت في الظل، تنشّقَت ومسحت أنفها ثم نظرت إلى الأرض، وقالت «اخرج».

***

الآن بعد أن تحوّل الأحد من يوم للخمول إلى يوم للترفيه، اشتعلت طاقته. المؤمنون هنا مستمتعون أو متبرّمون أو يملؤهم الفضول والمرارة، بعضهم ليس من جيبيه. من نافذته رأى الرسول يورك الحشد من نافذته، جلس ساكنًا والشرر في عينيه، أخفت اللحية القرحة الملتئمة تحت شفتيه، لكن توجد قرحات أخرى فوق وتحت حزامه، ذكّرته بما حدث وانتهى، وبما لم يحدث بعد. يعلم أن الأسوأ سيحدث قريبًا، لكن هذا ليس صباحًا للتفكير فيما يتسلل تحت جلده. حين تركت لوسيندا إشعارات اليوم على مكتبه، رأى بقعتين صغيرتين حمراوين تظهران على ظهرها. لمس يورك شفتيه بسبابته، وأسكت روحه.

وعندما بدأ الأرغن العزف والجوقة ترنيمتها الأولى، ارتدى ثوبه الأسود والأحمر.

لقد احتشدوا في الصفوف الأمامية مثل سمكة قرش نَتِنَة، ملأ بقية المؤمنين الصفوف الوسطى، تاركين البقية في المقاعد الخلفية.

تكلّم اليوم عن أشياء كثيرة، كان مستعدًا، وطلب من الحاضرين أن يفتحوا الكتاب على مرقس، الإصحاح الرابع، الآية الثالثة.

اسمعوا. هو ذا الزارع قد خرج ليزرع وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت طيور السماء وأكلته، وسقط آخر على أرض حجرية..

وفجأة دوّى صوت ضجيج في الخارج، ضرب الاضطراب الكنيسة على شكل موجات، من الخارج إلى الداخل، وأصاب الرسول بعضًا منها، فهو يقف في مقدمة الكنيسة وسيكون آخر من يطّلِع على الأخبار.

«دجال!» قال الصوت بحزم وقوة لم يسمعه بها أحد من قبل، وقف القس بلاي متـألقًا تحت درجات الكنيسة، يحمل في يده اليسرى كتابًا مقدّسًا مفتوحًا، ويشير بيمينه إلى برج الكنيسة. القِلّة الذين كانوا يترددون على الكنيسة وهو قسٌ اندهشوا لسماع الرجل يصرخ، لكنه هناك، يصرخ مثل الروح القائمة من بين الأموات.

وفي الداخل، لم يكن الرسول يدري ماذا يحدث. «لتهدأ الكنيسة، لا تدعوا شيئًا يلهينا».. وأكمل: *وسقط بعضهم على أرض حجرية حيث لم يكن بها الكثير من التربة، وعلى الفور..*

«آثم!». سمعها الرسول كأنها صرخة حرب. الغضب عاطفة لعينة، الاضطراب أفضل، لكن التسلية أفضل وأفضل. «يبدو أن شخصًا ما هرب من مستشفى بلڤيو للأمراض العقلية في صباح جيد من صباحات الرب.. الآن إلام سيصل العالم؟ دعونا نعود إلى الكتاب المقدس، وليرحم الرب تلك الروح المسكينة: *وظهرت على الفور، لأنه*

لم يكن لها عمق في التربة، ولكن عندما أشرقت الشمس، ...

«عدو للمسيح!».

عادت كلمات الرسول اللاعنة الثلاث لتكرّر، فسقط الكتاب المقدس من يده. «مَن هو ذا بالله عليكم؟»، وانتشرت الشائعات بأن عينيه احمرّتا، ولوسيندا أمامه وقد وعادت تقفز مثل طفل شقي يحمل سرًا «القس بلاي... القس بلاي».

تمسّك هيكتور بلاي بمكانه والشمس تغرق ظهره. شعر بما ظنّه شبابًا، شعر باختفاء اثنين وعشرين عامًا من العبء. لدى الناس وسيلة لتحمّل الآلام كما لو كانت مقتنيات، يظنّون أن المعاناة دليل حياة، لكن الروح القدس جعله جديدًا، وأنعش جسده المحتضر بقصد ووعد. ربما يفرط في التّمدّد مثل إيكاروس، لكن يده شعرت بأنها أكبر من الريح وأقوى من الشمس وهو واقف في منتصف الطريق بلا حراك. خرجوا للقائه، لوسيندا أولًا، ثم الخمسة، ثم كلارنس، وأخيرًا الرسول يورك الذي قال: «حسنًا، أنت قبيح جدًا لأن تكون ابنًا لأي امرأة، فماذا ينبغي أن نسمّيكَ؟ اللقيط الضال؟».

أجاب بلاي: «يمكنني التفكير في اسمين لك».

«فعلًا؟ ربما ينبغي لي أن أجلد مؤخّرات المصلين.. أعني، انظر إلى ما فعلته من أجلك».

«أنا أعرف أساليبك.. أنا أعرفك».

«لا تقُل ذلك؛ قبل يومين لم تكن تعرف نفسك حتى، لكن دعني أذكّرك بأنك انتقلت من حالة الشكر إلى حالة الخديعة.. أنت يا

هيكتور بلاي رجل مُسِنٌّ غبي، وفاشل وسكير.. أنت مجرد فوضى لم تتحول قطُّ إلى رسالة.. أنت الآن تقوم كما لو كنت ميتًا لمدة ثلاثة أيام، ولكن أسدِ خِدمةً للبشرية يا بلاي. اصنع معروفًا لجيبيه، ابقَ صامتًا.. هل تسمعني؟ ابقَ على الأرض؛ فهذا هو المكان الوحيد المناسب لك... غُد من حيث أتيت واستمتع بنوم جيد.. بمناسبة النوم كيف حال الأرملة؟ هل تكبلك بأخلاقياتها الصارمة؟». ضحك الحشد بشكل عشوائي. لم يشعر البعض بالتوتر بهذا الشكل من قبل.

«بلاي. بلاي؛ توقَّف عن إحراج نفسك.. توقَّف عن إحراج الرب الذى تخدمه. إنه يغفر لك.. وأنا أسامحك.. وفى الوقت المناسب سوف تغفر لك جيبيه. أتعلم شيئًا؟ أنا متأكِّد من أنه في مكان ما في الجحيم حتى أخوك يسامحك. هل تعثَّر فسقط؟ هل دفعه شيء رآه؟ مَن يستطيع أن يحكي عن تلك الأيام؟» لم يصدر عن الحشد صوت.

«لقد كان الرب هناك يا بلاي يوم وفاة أخيك.. لا بُدّ أنها شعرت حقًّا، ما الكلمة التي أبحث عنها؟ ماذا، ماذا، ماذا. لا، ليس هذا، لا هذا أيضًا، لا، أنا أعرف، أعرف الكلمة التي ستستخدمها، كلمة مقدسة: الميتة الصغرى.. لا بُدّ أن الرجل تأثر حين رأى أخاه القس يركب زوجته مثل قحب يعتلي عاهرة، هل ترى هذا الرجل؟» صاح يورك وهو يدور حول بلاي: «الكل في كينجستون يعرفون هذا الرجل! الكل يعرف الدمار الذي أحدثه هذا الرجل ببنطلونه! الجميع يعرف قصتك أنت وزوجة أخيك!».

«لم تكن عاهرة... الـ الـ ا... لا شأن لك بهذا».

«بل هذا من شأني أيها الزنجي الفاسد».

استمر الرسول في الالتفاف حول القس وهو يتكلم، ثم توقف أمامه مباشرة، كان قريبًا بما يكفي ليرى بلاي الندبة تحت شفته. «هل تعتقد أنك إن لبستَ ملابس نظيفة تصبح روحك بيضاء كالثلج؟ هل تعتقد أن النقاء يأتي من الغسيل بالصابون؟ لماذا لا نفعل كلنا ذلك يا هيكتور؟ أنحن هنا نطهّر أنفسنا أمام الرب، يغطينا دم الحمل، بينما كل ما نحتاجه هو الاستحمام؟ لكنني أصدق قصتك يا بلاي، أصدق أنه تعثّر فسقط، هل سمعت رقبته وهي تنكسر يا بلاي؟ هل تعتقد أن عظامها انسحقت مثلما تقضم جزرة؟».

وجّه بلاي ضربة قوية إلى الرسول، فاضطرب الحشد أكثر، كان وجه الرسول على بُعد أقل من قدم من قس الزّم، فأكمل هامسًا: «لكنني متأكد من أنه يسامحك.. أنا متأكد من أن المرأة ستكتب لك خطابًا الآن، إذا تمكّنت من كتابة جملتين دون أن توحل نفسها. هل تعلم أنها كانت في بلڤيو؟ لا تجعل من نفسك فرجة لو سمحت.. يمكنني أن أدع هذه البلدة تعرف عنك كل شيء، لكن هل تعرف ماذا؟ حتى أنا أؤمن بالفداء يا بلاي، وأنت رجل مُسِنٌّ؛ لذلك أظهر بعض الكرامة وتوقّف عن إحراج الرب».

أدار الرسول يورك ظهره إليه وسار إلى الكنيسة، وبعد عدة خطوات استدار مبتسمًا وهو يصيح: «أنا أيضًا متأكد من أنه يمكننا إيجاد طريقة ما لتعمل بالكنيسة، ربما نمنحك مكنسة لتنظيف الأرض، مثلما تفعل بالفعل مع مؤخرتك».

ابتعد الرجل ذو الرداء الأسود بينما ظل ذو الرداء الأبيض واقفًا في مكانه.

تبعت لوسيندا الرسول بسرعة، ثم توقّفَت مرة واحدة لتنظر إلى بلاي بشرر.

قال قس الرّم: *«أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم..»*.

توقّف الرجل ذو الرداء الأسود:

«ذاك كان قتالًا للناس من البَدء، ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق».

«بلاي».

«متى تكلّم بالكذب فإنما يتكلّم ممّا له لأنه كذاب وأبو الأكاذيب».

«هيكتور بلاي، أستحلفك بكل ما هو مقدّس».

«لا شيء مقدس فيك، أنا أعرفك».

أجاب الرسول: «أنا أخدم الطريق والحق والنور».

«نورك أكثر سوادًا من الأسود.. أنا أعرفك».

«أنت تعرفني؟ ماذا تعتقد أنك تعرف؟ نصف عقلك خرّبَته الخمور. لقد ألقيت خراءك على مذبح الرب، فتى كينجستون الضال الفاسد، ماذا تظن أنك تعرف؟».

«أنا أعلم عن كتبك الحمراء وكتبك السوداء.. وأعلم لماذا جئت إلى هنا».

«لغو.. لغو، الكثير من اللغو، قل لي، هل للرب اليد العليا على مؤخرتك؟ كنت أحسبك ذميةً، يتكلم الرب من بطنها؟ هذا جديد،

أنت مجنون يا بلاي، وهذا تطوُّر مُحزِن، سابقًا كان الناس يبتسمون حين تجيء سيرتك، لكنهم الآن يضحكون».

«دعهم يضحكون.. مَن يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا، وقريبًا سيكون بكاء ونحيبًا، لكنني سأتعامل معك أولاً».

«تتعامل معي؟ أتعرف مَن أكون؟ أنت...».

«أعرف من أجل مَن أتيت».

«بلاي، لا تقترب من هذه الكنيسة مرة أخرى وإلا سأ...».

«أفسس اثنان، الآية عشرين.. أفسس ثلاثة، الآية الخامسة».

«بلاي».

«إنجيل بطرس الثانية، الآيات من الآية الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة».

«أقسم أنني سأ...».

«يسوع...».

سقط القس على الأرض قبل أن يشعر الرسول بالبصاق والدم على مفاصل أصابعه. رفع يده ليلكم بلاي مرة أخرى، لكنه توقف فجأة واستدار مبتعدًا وهو يضحك، وظل يضحك طول الطريق إلى الكنيسة، فتح الأبواب بسرعة ثم أغلقها جيدًا.

777

سرعان ما جاء عيد الفصح

طلب منا الرسول أن نقطع الكثير من أوراق جوز الهند، لأن الأحد القادم هو أحد الشعانين، وسيجعل الأطفال يقدّمون عرضًا في الكنيسة! لا نرى الكثير من الإثارة منذ أن أنجبت كلبة الآنسة فرايس قطّةً. على أي حال، سرعان ما جاء عيد الفصح.

اكتست كل الأماكن بأوراق جوز الهند: المنبر، وأسفل الممر، على طول الطريق إلى الباب، أسفل الدرج، والطريق في الخارج. بعضنا ممّن لم يعتادوا الذهاب إلى الكنيسة يذهبون الآن كل أحد، لأنهم أدركوا أنهم سيرون العلامات والعجائب! يرون إنسانًا لم يكن يستطيع أن يتكلم، وصار يتكلم، ورجلًا لم يكن يستطيع المشي، وصار يمشي. إن يسوع المسيح نفسه هو من أرسل الرسول إلى جيبيه.

يطلب منا الرسول أن نجلس، لكن هذه كذبة، فهو لا يقول أبدًا، كل ما يفعله أن ينظر إلينا ونحن ننفذ. هذه عَظَمة الرسول، أنه يعرفنا قبل أن نعرف أنفسنا. عندما يريد من الناس أن يفعلوا شيئًا ما، ينظر إليهم بطريقة معينة فينفّذون بسرعة. نجلس ويبدأ عازف الأرغن المسِنّ العزفَ، ثم تنهض لوسيندا وتركض نحو الباب. تُلوِّح بيدها، وتطلب من شخص ما أن يدخل.

سيبدأ العرض، بمجرد أن تتنحّى جانبًا، يدخل اثنان يرتديان قماشًا أحمر جميلًا، قماش ثمين يرسل المتجر في طلبه، ويستغرق وصوله

ثلاثة أسابيع. ثم يدخل صغيران آخران، يحملان شمعة في يديهما ويربطان رأسيهما برباط حول الجبهة، ويبدوان كملاكين صغيرين. دخل اثنان آخران وظلّ اثنان: فتاة وصبي. يجب أن ترى ما سيحدث بعد ذلك، يدخل صبي كبير إلى الكنيسة يسحب شيئًا خلفه بحبل. يسحب ويسحب، مُحدِثًا جلبة، لكن الحبل لا يتزحزح، ثم يسحب بقوة كبيرة وها هو حمار يُجَرُّ إلى الكنيسة! يبدأ الناس في التصفيق والتهليل، فوق الحمار طفل جميل صغير، اعتقدنا أنه أحد أبناء أخي السيد جارفي، لطيف الشكل والبشرة والشعر، ثم نكتشف أن شَعر الطفل مستعار وبني وطويل، وكرات قطنية على ذقنه تجعله يبدو مثل يسوع، يا للإثارة!

اصطفُّوا في مقدمة الكنيسة وبدؤوا في الغناء «كأسي يسيل». لوّح الرسول للجوقة، الجميع يغنون أيضًا، لكن يسوع الصغير هو صاحب الصوت الأعلى، ثم جاء الصوت الأحلى، الأحلى جدًا لدرجة أننا لم نسمعه على الفور، لكن شيئًا فشيئًا لاحظ البعض صوتًا واحدًا لم يكن متوافقًا مع الموسيقى، ها هي موجة أخرى تتدخل نحو الكنيسة، تنبئ هذه الموجة بحدوث خطأ، وأن الخطأ يتعاظم. صمتت الكنيسة بالكامل لتستمع إلى الصغير الذي لم يكن أحد يدري أنه أخرس، وبعد لحظات لم يكن هناك سواهما، فتى يسوع يغني «كأسي يسيل» في مقدمة الكنيسة، وقسُّ الرّم يصرخ ذاكرًا حفرة النار واللعنة في الخلف.

لقد جاء والجميع مشغولون بالنظر إلى الأطفال، لذلك لم يره أحد، وها هو ذا الآن في منتصف ممر الكنيسة مشيرًا إلى المنبر.

سأله يسوع: ما اسمك؟ فقال: لجئون، لأن شياطين كثيرة دخلت فيه.

الجالسون في المقدمة رأوا وجه الرسول يتحوّل من جميل إلى قبيح، يزأر مثل الأسد وينظر مباشرة إلى القسّ بلاي.

احمرّ رأس الرسول يورك كأنه خنزير على وشك الموت مختنقًا، وبغضب شديد أشار إلى الجوقة لتكمل الترنيم بصوت عالٍ. أدرنا رؤوسنا من اليمين لليسار، وفي دقيقة استأنفت الجوقة الترنيم، ثم في الدقيقة التالية كان قس الرّم يشتعل في الخلف.

غلبتنا الحيرة، فالجميع يعرفون أن بلاي ضعيف، لكنه الآن يبدو متماسكًا صاهبًا، مشدودًا، مثل مقلاع داود. لا يمكن أن يكون هذا هو نفس الرجل الذي يتبوّل على نفسه ويترك فتاة تضربه. لا يمكن أن يكون هو من نراه الآن؛ لا يمكن لأحدٍ أن يطرده من كنيسته، ولكن ها هو ذا، حتى الناس الذين طالما ردّدوا أن الرسول مُرسَل من يسوع المسيح المقدس نفسه بدؤوا في الاستماع إليه.

توعّد قسّ الرّم هذا وذاك والرجل الذين جاء من أجله بالويل. لكن رؤيته كانت كافية. يرتدي سترة بيضاء وقميصًا أبيض وبنطلونًا أبيض. تسلّلت الشمس إلى الداخل فغمر الضوء المكان، كل هذا الأبيض يحيط بالأسود. أمر الرسول يورك الخمسة بالإمساك بقسّ الرّم، أمسك أحدهم بيده اليمنى والآخر بكتفه اليسرى، حاول ركلهما لكنهم أمسكوه من قدميه وسحبوه خارج الكنيسة. ظل قس الرّم يصرخ ويتوعّد بالجحيم رجلًا يحتاج إلى الخلاص ويكتب عقيدة شيطانية. يقول البعض إنها مصادفة، ويقول البعض إنهم

فعلوا ذلك عمدًا. لكن الخمسة جميعًا اصطدموا بالجدار بالقرب من المدخل فارتطم رأس قس الرّم به مثل كبش، وصمت تمامًا.

ظلّ قش الرّم خارج الكنيسة بلا حراك، وقد ضُبغت ملابسه البيضاء بالأسود. تعثر، وحاول النهوض، لكنه وقع مجددًا. وفي الداخل كان الرسول يحكي كيف أنه عصى الرب بدعوته هذا اللعين إلى الكنيسة مرة أخرى، تقول كورنثوس الأولى بوضوح إنه ينبغي علينا طرد الأخ المارق، وأن الرب قد أصدر حكمه بالفعل على السكارى، ومن واجبنا أن نترك الرب يعمل وأن نسلّم الرجل إلى الشيطان.

***

قال الرسول: «أيها الأحبّاء، انتقلوا معي إلى الإصحاح العشرين من سِفر الخروج: *أكرِم أباك وأمك*.. ردّدوا معي مرة أخرى. *أكِرم أباك وأمك لتطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك*.

ثم أغلق كتابه وأمسك المنصة بكلتا يديه، وسأل: «مَن الأب؟ لندرس الكتب المقدسة بعمق. الملك شاول، ملك رهيب، نعم، لكن ما مدى سوء أبٍ ربّى يوناثان؟ الآن لدينا الملك داود، الجميع يحب الملك داود، لكنه، كما تقول السيدة فراكاس، حاول ابنه قتله. ماذا عن صموئيل، الذى أمضى الكثير من الوقت فى التنبؤ بأبناء الناس لدرجة أنه لم يستطع حتى رؤية أبنائه يتحولون إلى كَذَبة ولصوص ومنحرفين. ماذا عن يوسف، والده ابن الرب، لكنه لم يلاحظ أن ابنه مفقود إلا بعد ثلاثة أيام...

ها هي الحقيقة. لستم بحاجة إلى أب أو أم. دعوني أقول هذا

مجدّدًا، لستم بحاجة إلى أب أو أم.. كل ما تحتاجونه هو الأب السماوي.. وشيء آخر. لا أريد أن ينطق أحد اسم الرب في هذه الكنيسة. أوه، أنتم هادئون الآن. دعوني أقولها مجددًا.. لا أريد أن يردّد أي شخص اسم الرب في هذه الكنيسة. مَن يستطيع أن يخبرني لماذا؟ لماذا أمنع مناداة الاسم الذي ترتجف أمامه كل الأرواح الشريرة؟ حسنًا، دعوني أطرح عليكم سؤالًا... ڤيكستون، ما اسم والدك؟».

كان ڤيكستون واقفًا مع بقية الخمسة.

«أدولفوس أيها الرسول».

«أخبرني يا ڤيكستون بِمَ تناديه؟».

«بشيء لا يمكن أن أقوله في الكنيسة أيها الرسول».

ضحك البعض حتى رأوا وجه الرسول يتغير.

«يوجد موسم للضحك، هذا الموسم ليس اليوم.. ڤيكستون، قُل لي بجدية، بِمَ تنادي والدك؟».

«حسنًا، آه، أناديه بابا، أو السيد ديكسون، أو بي عندما تصمُّ أذنه ولا يمكنه سماعي».

«لماذا لا تناديه بأدولفوس؟».

«لأن...».

«لأنه الرأس لا الذيل، الحاكم لا التابع.. لأنه الأب، فأنت تُظهر له الاحترام الواجب.. الاحترام الواجب.. لذا أخبرني يا ڤيكستون، إذا

كنت تُظهِر الكثير من الاحترام لوالدك الأرضي، فكم بالأحرى ينبغي أن تظهر لأبيك السماوي؟ تدعو الرب باسمه الأول كأنه نظيرك! استمعوا إليّ، اهدَؤوا! اهدؤوا! اهدؤوا! إلى أن تُظهروا لي وللرب أنكم أكثر من مجرد أطفال للمسيح، أريد من الجميع أن يخاطب الأب بصفته الآب. إنه ليس ابنك، أو صديقك أو حبيبك، بل سيدك.. وأنا؟ أنا معلكم تمامًا، أنا خادمه...».

وقبل أن ينتهي انتبهت الكنيسة للغناء. كان قس الزّم بالخارج في المكان الذي تعرّض فيه للضرب يوم الأحد السابق، يغني «صخرة الزمن»، بصوت مدوٍّ مليء بالدماء والحزن. سمع الرسول أغنية القس وشعر بكراهية قابيل تجاهه. ثم أشار إلى الجوقة التي انطلقت مرنّمةً «الرب إله طيب». ارتفع صوت الجوقة ليعلو على أغنية قس الزّم ويغطّي عليها. لكن بمجرد انتهاء أغنية الجوقة، ارتفع صوت هيكتور بلاي مرة أخرى. وبدأ عدد قليل من رواد الكنيسة يهمهمون معه. دفع الرسول المنصة بعيدًا في غيظ فسقطت الكتب على الأرض. لم يجرؤ أحد على الكلام. دَفعُ يورك فتح أبواب الكنيسة. وفي الخارج، تواجه القس والرسول، يفصل بينهما ياردات وسنوات وعداء متزايد. استمر القس في الغناء، وارتفعت نغماته مع الترنيمة. بدا أصغر سنًا، يتمتع بقوة جديدة، لا يدري أحدٌ من أين أتت، واعتقد البعض أنه سرير الأرملة جرينفيلد. لم يكن لدى الرسول وقت لشائعات لوسيندا. وقف في المدخل، بعيدًا عن القس، وعاد الجميع للفرجة.

وقف هيكتور بلاي حازمًا. لكن البقع الرّمادية حجبت ضوء الشمس، كان يتحرك يسارًا ويمينًا وفي دوائر. نظر إلى الأعلى ورأى

دوامات سوداء عندما تفرّقَت أسراب الغربان. وعندما وصل في ترنيمة «صخرة الزمن» إلى جملة «ليتقدم الجنود المسيحيون» هبطت ثلاثة غربان وحدّقَت في القس. غنى بلاي، والغراب الأول يرفرف بجناحيه ثم يقلع، ثم حلّق الثاني والثالث على ارتفاع قريب، ليس أعلى من برج الكنيسة، ثم طوت أجنحتها وانقضّت على القس، الذي أمسك بقلبه وأغمض عينيه وواصل الغناء.

أعطى الرسول ظهره للطريق، وضع ذراعيه خلف ظهره وأخذ يفرك أصابعه. اختفى صوت القس وسط نعيب الغربان، وعندما استدار الرسول تدلّى فكُه حتى إنه أمسك بذقنه لمنع لعابه من الانسيال. كان القس راكعًا على ركبتيه في منتصف طريق هانوڤر وعيناه مغمضتان وذراعاه مفتوحتان، وأمامه، وخلفه، ومن حوله، وعلى طول الطريق حتى درج الكنيسة وأسفل طريق هانوڤر، جثث الغربان. غربان برقاب مكسورة ورؤوس محطمة وأجنحة ممزقة. القس يصلي في دائرة على طريق طاهر حيث تمطر السماء ريشًا أسود ودماء.

***

الأشياء تتغير. بعض الناس يشعرون بالتغيير، وبعضهم يعرفه، لكن لا أحد يراه. انقضى شهر الآن. نحن نعلم أن القس بلاي جلب العار للأرض، وقد حكم الرب بطرده من القرية.

في قداس الأسبوع الماضي تحمّس الجميع من أجل الرب: ثناءً وغناءً وصراخًا وتصفيقًا، وحتى الأولاد الصغار الذين جيء بهم من أجل العماد! لكن بعد ذلك عاد القس القديم. لا أحد منا يعرف كيف،

لأنه عاد أحمق من ذي قبل؛ يمشي في الطريق مثل يوحنا المعمدان نفسه. يقولون إن اللوم يقع على الأرملة جرينفيلد، فقرروا أن يفعلوا شيئًا لها.

أما عن هذا القس الجديد فبعض الناس لا يثقون في أي شخص يبدو جميلًا جدًا هكذا، مثل لوسيفر ابن الصباح. لا أحد يرى أو يعرف ما يفعله الرسول. وها هو الخميس قد انقضى، وعلى الأرملة جرينفيلد أن تنتبه.

في الظهيرة، كانت منهمكة للغاية في غسيل الملابس؛ فلم تشعر بتسللهم نهائيًا. فجأة رأت الخمسة حولها. قال أحدهم شيئًا فسبّته بصوتٍ عالٍ. ثم أمسكت بإحدى قطع الملابس التي تغسلها وحاولت الابتعاد عنهم، لكنهم تقدّموا، أمسك الأخ «جاكس» بها ودفعها على الأرض، ثم داس الأخ «ڤيكستون» على صدرها وهو يسبّها، بينما صوت الجلبة القادمة من داخل المنزل يتنامى إلى مسامعها. ضربوها بعنف وسبّبوا لها كدمات، وقلبوا منزلها رأسًا على عقب، والأخ ڤيكستون يضربها في صدرها. ثم خرج بقيتهم يهزون أكتافهم. انحنى الأخ ڤيكستون ضاحكًا، وقال شيئًا للأرملة، فبصقت في وجهه. مال الأخ ڤيكستون وهو يضحك ويمسح البصقة، واستمر يركلها في بطنها، لتصرخ وتتلوى، فبصق عليها مجددًا وهم يغادرون.

ليس قبل أن يقلب توني كيرتس، الذي لم يكن يستطيع التحدث من قبل لكنه يستطيع التحدث قليلًا الآن، وعاء غسيلها، فغمر الماء الفناءَ الخلفي بالملابس التي تناثرت فوق العشب. جلست الأرملة جرينفيلد على الأرض تبكي على نفسها.

***

أمطرت كثيرًا في مايو وأكتوبر. لم يعرف أحدٌ بهذا حتى جاء سبتمبر الذي استأثر بالسحب المليئة بالمطر لنفسه. سقط المطر على الشر، سقط المطر على الخير، سقط المطر على الكنيسة، حتى في يوم الجمعة العظيمة. زيّنت لوسيندا، ودائرتها المُزهِرة المكونة من عوانس وأرامل وزوجات، مهملات الكنيسة باللون الأحمر. اختار الرسول نسخة لوقا الذي يحكي عن الصلب؛ لأنها الأكثر يونانية، ولم تستطع لوسيندا أن تفهم لماذا يُعتبَر جزء من الكتاب المقدس أفضل من أي جزء آخر، لكنها استنتجت أن الحكمة هي الحكمة.

كانت الساعة السادسة

حلّ الظلام على كل الأرض

حتى توقّفت الساعة التاسعة واحتجبت الشمس وانشقّ حجاب الهيكل إلى قسمين صرخ بصوت عظيم

أبي بين يديك ألتزم بروحي وعندما قال هذا، ألقى روحه الأخيرة.

«والآن سأنتقل إلى...».

من الخلف دوّت صرخة واحدة، من القلائل الذين لا يشاركون في خطب الرسول السارة، تركت مقعدها وركضت إلى الباب الخلفي، حيث صرخت مرة أخرى. كان قسّ الرّم قادمًا على طريق هانوفر، قدماه حافيتان والمطر يغرق قميصه الأبيض وبنطلونه الذي التصق به، يشكل شبكة من الأوردة. انضمّ آخرون إلى الفتاة الصارخة، وواصل قسّ الرّم خطواته المحسوبة، ظهره منحنٍ قليلًا تحت ثقل

الصليب الخشبي الضخم الذي يحمله مثل يسوع بعد أن قطعه من شجرة صغيرة، وحمله على كتفيه وثبّته بذراعيه، ومن بين المطر والدموع بدت عيناه تحترقان.

***

يريد المسيحيون الطيبون معرفة لماذا قد ينضم أي شخص إلى قس الرّم؛ لذلك يسأل الناس الأشخاص الذين يعرفون أشخاصًا يمكنهم أن يسألوا أشخاصًا. فيقول شخص: «لأنه لا يكترث لمعاقبة أحدٍ منّا.. يمكننا أكل الخراء من أجله». يقول إن الرجل رجل، عليه أن يتخذ قراره بنفسه. الرجل ليس متقلقلًا كالمرأة؛ يقول إنهم يرون ولدًا جميلًا فتخفّ عقولهم.

يعتقد الناس أنه من المضحك أن يخرج المزيد من الرجال والنساء تباعًا لسماع قس الرّم الذي لم يعِظ أحدًا منهم، بل يعِظ الطريق والسماء والرب. تغادر امرأة أخرى، تقول إنه عندما يتحدث إليها فكأنما يتحدث من خلالها. يقول الناس إنه من المستحيل أن يعيد الرسول هيكتور بلاي إلى الكنيسة مرة أخرى مهما ارتدى من بدلات بيضاء. لكن الذين خرجوا إليه يقولون إنه لا يريد العودة إلى الكنيسة. ونحن في حيرة من أمرنا. أين يجد الناس الرب إن لم يكن لديهم كنيسة؟

جيبيه تتغير، وقد حان الوقت ليختار الجميع جانبًا. هذا المسِنّ، الذي طالما رآه الناس غبيًا من قبل، أصبح منطقيًا الآن.

وسرعان ما انضمّ إليه اثنان آخران. الأشخاص الذين يعرفون أشخاصًا يعرفون أشخاصًا جلبوا أبناء عمومتهم. يقولون إنهم

خرجوا في الشمس لأن الكنيسة لم تعُد على ما يرام، لكن البقية يعتقدون أنها على ما يرام، وهذا يعني أنهم على حق.

انظروا، يقول الرسول للأطفال في مدرسة الأحد إنه إذا حدث أي شيء لهم، ينبغي عليهم أن يخبروا أباهم الروحي أولًا، لكن مَن هوا! هو كذلك يخبر الناس بأشياء أخرى، فيقول أولًا إن المسيح كان يربح المال، وأنه إذا جاء الشيطان ليسرق ويقتل ويدمر، يجب أن نسرقه ونقتله وندمره. لكن كيف لا ننطق اسم يسوع في الكنيسة. كيف نستكشف بعمق ما حدث بالفعل بين داود ويحيى.

بعض الأشخاص الذين يعرفون أشخاصًا يعرفون أحد الرجال، والذين ذهبوا إلى الخارج يقولون إن الرجل غادر حين سمع ما يقال، لم تعجبه الأمور الغريبة المنحرفة التي ذكرها الرسول، وكانت القشة الأخيرة عندما وصل الرسول إلى أونان، وذكر أن خطيئته لم تكن الاستمناء، بل إهدار المنيّ، وأن عليه أن يشعر بالخزي إذا استمنى. لم يعجب ذلك الرجل إطلاقًا؛ لذلك غادر، لأنه لا يفهم لماذا قد يستمني الرجل ويصاب بالعمى وهو يرى في كل مكان من حوله فروج فتيات جميلات. يقول إن الرسول يبالغ كثيرًا، والناس يأخذون ما يقوله دون تذمُّر. سيغتسل بدم الحمل الحقيقي، وقد دعا كثيرين، لكنهم قلّة مختارة.

متحمسًا يخبر الرسول الكنيسة إنه لشفاء المرضى علينا إبادة المرض، لا أحد يعرف ما تعنيه الإبادة، لكننا على يقين من أنها تعني الجحيم واللعنة. يقول أشياء جديدة وأمورًا قديمة بسرعة كبيرة بالنسبة لبعض الناس، فلا يعرفون ما إذا كان يتحدث إلى الرب أم

إلى الشيطان، فيخرجون أيضًا.

يحذِّر الرسول من هذا الشيء الذي أصاب كينجستون، مثل الطاعون الذي أصاب مصر في سِفر الخروج. البعض يسميه التليفزيون والبعض يسمِّيه التي في، وهو صندوق يُظهِر الصورة، حجمه ليس أكبر من صندوق الموز، لكنه الشرا يقول إنه من الصواب تسمية الشيء بالتي في لأنه شرٌّ مُطلَق، ورذيلة رهيبة، وقمامة وعنف، وأنه لا ينبغي لأحد في جيبيه أن يشتري تليفزيونًا لأنه سرعان ما يصبح عتيقًا ويصير عليهم اقتناء آخر حديث. وأن الراديو طريق مباشر إلى الشيطان، وأنه قريبًا، قريبًا جدًا، ستلتهم نار الرب المقدسة دار السينما. وأنه ينبغي أن يثّكئ شعب الرب على شعب الرب، وعلى جيبيه أن تراقب مَن تسمح له بالدخول من الآن فصاعدًا؛ لأن الشيطان يتخذ شكلاً بشريًا، والشياطين موجودة بالفعل بيننا.

لم يستطع بعض الناس التعامل مع هذا ولا القبول به؛ لذلك خرجوا لسماع القس يخبرهم الأخبار السارة بأن الرب مسحه ليعد الفقراء. الناس الذين يعرفون الناس الذين يسألون الناس سمعوا من الناس أن بلاي يخبر رعيته الصغيرة بما تحتاج إلى سماعه، حتى لو لم يكن هذا ما يريدون. يقولون إنه إذا استطاع هيكتور بلاي أن يتحمل شمس الجحيم هذه والصمود للتحدث عن الصواب، فإنهم كذلك يستطيعون.

***

لا يتذكر أحد ما حدث لسينما ماچيستيك. منذ البداية، كانت

القصة تنتظر نهاية غير مكتملة، ولغزًا لم تُفَكّ رموزه. وبعد أن تناقشوا حول مَن ولماذا، ظلت الإجابات مؤقتة والحقيقة بعيدة. هذا معروف، مع أنه لم يتكرر كثيرًا. قال الرسول يورك إن نار الرب المقدسة ستأكل السينما وتقضي عليها، على الرغم من عدم اقتناع الكثيرين بمصدر النار الإلهي. ماچيستيك على بُعد عدة أميال، وقد أثار إحراق المبنى الذي تحول إلى رماد شكوكًا، وأثار إحراق طفلين مجهولين من قرية مجاورة وتحويلهما إلى رماد المزيد من الشكوك. قال الرسول: «كان الرب رحيمًا لكنه أيضًا منتقم». وهذه عدالة سريعة ومخيفة لأولئك الذين عصوه، وجعلوا شعبه يخطئ.

في ذلك الأحد، تلا الرسول يورك ثمانية ويلات كان آخرها أولها «ويل للعالم من الأشياء التي تجعل الناسُ يخطئون! يجب أن تحدث مثل هذه الأشياء، لكن ويل للرجل الذي يفعلها! لا تكوني حمقاء أيتها الكنيسة، فأنت تعرفين مَن يقرأ هذا الكتاب المقدس.. إنه يعذبنا حتى اليوم.. يبحث الرب عن أناس يقفون بإيمان.. يبحث الرب عن أشخاص ينفذون وصاياه مهما كانت رهيبة ووحشية وعنيفة.. مَن على استعداد ليكون عنيفًا من أجل الرب؟ إن أعثَرَتكَ يدك اقطعها وألقِها.. إذا أعثَرَتْكَ عينك افقأها.. أيتها الكنيسة، لدينا الآن مشكلة.. مشكلة برأسين، رأس منهما يجعلنا نخطئ؛ لقد استدرج بالفعل ثلاثة منكم للخروج إلى الطريق الواسع الذي يؤدي إلى اللعنة.. أحبائي، الجسد برأسين ليس مضاعَف الذكاء، بل وحش منحرف.. أما الرأس الآخر فليس رأسًا، بل دمل! والرب يقول اقطعوه! اقطعوه! اقطعوه!

هيا أيتها الكنيسة، مَن مستعدٌ ليكون عنيفًا من أجل الرب؟».

***

الأحد بعد عيد الفصح، الرسول يتعامل معنا بقسوة. لا نشعر بالعدل. بذلنا جهدًا مضنيًا في البحث عن ترنيمة ليس فيها ذِكر يسوع. الآن يقول الرسول إننا لا نفقه شيئًا في أمور هذا العالم؛ لأن الشيطان في إمكانه فعل كل شيء. يبدأ البعض في الغمغمة، لكن الرسول لا يقول شيئًا لم يخرج من فم الرب أولًا. لن أكون في الطريق عندما يعود الرب ليُدين الأحياء والأموات. بالنسبة لفتاة صغيرة، يقول الكتاب المقدس لا تُغضِب الرب لأنه سيكشفنا ويعاقبنا. الكثير من الفتيات في الجحيم الآن، يشعرن بالنار تمتدُّ حتى فروجهن؛ لأنهن أغضبن الرب. هدم الرب سور أريحا وقتل كل رضيع في مصر. جعل الرب النهر يُنتِن بالدم ، وأرسل شعبه إلى بابل في معاناة شديدة. قتل الرب كل أبناء يعقوب وألقى بيوسف في السجن. هل ستحرق النار المقدسة الستة الذين يستمعون الآن إلى القس بلاي في الخارج، مثلما أحرق سينما ماچيستيك؟ فقط شاهدوا وسترون.

يعتقد هيكتور بلاي أنه يلهب الشارع بحماسته من أجل الرب، الشمس ساخنة وشديدة الحرارة. لا نعرف ما الذي سيحدث للكنيسة إذا تحمّس شخص آخر. لكن الرسول يتعامل معنا بقسوة، ويطرح علينا سؤالًا لا يمكن لأحد الإجابة عليه، يسأل عمّا إذا كنا مستعدين حقًا لاتباع الرب، وينتظر الإجابات لأن كل شعب چامايكا لديه أفواه. ويسألنا مرة أخرى إذا كنا حقًا، حقًا، حقًا مستعدين لاتباع الرب، لأن المسيحية ليست دينًا للعب. يقول الرب لاتُباع الرب علينا أن نتحرك مع الرب، ولا يمكنك أن تتحرك مع الرب إذا بقيتَ في مكانك، لهذا لا

يستطيع الرب أن يبارك جيبيه، لهذا حلّ الوباء بالقرية، وازدهر الشر. الشيطان يعلن استحقاقه لجيبيه، لكن علينا أن نقاوم وندافع عن الرب. ثم يصبح أكثر قسوة، فيخطب فينا كأنه يسوط مؤخراتنا.

«مَن له أذنان فليسمع! إذا جاءني أحد ولم يكره أباه وأمه، وزوجته وأطفاله، وإخوته وأخواته، نعم، وحتى حياته، لا يمكنه أن يكون تلميذي. وبنفس الطريقة، فإن أيًّا منكم لا يتخلى عن كل ما لديه لا يمكن أن يكون تلميذي.. مَن له أذنان، فليسمع».

يقول إن هذه خطبة خاصة بشعب جيبيه. يمكن توجيهها لشخص واحد أو للكنيسة بأكملها. علينا التخلص ممّا يعوقنا كي نتمكن من التحليق من أجل الرب، علينا التخلص من الخطايا؛ من التنانير التي تصبح أقصر وأقصر، من المغنين أمثال ليتل ريتشارد وإيرني فورد وإلفيس والجانجا وحتى بيس إن ڤالي، من الصديق الذي لا يرتاد الكنيسة، من السُكْر، والفسق، والتبغ.

علينا التخلي عن كل شيء، حتى الزوج عليه أن يتخلى عن زوجته، والأم عن طفلها، لأنهم أكثر الأشياء التي نحوّلها إلى مثال. أي شيء لا علاقة له بالرب لا علاقة له بنا، وعلينا أن ننفر منه، علينا أن نكره كلّ مَن لا يعبد الرب بالطريقة التي نعبده بها، بالروح والحق كل صباح ومساء. علينا أن نكره كلّ مَن لا يرى أنه عندما أتى الرب إلى الأرض كان رجلًا يتسم بالصلابة والحماسة ويشعر بعبء التجربة مثلنا تمامًا. علينا أن نكره كل ما لا علاقة له بالرب. علينا أن نكره كل مَن لا يرتاد الكنيسة مثلما نكره السُمّ، هذا ما يذكره الرب في كل موضع من الكتاب المقدس. ليس مهمًا أن يكون لنا

أم. يقول الرسول إن الرب يأمر جيبيه أن تنأى بنفسها عن الخطيئة التي تتورط فيها بسهولة. وأننا نحتاج أن نرمي بكل شيء ونحمل الصليب. وأن نكره الأب والأم والقس الذي يسمّي نفسه أبًا. القس الواقف في الشارع والآن ساحبًا قلّةً ثمينة من الناس إلى الجحيم مباشرة.

«نحن بحاجة إلى التوقف عن كل هذا أيتها الكنيسة؛ نحن بحاجة إلى التوقف عن كل هذا، التوقف، التوقف، ليس ممكنا أن نعبد الرب والشيطان معًا». بعدما فعل الرسول ذلك، أردنا بشدة قتل الرجل الخاطئ والمرأة الخاطئة، إلى درجة أننا اضطررنا إلى العَدّ إلى عشرة مرة تلو أخرى. الرسول يتعامل معنا بقسوة، لكن الحقيقة قاسية جدًا. كما أنه لا أحد يعتقد بعد كل هذا الوقت أن الشيطان سجّل نقطة، وأن القس بلاي تحمّس فجأة لِيَسو... للرب.

الرجل الذي يشرب من اليوم الأول لمجيئه، تخيّل قسًا يذهب إلى حانة الزّم مع السكارى والعاهرات. الرجل الذي استخدم الشيطان ليلاماي بيركنز لتحويله إلى أحمق، ثم تُغرق نفسها، فيشعر الجميع بالعار. الرجل الذي كاد يغرق السيدة سميثفيلد حين ذهب لتعميد ابنتها. كل الأشياء التي اعتقدنا أنها مضحكة حينها، لكن هل جعل هذا اللقيط الزّبّ يغادر جيبيه؟ لقد طرده الرسول يورك مثلما طرد الزّبّ الشّرّ من الهيكل. الرسول يتعامل معنا بقسوة، لكنه أفضل من القس الذي لا يتعامل معنا على الإطلاق، والآن يخرج إلى الشارع يَعِظُ بالنار المقدسة، لكنك لست بحاجة إلى الكثير للقيام بعمل الشيطان. سوف يعتني الشيطان بقس الزّم؛ لذلك يجب أن نوقفه.

تخلّص الناس بالفعل من التليفزيونات، وقاطعوا الراديو. قاطعوا كل مَن لم يغتسل بدم الحمل، حان الوقت لتكون قويًا ومستقيمًا، حان وقت التضحية. ونحن نعرف من سيضحّي أوّلًا. لم يخبرنا الرسول يورك بأشياء صعبة؛ لهذا نصدق ما يقوله.

كل ما نعرفه هو أن الشمّاس «بينكني» الذي كان يرى بعين واحدة قبل أن يأتي الرسول إلى القرية، أصبح يرى باثنتين الآن. لم يأتِ قس الرّم بمعجزة واحدة لجيبيه. لقد جلب الشيطان ليجلس معنا كما لو كنا أصدقاء؛ لهذا نحن سعداء بما حدث له، وقد أعجبنا كيف استخدم الرب الرسول للتعامل مع قضية القس بلاي. اسمع، عندما يستخدم الرب رجله، يستخدم الرب رجله!

الرسول في الكنيسة والقس في الخارج. يمدُّ الرسول يده وينطق بلغة ما، لكنها ليست لغة أبا بابا، بل لغة لم نسمعها من قبل.

في الخارج، صرخ أحدهم، فركض الناس إلى النافذة ليروا ستة أشخاص يتنشرون حوله مثل النمل. يقال إنه كان يتحدث عن يونان ونينوى ثم بدأ فجأة بالصياح: يا يسوع! يا يسوع، وبدأ يهز يديه بجنون. وأن عينيه ابيضّتا، وأخذ يلفُّ في حركة دائرية كما لو كُفّ بصره، ثم خذلته ركبتاه فسقط على الطريق بقوة. كنا في أعلى الكنيسة وسمعنا رأسه يرتطم بالطريق، ثم بدأ يرتجف بقوة، وخرجت من فمه رغوة تحوّلَت إلى اللون الأحمر.

صمت الرسول وبدأت الجوقة في الغناء «سنجلب الدرع ونعود مبتهجين»، والقس لا يزال على الأرض لكنه توقّف عن الارتجاف، يرتدي بدلة بيضاء قذرة، وعيناه لا تزالان بيضاوين. لم نتمكن من

الاستمرار في المشاهدة، شعرنا بالسعادة، لكننا شعرنا بالحزن أيضًا، وهذا شعور غريب. لقد ارتكبنا إثمًا أيها الرب؛ شاهدنا ما حدث لشخص يصفونه بالحمق، لكننا عدنا مبتهجين حاملين الدرع، بعد ذلك بقليل، قالت السيدة «فراكاس» إنها نظرت إلى الوراء ورأت بزاوية عينها الأرملة جرينفيلد وهي تمسك بهيكتور بلاي من يده، وتجرُّه بعيدًا.

الجزء الأول

عُثر عليه بعد الأحد بثلاثة أيام، مغمورًا في طين النهر الأسود على ظهره، وقد يبّس الموت جسده، ساقاه منفرجتان كأنه مستعدٌ لممارسة الجنس. يبدو أنه غرق لكن مشهد العِجل الغريق ليس جديدًا على جيبيه، أو على السيدة فراكاس التي أُغمي عليها لرؤيته. لا توجد علامة تدل على سبب موته باستثناء أمر واحد: التواء رأسه. وعلى الرغم من وجود الطين فوقها، فلا يوجد شيء على رقبته، لا قَطع، ولا ندبة، ولا غرزة. التوى عنقه إلى الخلف كأنه وُلِد على هذا النحو. بالنسبة للسيدة فراكاس، التي رأته أولًا، وكلارنس، الذي رآه لاحقًا، كانت الإجابة، فورية وواضحة، هذا من عمل الشيطان!

***

بالإضافة إلى التّبضُّع، كان لدى الأرملة جرينفيلد مَهمّة بسيطة. لقد حنثت بقسمها، وسمحت لقس الرّم بالعودة إلى سرير زوجها. بدا هيكتور بلاي قريبًا جدًا من الموت؛ لهذا لديها أمور لتناقشها مع الرب، لكن ليس الآن؛ ففي غضون دقائق قليلة ستتورط في جدال أكثر حدّة مع شخص آخر.

عند البقّال نظر إليها الناس بطريقة مختلفة، برؤوس مائلة ونظرات منقضّة. عندما ذهب الرجل للعيش معها أصبحت مخلوقًا جنسيًا. حصلت الأرملة جرينفيلد على رجل أخيرًا قبل أن يجفّ فرجها. لكن هذا ليس إنسانًا، بل شيطان؛ قالها الرسول كأنها نبوءة، لكن

الأرملة تحدّت الجميع، أشعلت الضوء في منزلها فتدافع الجميع مثل الصراصير. حتى لوسيندا لم تستطع إلقاء الحجر الأول، ميّزتها مع أنها حاولت جاهدة إخفاء وجهها وراء وجه آخر. لقد حاولت سرقة زوج الأرملة. تذكّرَت الأرملة ما فعلته لوسيندا قبل أحد عشر عامًا، وهي تقف على الجانب الآخر من الطريق في حفل زفافها، بحجابها الأسود وفستانها الجنائزي، مثل الغربان، وتجسّسَت على الزوجين جرينفيلد عندما كانا يمارسان ما يمارسه الأزواج. لكن العداء أعمق من ذلك؛ قبل الزواج وقبل البلوغ.

في المدرسة الإعدادية، لقّبت الفتيات لوسيندا بالشاحبة، ووصفها الأولاد بالقبيحة، لكنها تخيّلت نفسها ملكة جمال، كانت الجلسات في المبنى الخارجي مساحة لوسيندا للتوازن؛ فهي راحتها الوحيدة من جلْدٍ تعرّضَت له مؤخرًا أو ستتعرّض له لاحقًا.

ثبّتَت تاجًا مصنوعًا من الورق المقوّى والقصدير على رأسها وأمسكت صولجانًا مصنوعًا من شجيرة كركديه ووضعت ساقًا فوق ساق مثل الملكة. ذاك اليوم جلست لوسيندا على العرش، ساقاها متقاطعتان معقودتان بلباسها الداخلي، كأنها أتمت انتصارها الكبير، وأصبح الجمهور الذي تخيّلته حقيقيًا حتى فُتح باب المرحاض، لتجد الأرملة جرينفيلد، التي كان اسمها آنذاك ماري بالمر، أمامها، تضحك بشدة لدرجة أن الدموع انهمرت على وجهها، بالإضافة إلى كلارنس، وبونتين، وسرعان ما جاء الشماس بينكني، وڤيكستون ديكسون، الذي صار لاحقًا الأخ ڤيكستون، وإلسامير التي توفيت لاحقًا. أمسكت لوسيندا بصولجانها وهي ترتجف وشدّت ساقيها، ثم نهضت، بطريقة ملكية، لكن لباسها الداخلي الذي ربط ساقيها معًا

خانها فتعثّرَت، وسقطت على وجهها في الوحل. سقطت ماري بالمر وأصدقاؤها على العشب أيضًا لكن من الضحك، ضحكوا حتى كادوا ينفجرون، لقّبوها بالملكة لوسيندا، وانطلقت ماري تضحك ضحكًا هيستيريًا.

فعلت لوسيندا ما كانت تفعله دائمًا؛ تمالَكَت نفسها ونهضت، ثم خطت إلى الداخل، ومزّقَت صفحة من دفتر التمارين الخاص بها، وكتبت لعنة على كل شخص ظلمها، تمامًا مثلما رأت والدتها تفعل. كانت كراهيتها نارًا لا يمكن أن يطفئها أحد حتى الرب، نارًا أضرمتها سعادتهم وسخريتهم من مأساتها، فعقدت صفقة مع الشيطان.

لم تتذكر الأرملة الماضي منذ سنوات، ووجدت أنه من الغريب أن تتذكره اليوم.

«مرحبًا؟ مرحبًا؟ عذرًا من فضلك؟ مرحبًا! هلّا رددت عليّ».

«سيدتي أنا مشغول بزبون؛ لذا توقّفي عن الخوار في متجري».

«زبون؟ لكنني لا أرى أي زبون! أنا الزبونة الوحيدة التي ترغب في شراء شيء هنا».

«عفوًا يا سيدتي».

«نعم، اعفُ أنتَ عن نفسك، وغذ بنصف رطل من السكر ورطلين من الدقيق».

«ليس لديّ شيء».

«ليس لديك دقيق ولا سكر؟».

«ليس لديّ أي منهما.. اذهبي وابحثي في مكان آخر».

«ليس لديكَ أي منهما؟ فعلًا؟ ماذا في كيس الدقيق بجوار قدمك يا خرية الكلب؟».

«ليس لدينا...».

«اسمع، لا تستغبِ امرأةً، كيس الدقيق بجوار قدمك وتخبرني أنه ليس لديك ما تبيعه».

اقترب صاحب البقالة، وهو رجل نصف صيني بدينٌ في الأربعينيات، بنظارات سميكة وشعر ناعم، حتى صار وجهه قريبًا للغاية من وجهها، ثم قال: «لا أيتها العاهرة السوداء الجافة... ليس لدينا ما نبيعه لك».

تراجَعَت الأرملة، وكل العيون عليها. تشعر بكل عين، كأن التحديق صار شيئًا ماديًا، وحتى بعد أن أمسكت بحقيبتها وغادرت المحل ظلّت تشعر بعيونهم عليها، تقطع جلدها ولحمها وتجعل عظامها ترتجف.

«في معيّة الرب يا سيدتي».

عند مدخل الجسر انتظروا عودتها. مع كل خطوة لقدميها، وعلى مدى سبعة أميال من أقرب بقالة نما غضبها مجددًا، وتسارَعَت دقات قلبها. لكن عند أول الجسر ذبل الغضب وعاد الخوف. كان الأولاد الوقحين ينتظرونها، صحيح أنهم الآن أولاد وقحون من أجل المسيح، لكن هذا لم يجعلهم أقلّ وقاحة. على الجسر مرّت بهم في صمت، أمسكت بحقائبها واستمرت سائرة مستقيمة الرأس وعيناها

شاخصتان. وعلى مسافة معقولة استدارت لتجدهم وقد تخطّوا الجسر، ابتلعت لعابها عندما أدركت أنهم يتبعونها. قائدهم طويل وبدين، يمشي متمايلًا من جانب إلى آخر، فأسرعت الأرملة خطواتها، وهم يتبعونها. في إمكانهم قتلها بجهد ضئيل، لكنهم يلعبون معها أولًا لعبة أربعة قطط مع فأرة واحدة. سقطت منها عبوة وارتطمت بالرصيف.

تبع ذلك ارتطام عدة أحجار بحذائها. كانوا يركلون القمامة والخراء الجاف والعلب. وهي تسرع في سيرها حتى كادت تتعثر. بدت خطواتهم وكأنها مُسيّرة. ركضت الأرملة، وهي تسبُّ حِملها والرجل الذي كان السبب في كل ذلك. تمسّكَت بحقائبها جيدًا، وركضت تقريبًا حتى وصلت إلى بابها. وعندما حاولت فتح المزلاج كانوا قد اختفوا.

***

لن يغادر لوسيفر جيبيه دون قتال. حتى الآن يتجمّع عبيده في الظلمة. يتضاعفون، يتنازعون، مستعدون للاحتفال بانتصار أمير الظلام، لكن لا!

قال الرسول لدائرةٍ اجتمعت حول العجل المتدحرج الذي جزّه الخمسة إلى جانب الطريق: «أيها الشيطان، سنرسل هذا الرجس مباشرة إلى الجحيم الذي جاء منه».

رشّ الخمسة العجل بالكيروسين وأشعل الرسول النيران، ثم حثّ الجوقة على غناء «ما أعظم فنّكَ». نشر الرسول ذراعيه وصلّى بلغة ليست بلغة بابا، وعند الغسق أوقدت النيران التي كانت أعظم من المتوقع، ملأت رائحة الكيروسين ودهن البقر القرية. تبعت لوسيندا

الرسول عائدة إلى مكتب الكنيسة، لكنها وجدت الباب مغلقًا في وجهها، وكذلك ثقب المفتاح، وعند مغادرتها رأت أحد كتبه الحمراء عند النافذة.

«أيها الرسول؟».

فاحت رائحة الغبار القديم من صفحات الكتاب، كتمت لوسيندا سعالًا قصيرًا. وفي الكتاب بخطّ يده خطوط وملاحظات ومنحنيات، وخطوط خرجت أحيانًا من الصفحة، لم تستطع تبيُّن معظمها، كتب بأحرف كبيرة وعريضة «رحلة سرية».

... و... نفس... سحر... مفتاح سولانوم... إلى رحلة سرية... لقد وجدت أن في جميع أنحاء العالم... يجب أن تكون... أو أو شاي من سولان، معروف أيضًا باسم نبتة كاللالو.

«يا يسوع المسيح!». انزلق الكتاب من يديها، فانحنت لالتقاطه، لكن يده سبقتها، ولثوانٍ ظلّ يحدّق إليها بجبين معقود، وشفتين مزمومتين بقوة لدرجة أنهما اختفتا في لحيته. «لوسيندا؛ أترين شيئًا مكتوبًا من أجلك هنا؟ هل...؟» رفع وجهها ونظر إليها، فتحاشت النظر إليه. «ألا تستطيعين الاهتمام بشؤونك الخاصة».

«نعم نعم.. هذا صحيح.. نعم أيها الرسول».

«جيد.. يوجد شيء آخر».

«أيها الرسول؟ أيها الرسول؟».

جفل الرسول وهو يصرُّ بأسنانه المشدودة ويغلق عينيه بقوة. أمسك رأسه بكلتا يديه وتمايل يسارًا ويمينًا.

«أيها الرسول؟».

دار يورك بعيدًا عنها، مترنّحًا متأرجحًا، وهو لا يزال ممسكًا رأسه بكلتا يديه، يئنُّ بصوت يعلو ويعلو. التوت ساقاه وداس بكعبيه بقوة على الأرض. مدّ يده اليمنى كما لو أنه ممسك بشيء غير مرئي، واندفع نحو مكتب لوسيندا ثم تأوّه وصاح، وصرّ بأسنانه، وترنّح نحو المكتب وضرب حافته بركبته.

«اللعنة على الجحيم! أيها الرسول؟».

«اخرجي».

«أيها الرسول، هل أنت مريض؟».

«اخرجي!».

غادرت تاركة حقيبة يدها، بينما ألقى بنفسه على الكرسي، ودفن رأسه على الطاولة. لو بقيت لوسيندا خلف الباب المغلق، لسمعت ما بدا وكأنه نحيبه.

وفي الخارج، كان الليل يحترق بلحم العجل.

***

أحيانًا، كان القس بلاي يقف فوق السرير ويظل يصرخ، ثم يعود إلى النوم. وأحيانًا كأنه ينزلق إلى ما هو أبعد من النوم يتنفس تنفُّسًا خشنًا يدلُّ فقط على أنه لا يزال حيًا. لم تكن الأرملة تنام طويلًا، بل تقضي ساعات في مراقبة تنفُّسه.

في الثانية صباحًا، تعثّرَت في كرسيٍّ بذراعين بجوار سريره،

فتطاير وعاء الحساء البارد من يديها. ظلّ بلاي يصرخ لدقائق، عيناه متسعتان، ولا تريان شيئًا. استلبه شيء ما، كأن الغرفة مليئة بالدماء، وظنت الأرملة أنه الشيطان. أسند قشّ الزّم نفسه إلى ظهر السرير بيدٍ واحدة، وغطى وجهه باليد الأخرى، ثم توقّف عن الصراخ منهارًا. لقد كرهته؛ فروحها ترتفع وتنهار معه، وبسببه تعطّل قلبها. ومع أن القلب والعقل عقَدَا اتفاقًا، ها هو القلب يخون الآن؛ خدعها لتفعل أشياء مثل إضافة المزيد من السكر إلى الليمونادا، والبحث عن الفساتين القديمة الحمراء والصفراء والزرقاء، فتمنّت أن تثقب صدرها وتخرج هذا الشيء اللعين. اعتادت الأرملة الموت، أِلِفَت روتين الموت ذي اللون الرّمادي الطحلبي، بعد أن أخذ الرب كل رجل أذاب تجمُّد قلبها. تركته ودخلت غرفة المعيشة، شقت طريقها في الظلام، وعبر النافذة رأت سقف منزل السيد جارفي المقوس يتحرك. بعد برهة رأتها ترفرف بأجنحتها وتطير بأعداد مهولة حتى غطت الأسقف والسياج، والبوابة.

الغربان!

***

عند سحرة أوبيه يوزع الساحر أو الساحرة الزيوت والتعاويذ، ويجمع الأسرار. منذ أن حصل كلارنس على الزيت، كان على السيدة چونسون أن تكتم صرخات بلوغها للنشوة بوسادة. كان الزيت كذلك مسؤولًا عن حمل واحدة على الأقل من أخوات بوردو، على الرغم من عدم وجود ملقِّح ذكر معروف. وفي نوبة مفاجئة من الجنون الريفي ألقت المسكينة الصغيرة إلسامیرا بنفسها من فوق جرف في

ميناء أنطونيو، وبينما كان جسدها يرتطم بالصخور، تيقّنت فتاة غيورة أن الزيت يؤتي ثماره.

ساحر أوبيه هو الجاني المشتبه به، لكنّ أحدًا لم يرَ هذه الطريقة تنجح من قبل بأي شكل من الأشكال، *لأنهم جميعًا أناس طيبون يخافون الرب. من أنت لتسأل هذا السؤال يا خرية!*

لم يأتِ الرسول على ذِكر العِجل أو السّحرة، بل تنامت الشائعات بشكل عشوائي، مثل فقاعات الشراب. في البقالة، همس الناس «العجل المتدحرج»، لكن الأشياء الغامضة عديمة التفسير لم تكن شيئًا جديدًا على جبيبه. قلّة فقط تذكّروا، وهمسوا أن وصول الرسول نفسه حدث دون تفسير أيضًا. كل هذه الإثارة تفوق استيعاب لوسيندا، فترجمتها جنسيًا، وجلَدَت نفسها قبل النوم. في الصباح، جرفت الرياح رماد العجل، تاركة دائرة شبه كاملة سوداء محروقة.

قفز قس الزّم من سريره، وكانت عيناه بيضاوين جهنميتين، وصرخ مجددًا. وبدا للأرملة أنه يقول نفس الأشياء مرارًا وتكرارًا، لكنها ليست كلمات، كأنها غرغرة، أو أسماء تشرذمت إلى أشلاء قبل بصقها.

«لوكاس! لوكاس! لوكاس!».

العجل المتدحرج

الجزء الثاني

اهبِطَا طريق إيمانويل أيها الصبي والفتاة

لتَكسِرَا الأحجار الصخرية اهبِطَا طريق إيمانويل

أيها الصبي والفتاة

لتكسرا الأحجار الصخرية واحدًا تلو الآخر أيها الصبي والفتاة

اكسراها اثنين اثنين أيها الصبي والفتاة

لا تبكيا أصابعكما المحطمة أيها الصبي والفتاة

وتذكّرا أنها مسرحية نؤديها

جاءت الشاحنة في وقت متأخر. كانت دائمًا ما تأتي في وقت متأخر. وتغادر في وقتٍ متأخّر.

لالتقاط الأحجار المحطمة. في وقتٍ متأخّر للذهاب من حيث أتت.

عادة ما يحصل عدد كافٍ منّا على عمل يومي بسيط يساعد في المنزل.

فعلت الجدة ذلك، والأم فعلت ذلك. والبنت أيضًا.

يضعون الأحجار الجيرية الضخمة على جانب الطريق فنلتقط المطارق، ونبدأ في التكسير.

لا تبكيا أصابعكما المحطّمة.. تذكّرا أنها مسرحية نؤديها.

لا نعرف فيم يستخدمون الصخور. يقول البعض من أجل الطريق. يقول البعض من أجل منزل المرأة البيضاء الغنية.

لا أحد يسأل أبدًا، لأن الناس تأخذ الأمور كما هي.

في صباح اليوم التالي، تأتي الشاحنة وتلتقط ما حطّمناه.

لكننا تركنا وراءنا الكثير، ما يقرب من تلّين من الحجارة على جانبي طريق بريللو بالقرب من الجسر. ذهبت الشاحنة، لكن الشيطان جاء للتو.

***

نعم سيدي!

انفجرت الكلمة مثل عشبة جافة من فم السيدة «چونسون» وهي تصنع كعكة في الفرن! ماذا سنفعل فيما سمعناه؟

نعم بابا! تنامت الشائعة وقفزت من فناء منزلها، وأسرعت الخطى في الشارع وتوقّفت عند منزل السيدة فراكاس، ثم منزل السيدة سميثفيلد التي أضافت تفصيلتين أخريين، ثم قفزت وقفزت من ساحة إلى أخرى، ثم تسارَعَت إلى متجر البقالة حيث ارتدّت مرارًا مثل الكرة الأمريكية، وكما نعلم ففي كل مرة ترتد الشائعة يضاف إليها تفصيلة جديدة.

حسن، الكل يعرف أن السيد چونسون فقد طبيعته منذ عودته من الحرب، ولم يعُد قادرًا على شيء سوى التبول. وطبعًا طبعًا، يعلم الجميع أنها إذا كانت ستنجب، فمن الأفضل للطفل أن يشبه أمه كثيرًا، أو يستعر الجحيم، فإذا أشبه الطفل الرجل الذي ضاجعها،

فستحلُّ الكارثة بكلارنس. عندما يبدأ الأشخاص الذين يعرفون جيدًا القول إن الأمر كذلك حقًّا، ترتدُّ الأخبار مرة أخرى، فيقولون إن الأمر ليس كذلك، وإنها مجرد مريضة، نعم هي مريضة. ثم تسري الأخبار مرة أخرى بأنها ستجهض، وعندما ينقطع الدم ويهاجمها الغثيان يقولون كفى يا امرأة، تناولي كومة من الباوباو الأخضر لمنع الطفل من التّكوُّن، وهذا ليس جديدًا، فالطفل الجهيض مثلما يقول المجنون أمر يصيب الكثير من النساء.

ذات مرة سَرَت شائعة تقول إن الطفل الجهيض يطارد السيدة سميثفيلد كثيرًا، لدرجة أنها أقامت جنازة سرية في الجزء الخلفي من منزلها، وغسلت حلمتيها بحليب الماعز.

علم الجميع عندما بدأ والد ليلاماي المسكينة يضاجعها، وأكلت الباوباو الأخضر، قالت السيدة فراكاس إنها رأت ذلك وسمعته. كانت السيدة فراكاس تسمع وترى الكثير لدرجة أنها لا تعرف ما إذا كانت ترى بأنفها أو تسمع بعينها. وقالت إن هذا حدث فقط عندما أصدر الصندوق الموجود أسفل سرير ليلاماي رائحة كريهة انتشرت في جميع أنحاء المنزل، حتى أخذ الكلب في النوم خارج نافذتها، حين تسلَّلَت من المنزل ودفنت الطفل. لا شيء جديد.

لكن الأمور خرجت عن السيطرة. احكِ لنا.

يقول السيد چونسون للناس إنه منذ الحرب، عندما كان ينام في الخندق تحت وابل من الرصاص والقنابل والأشياء، لا يمكن للضوضاء أن توقظه. الآن السيد چونسون رجل مُسنٌّ؛ أكبر من بول روبسون الذي يغني أغنية «رجل النهر المُسنّ» في فيلم «قارب

الاستعراض» المعروض في سينما ماچيستيك. وبمجرد أن ينام قد يكون ميتًا أيضًا، لكنك كل ليلة ستسمع أنينًا قادمًا من غرفته كما لو كانت قطة تنتحب.

ينتحب؟ ربما أكثر من ذلك، يئنّ، يزأر، يشخر، وتئنّ سوست السرير تحت وطأته، ثم يهدأ، ثم يعود مجددًا. لا بُدّ أنك تعرف ذلك، وتبلّلَت أذناك. بالنسبة لرجل ينام ميتًا مثله، كان السيد چونسون يضطلع بمجموعة من الأنشطة الليلية في غرفة نومه. نعم، يمارس السيد چونسون أنشطة ليلية. لكن أهلًا، فالأشياء التي يجب أن تختفي مع الليل تجتاح الناس في النهار. هيه هاي!

والآن أنت تعلم أن السبت يوم سيئ بالنسبة للسيد چونسون، لكن ليلة الجمعة أسوأ.

يقول الناس إنها كانت ليلة جمعة، عندما كان يسير في نورماندي حين قُتل كل مَن في كتيبته باستثنائه. حتى الآن في كل ليلة الجمعة وصولًا إلى صباح السبت، يعيش ما سبق وحدث. قبل شهرين، رأوه ينفجر من خلال باب منزله، ويسقط على الأرض متدحرجًا وهو يصرخ باستمرار: «الشركة الزرقاء، اخرجوا! الشركة الزرقاء، اخرجوا». عندما عثروا عليه أخيرًا، وجدوه وقد حفر حفرة كبيرة خلف منزل شخصٍ ما، وانكمش فيها مغطيًا أذنيه، منذ ذلك الحين، وهو هناك عند الحرب العالمية، لا أحد على يقين مما حدث بالضبط، لكن إليك أفضل تخمين.

احكِ لنا.

تفور رأس السيد چونسون، يقفز من السرير مرة أخرى، وينضمّ إلى

الشركة الزرقاء، كأنه يسمع انفجارًا، فيصطدم بالأرض، يرى الأرض خندقًا، فيزحف مثل السحلية تحت سرير الزوجية. لا بُدّ وأن هذا هو المكان الذي يجد فيه أشياء لا ينبغي أن يضيّعها أبدًا.

يا يسوع القدوس أبانا السماوي!

يتنامى الضجيج إلى سمع السيدة سميثفيلد. تصرخ السيدة چونسون بصوت عالٍ، فيصرخ السيد چونسون عليها: «لمن هذا؟

مَن غيري إذن يرتدي بوكسرًا أبيض». قالت إنها لا تعرف، فقال إنه سيقتلها اليوم، اليوم، اليوم.

أبا بابا سيكورسا تاتا.

تصرخ مجددًا، والأشياء تتحطم من حولها. تصرخ كأن شيطانًا يقتلها، ودوّى صوتها في كل مكان، يتبعه صوته المتفجر. «إذن أحدهم ليس جيدًا بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟ يا قحبة يا زنجية يا شرموطة، أنا ذاهب لإصلاح أعمالك!». تصرخ بصوت أعلى، يتجمع الناس خارج البوابة ليشهدوا حكم الرب، وتسارع لوسيندا إلى الكنيسة لاستدعاء الرسول. تتوسّل السيدة چونسون شخصًا ما، أي شخص لإنقاذها من القتل. يتجمع المزيد من الناس خارج البوابة، ثم نسمع شيئًا آخر يسقط.

يسقط؟

نعم، يسقط، انفتح الباب واندفعت السيدة چونسون من خلاله للخارج وكأنها قذيفة مدفع، لكنها توقّفَت عندما رأت الجميع خارج بوابتها ينظرون إليها، وقد غطّت صدرها بإحدى يديها وفرجها باليد

الأخرى. كانت حمّالة صدرها واقعة، وشعرها مُهوّش تتدلى منه البكرات البلاستيكية مثل شجرة عيد الميلاد، هذا كل ما ترتديه، وعينها اليسرى منتفخة ومغلقة، لا تدري ماذا تفعل؛ بدت حمقاء لدرجة أنها لم تستطع حتى تذكر الشعور بالخزي. ثم في وسط الهدوء، سمع الجميع صوت نقرة تعرف السيدة چونسون ماهيتها على الفور وتهرب من الخلف، ثم يراه الجميع، ويتشتّتون. اندفع السيد چونسون من الباب، وعيناه سوداوان مثل الخطيئة، له وجه حرب، ولا أحد يقترب من السيد چونسون عندما تفور رأسه، لسبب واحد، عندما عاد من الحرب، أجبروه على الاحتفاظ بالبندقية. وها هو يخطو بها من البوابة إلى الطريق.

هل يتلبّسه الشيطان الآن؟

لم ينطق السيد چونسون بكلمة بعد ذلك، ظلّ يصرخ صراخًا عنيفًا كحيوان بري متوحش. تبعه بقية الناس، لكن في طريق العودة وجد حشدًا من الناس عند البقالة، فتوقف ليحكي لهم عن النيران الصديقة. لم يكن عليهم أن يتبعوه حقًا، لأنهم يعرفون إلى أين هو ذاهب.

عندما رآه الناس قادمًا أسرعوا الخطى. الرسول قادم، ومعه لوسيندا التي اختلست النظر من خلفه عباءته مثل القرد. بدأ السيد چونسون يرغي ويزبد، لكن الرسول قطع عليه الطريق. يتحرك السيد چونسون إلى اليسار فيتحرك الرسول إلى اليسار، يتحرك السيد چونسون إلى اليمين فيتحرك الرسول إلى اليمين. يتحرك السيد چونسون إلى اليسار ويمسك بندقيته بقوة أكبر، وكانت عيناه

حمراوين، وكأنه سيركل الرسول للوصول إلى منزل الرجل.

«هذا هو انتقامي، هكذا يقول الرب هه، أعطني البندقية». لكن السيد چونسون يتمسك ببندقيته بقوة، وإصبعه على الزناد. تصرخ السيدة فراكاس ويبدأ الناس في الركض، لن يقتل كلارنس فقط، بل سيقتل كلّ مَن يعرف. «هيه.. أعطني البندقية».

لا نفهم لماذا كان الرسول هادئًا للغاية. يتحدث إلى السيد چونسون وكأنه طفل يمسك باللعبة الخطأ. كل مَن استعدّ للركض توقف الآن ليشاهد، خائفين كالقطط، لكنهم يتفرجون على أي حال، باستثناء السيدة فراكاس التي ركضت عائدة إلى منزلها، وأثر من البول يتبعها على طول الطريق إلى بابها.

قال الرسول مرة أخرى: «هيه، هذا هو انتقامي». حدّق الجميع في السيد چونسون، الذي حدّق بقوة في الرسول وهو يقول: «هيه، أعَلَى الرّبّ أن يريك مَن هو؟ حسنًا، أعليه ذلك؟ أعليه ذلك، هيه؟».

ظل السيد چونسون يلهث ويلهث لفترة طويلة. شعرنا وكأننا نعيش ونموت بين كل لهاث وآخر، كان يستدير لينظر خلفه فيقفز الجميع. يلهث ويلهث ثم يحدّق إلى الرسول، فيحدق الرسول إليه، ونحن ننتظر، ثم أخيرًا أعطى الرسول البندقية.

وسمعنا صوت إغلاق باب منزل كلارنس. يلوّح الرسول بإصبعين فيخرج الخمسة من العدم ويركضون خلف المنزل. صرخ كلارنس ثلاث مرات، وكلنا ننظر فيما عدا السيد چونسون. بعد ذلك بقليل جاؤوا يحملون كلارنس، أربعة منهم يمسكون بأطرافه، والآخر يرفع رأسه ممسكًا به من شعره. كان كلارنس أحمر دائمًا، لكنه في هذا

الصباح بدا كأن الدم ينفجر من وجهه. أمسكوا به وهو يرتدي نفس الملابس الداخلية البيضاء التي بدأت كل هذا. أحضروه إلى الرسول، والسيد چونسون يجلس على جانب الطريق يتأمل الحصى، وعينا كلارنس تدوران مثله بلا يقظة.

قال الرسول: «كلارنس، أشعر بخيبة أمل شديدة فيك.. الرب يرى كل شيء، يعلم كل شيء. أنت أحمق وخاطئ.. ليرحمك الرب... هو أخونا الحبيب، يا له من عار أن نقول عن هذا اللقيط أخونا.. هو عضو في كنيستنا ولا يزال يختار أن يرفض الرب ويعيش حياة الخطيئة! والأسوأ من ذلك، أنه أفسد حياة شخص آخر واستهزأ بالزواج المقدس.. لكن اسمعوني أيها الأخوة، لم يرتكب الرجل أي شيء غير قانوني، لم يخالف أي قوانين، لا، أيها القديسون، لقد فعل شيئًا أسوأ من ذلك؛ كسر قلب الرب!

إذا عاقبنا رجلًا يخالف شريعة الإنسان، فماذا يجب أن نفعل لرجل يكسر قلب الرب؟ هل يمكن لأحدكم أن يخبرني؟ ماذا عسانا نفعل؟».

من المفترض أن يكون التنفيذ في الساعة. بعضنا لم يصدق ذلك، لكن حتى أولئك الذين لم يصدقوا خرجوا ليروا. خاف بعض الناس، واعتقد البعض أنها مزحة، أمّا بقيّتنا فقالوا إن هذه دينونة الرب، لا أحد مسؤول غير الشريرين اللذين نجّسَا هيكل الروح القدس. ينبغي أن يُضرَب مثال في جيبيه بأننا شعب الرب، ولن يتم التسامح مع العصيان، هكذا يقول الرسول.

اعتقدنا ألّا شيء سيخرج السيد جارفي وأبناء أخيه إلا هذا الأمر، لكنه لم يأتِ، بقي المنزل مغلقًا، وقد أُسدِلَت الستائر السوداء على

جميع النوافذ.

ضحك كلارنس كأن هذه أخطر نكتة يخبره بها شخص على الإطلاق، وضحكت السيدة چونسون أيضًا. كان الاثنان تحت شجرة القطن في مقبرة الكنيسة، استخدم الأخ ڤيكستون حبال الماشية لربطهما جيدًا، فبدَوا كأنهما مُعلّقان على الأغصان مع أن أقدامهما على الأرض. لفّ الحبل حول معاصمهما مثلما يلفُّ حول عنق البشر. وجد ڤيكستون سوطًا سرقه جدُّه من سيد أبيض، ولم يُستعمَل منذ وقت طويل.

ألا يزال كلارنس يضحك؟ يتعامل كلارنس مع ما يحدث كأنه مزحة؛ لا يزال في ثوب خطيئته، ولا تزال السيدة چونسون ترتدي سوتيان خطيئتها؛ لم يضع أحد عليهما أي ملابس. بعض الرجال لم يسبق قطُّ أن رأوا فرجًا حليقًا مثل فرج السيدة چونسون الذي حلقته من أجل كلارنس. وخمّنَت بعض النساء حجم قضيب كلارنس، وذكرت إحداهن أنها تبيعه دائمًا مئزرًا مقاس ثلاثة عشر، وحين سمعت السيدة سميثفيلد ذلك، أخذت تنظر إلى بوكسره بتركيز أكبر.

الساعة السادسة، لكن الشمس لم تكن حارة على الإطلاق. الفتيات الصغيرات يضحكن عليهما، والصبيان يشيرون إليهما؛ خرج الجميع للفرجة، حتى أولئك الذين لم يصدقوا ما يحدث. لكن ماذا عن القس بلاي والأرملة؟ لم يظهرا نهائيًا..

سيُجلَدان لاحقًا.

توسلت السيدة چونسون لزوجها كثيرًا، حتى شعر الناس بالأسف

حيالها، ثم ذكر الرسول بأننا ننتقل إلى إصحاح مرقس من الكتاب المقدس حيث تتوسل الشياطين إلى ابن الرب، وإذا استجاب ابن الرب لكل هذا الاستجداء، لكان الكثير من الناس في الجحيم الآن.

يتغير رأينا مرة أخرى، إنهما سبب وجود الشيطان في جيبيه ويجب أن نجتثّهما! لنجتثّهما! لنجتثّهما!

يقول الرسول إن هذا ليس مجرد عقاب بل هو أيضًا حب، فالرب يعاقب مَن يحب، وهذا يستدعي المزيد من الجلد، ثم لوّح بإصبعين إلى الأخ ڤيكستون.

احكِ لنا ما سيحدث بعد ذلك على الرغم من علمنا به.

يتأرجح ڤيكستون بالسوط، فتصرخ السيدة چونسون، كأننا لم نتوقع قطُّ أنها تستطيع الصراخ. لم يتعرض أيٌّ منّا للجلد من قبل، لذلك لم نسمع صراخًا كهذا، ليس هذا ما اعتقدنا أننا سنستمع إليه. لم تكن تصرخ كما لو كنت تنفض الغبار تحت الخزانة ويقفز فأر عليك، ليست صرخة مثل التي تصرخها عندما تغلق الباب على إصبعك، ليست صرخة مثل عندما ترى لصًا في الفناء الخلفي يسرق الكرنب. هذا شيء آخر، تشبه الصرخة التي دوّت وسمعتها السيدة فراكاس عندما داست أبقار البيض ابنها الصغير وقتلته. رأينا هذا وقد حدث بالفعل في الجلدة الثالثة من أصل عشر جلدات، وعند الجلدة السادسة قطع السوط ظهرها، وتحوّل لون بشرتها الأسود إلى الأحمر. في الجلدة الثامنة توقّفت عن الصراخ، لكنها بدأت تنزف. في الجلدة العاشرة انهارت ركبتاها، وبدأتا تتأرجحان كما لو أن النسيم يدفعهما. كان الحبل حول معصمها أبيض مثل الجلد العاري، وكانت

عيناها مغمضتين.

سيُجلد كلارنس عشرين جلدة. طوال الوقت ظل الرسول يشكر الرب، ذاكرًا أن كلارنس لعنة ونار وجحيم على جميع من في القرية. ثم يلوّح بإصبعين فيتأرجح الأخ ڤيكستون بالسوط مثل بلطة تقطع شجرة. اصطكّت أسنان كلارنس بصوت عالٍ وأغلق عينيه بشدة، وسأل الأخ إذا كان هذا أفضل ما يمكنه فعله، ولا بُدّ أن ذلك جعل الأخ ڤيكستون يجلده بطريقة أكثر قسوة. قاوم كلارنس لكنه لم يستطع فعل شيء سوى التّسبُّب لمعصميه تحت الحبل بالمزيد من الكدمات. تحوّل الحبل الأبيض إلى الأحمر. عينا السيدة چونسون لا تزالان مغلقتين. لم يقُل كلارنس شيئًا، لكن أسنانه اصطكّت مع كل جلدة. في الجلدة الثامنة تقطّع جلده بالكامل، وبدا ظهره مثل ظهر خنزير مقطع. يجلده ڤيكستون جلدات قاسية إضافية، فينفجر البول جاريًا بين ساقيه. وفي الجلدة الثالثة عشرة، يتحوّل بوكسره من اللون الأبيض إلى الأحمر. صمت الناس، حتى الأطفال الصغار كانوا ينظرون بعيدًا فيما وراء شجرة القطن كأن لا أحد يتأرجح منها. يمسك الأخ چاكس بصبي ويجبره على النظر.

توقف الأخ ڤيكستون عن الجَلْد وارتجف الجميع في ارتياح، لكنه بعد ذلك نظر إلى الرسول، ليجده وقد أشار بإصبعيه، وعند الجلدة الخامسة عشرة، التوت ساقا كلارنس أيضًا. انهار رأسه وبدأ هو والسيدة چونسون في التأرجح. حاول السيد چونسون الابتعاد لكن الرسول أمسك به وأعاده مجددًا. عند الجلدة العشرين، انقطع السوط، فقال الرسول إن الرب يأمر ڤيكستون أن يصنع سوطًا آخر.

هذا حُكم الرب وقد نَفَذ. بدأ بعضنا يحكُّ ظهره مرة أخرى، فشعر الجميع الشعور نفسه. يقول الرسول إن هذا يوم عظيم لجيبيه لأننا ندافع عن ابن الرب الذي لا نذكر اسمه، ونتصرف بشجاعة بقولنا لا للخطيئة. نرى دم السيدة چونسون ودم كلارنس يمتزجان معًا، حتى يصل إلى شجرة القطن والأرض والمقبرة بأكملها. للمرة الأولى نشعر أنه لا يوجد سلام حتى في المقابر حيث يرقد الموتى. أمر الرسول بتركهما حتى العاشرة مساءً ثم إنزالهما وتنظيفهما. ترتجف السيدة سميثفيلد عندما أخبرها أن عليها أن تنظفهم.

حُكم الرب ليس لعبة، الرب لا يعبث معنا. نذهب إلى المنزل، ونتركهما على الشجرة، ليس لدينا ما نقوله؛ لذلك ندخل منازلنا ونغلق الأبواب. يعود السيد چونسون إلى المنزل، ويقول الأشخاص الذين يعيشون بالقرب منه إنه ظلّ يبكي طول الليل.

وفي صباح اليوم التالي وجدوا عجلًا آخر.

العجل المتدحرج

الجزء الثالث

استيقظ قش الزّم متوترًا. هيّأت الأرملة نفسها كعذراء شغوف وجهّزَت له المائدة، فأكل بغضب، ولم يقولا شيئًا. التهم الماكريل المطبوخ في حليب جوز الهند، وكعك چوني، والخبز المحمص بالفاكهة، والكرنب المطهو على البخار، وشرائح لحم الخنزير المقدد، وبودنج البطاطس، والقهوة التي حمّصَتها بنفسها. وضعت الأرملة كرسيها في مكان مظلم في الغرفة، ومن مكانها شاهدت قس الزّم يعود إلى الحياة. استهلك جوعه المائدة، تاركًا الأطباق مقلوبة، وسال المرق على رقبته وأراد المزيد.

وجد ابن الشماس بينكني العجل. قفز واثبًا مثل عربة بلا قائد، تعثّر في حافره ولم يخّف، حثّه لكن العجل رفض العودة إلى الحياة؛ الأمر الذي لم يترك للصبي خيارًا سوى محاولة إحيائه بعصاه السحرية، تمامًا كما فعل ماندريك في الفيلم الكوميدي، لكن العصا لم تكن مفيدة أيضًا. ظنّ الطفل أن العجل غريب، مُلقًى ميتًا في حقل الذرة ورأسه مقلوب. رأت لوسيندا ذلك لاحقًا، فألقت بنفسها على الفور في نوبة شفاعة لروح جيبيه. ثم جاء الرسول يورك ليرى، يسبقه الخمسة في صمت.

«أيعرف أحدكم بقرة مَن هذه؟ لمن هذا الوسم على كفلها؟ لمن هذا الوسم؟».

«لماسا فيرجي.. أيها الرسول إنه من عائلة ماكميلان من

براونستاون».

«ماكميلان؟».

«نعم ماكميلان، إنها عائلة بيضاء تعيش في براونستاون.. معظمهم أغنياء».

«أغنياء؟».

«مثل سليمان، أيها الرسول، وبيض مثل بطن سانتا كلوز».

«إذن هل يجلب البيض عشاق المال الشيطان إلى جيبيه؟».

«لا أعرف ما إذا كانوا يحبون السمك، يا سيدي».

«ماذا؟ لا، ليس سمك السلمون، أعني المال».

«كما ترى أيها الرسول».

«ابحثوا عن ماسا فيرجي هذا.. هل يأتي إلى الكنيسة؟».

«اعتاد أن يأتي يا سيدي، ولكن عندما ضرب البرق... متى آه... هو - هو... آه... وقتل الرجل الآخر، تولى هو محل الحدادة وترك الأبقار تفعل ما تفعله».

«تمام.. على أي حال، أحضروا هذا الرجل إليّ».

تجمّع حشد كبير، وكسروا نباتات الذرة بأقدامهم. أكد عدد قليل من الناس أن هذا من عمل السحرة، وشعر آخرون بالارتياح لوجود أزمة جديدة، تبعد عن عقولهم رائحة اللحم المجلود. كأن الشر يلِد الشر. سحب الخمسة الرجل المسن من بين الحشد وقدموه إلى

الرسول.

«صباح الخير أخي... أهذه بقرتك؟».

قال الرجل: «لا». دون أن يعي تمامًا كل ما يمكن أن تعنيه كلمة نعم، بالتأكيد لم يكن في موقف جيد. كرّر الكلمة «لا». ليس من الممكن أن تولد بقرة برأس مقلوب ولا يلاحظ ذلك. ركل الرسول رأس البقرة فارتجفت جيبيه، وهو يشير إلى الوسم على كفلها.

«أنا لست بلعام.. لكن هذا الكفل يقول غير ذلك».

انحنى الرجل المسن ليدقّق النظر، وهو متوتر للغاية؛ يعلم أنه مراقَب، بصق على الأرض، وقال: «أنا أقول ليست بقرتي».

«إنه وسمك... هذا وسمك.. وهذه بقرتك... هل تنكر أن هذا وسمك سيد فيرجي؟».

«هو.. أعني، هو وسم ماكميلان، لكنها ليست بقرتي».

نظر إليه الرسول و كانت عيناه مفتوحتين مثل طفل. بصق ماسا فيرجي مجددًا، شاهدته يتدحرج في التراب. لم يكن عرض التحدي كافيًا، والرسول لا يزال ينظر إليه، والصمت يحوم، يقطعه بشكل طفيف بعض التململ وجرجرة الأرجل وابتلاع الريق.

«أنت على حق أيها المسن.. هذه ليست بقرتك.. هذه البقرة تحمل وسمًا كتبه الشيطان بنفسه! كل شعبك الذي يحب علاماتك وعجائبك يتساءل عن هذا.. مَن يُخلف وعد الرب؟ مَن أخذ ما قصده الرب خيرًا وحوّله شرًا؟ مَن يقلب الخير إلى الشر بنفس السهولة التي يلفُّ بها رقبة هذا العجل؟ حسنًا مَن؟ ألا يوجد صوت في جيبيه؟».

واحدًا تلو الآخر، انطلقت الجوقة في جميع أنحاء حقل الذرة «الشيطان... الشيطان».

«إن روح السحر موجودة في هذه القرية، هل تسمعونني؟ لكن تذكروا كلامي، سنجتثها! سنجتثها! سنجتثها!».

بدأت الحكة في ظهر لوسيندا «أحرقه».

متبوعًا بمجموعة الخمسة عاد الرسول إلى الكنيسة.

حتى الأحد ظل قس الرّم يأكل كأنما في آخر زاده. وقد أثار الأرملة مجرد مواكبته في ذلك. عاد بلاي شابًا وهي أيضًا. وفي الوقت الحاضر، قرّرت ألّا تلعن مثل هذه الأشياء، وعندما يصلي، وهو ما كان يفعله كثيرًا، تصلي هي أيضًا، ليس للرب أو له، بل إلى الفراغ فيما بينهما. عصرت برتقال إشبيلية وسكبت ملاعق إضافية من السكر. خبزت عجينة الزلابية الطرية، أصبحت لمستها خفيفة، تحرّرَت من التعبير عن المرارة في كل إيماءة، أسدلت شعرها على كتفيها، ارتدت اللون الأزرق، كل هذا والقس أعمى عمًا فعله.

«هل ستخرج في تلك الشمس الحارقة اليوم؟».

«لا»...

«أوه».

هذا كل ما قالاه لبقية اليوم. في الماضي، كان الصمت مُمخَنًا بالتوتر، لكنه اتخذ طابع الأُلفة الآن؛ طوّر القس والأرملة طريقة في الصمت بدت أفضل من الكلمات. استسلم الرجل للمغفرة بطريقة

تختلف عن الخزي، مع أن كليهما يفترض درجة مماثلة من الوهن. لكن ذلك الوهن ليس يأسًا أو كراهية للذات، بل تسليم وتحرر. تخطّى بلاي الكبرياء والنفس. قتله الرب، ثم وُلِد من جديد للمرة الثانية، لغرض واحد. لم يتوقع شيئًا من الرحلة سوى العلم بأنه لن يُترك أبدًا ولن يهمل، كانت مخافة الرب بداية الحكمة، والتواضع أمام الرب برهان ذلك. وقريبًا سيكون قس الزّم جاهزًا، لكن ليس اليوم.

***

هرعت لوسيندا عائدة إلى منزلها، أخمدت نارها، ولفّت الضمادات بشكل أكثر إحكامًا. لم يتوقف اليود عن الاحتراق، أمس انفجرت في فمها مليون صرخة أغلقت شفتيها بإحكام، خشية أن ينفلتا بينما السوط ينزل على ظهرها. شخص ما يجعلها صغيرة أيضًا. في الماضي، استطاعت تفسير ذلك بأنه نتيجة أيامها المدنّسة، لكنها الآن أمام حرارة أبدية لم تستطع طردها، فجُلِدَت بقوة أكبر. لوسيندا امرأة بسيطة اختتمت الأمر ببساطة، لكن شيئًا ما وراء نفسها بدا وحشيًا. ولأكثر من مرة، كادت أصابعها تشق طريقها مرة أخرى؛ لتجد نقاط المتعة في ثنايا لحم مهبلها الداكن. بإمكانها أن تشم في نفسها رائحة السمك النيء، وأثار هذا اشمئزازها، لكنه جلب الحرارة إلى جِرهِا. هي امرأة بسيطة اختتمت الأمر ببساطة. إذا لم تشف ملعقة واحدة، فعندئذٍ اثنتان، وإذا لم تشف عشر جَلدات، فالحل عشرون؛ جُلِدَت بقوة أكبر، ففي جراح ظهرها شفاؤها. حشت فمها بإسفنجة وأمطرت ظهرها باليود لتستطيع جراحها أن تصرخ. الرب ليس راضيًا لكنه سيرضى، فهي متأكدة من تضحيتها.

لقد تقرّر أن تصبح لوسيندا عروسَ المسيح، لكن خاتم إصبعها فُقد في قشّ شعر عانتها؛ إنه ذلك الرسول اللعين، وتلك الكتب الحمراء والرأس الحمراء الجريئة لقضيبه. عندما استيقظت في اليوم التالي، ظهرت آثار الحمى على السرير المبلل بالعرق واليود والدم، لفّت نفسها بالمزيد من الضمادات، لدرجة أنها، التي اعتادت أن تسير مستقيمة، بدت كالحدباء.

***

ضرب الرسول أصابعه على المنصة وخاطب المصلين معلنًا وجود شياطين في الكنيسة. تكلّم بغضب معلنًا ضرورة اجتثاث روح السحر من القرية من أجل الأطفال. أمر الأرواح بأن تذهب باسم الآب. الأبقار مخلوقات الرب، وهي مشرقة وجميلة مثل كل شيء آخر صنعه. استردّ الرسول البقرة باسم الآب، فصاح المصلون وصرخوا. ثم دعا إلى المذبح كل الذين على قلوبهم ثقل، جاء القليل منهم فوضع الرسول يديه عليهم.

أمر امرأة بالتخلي عن المرارة وروح الكراهية التي تقتلها من الداخل. أمرها أن تستعيد عذريتها باسم الآب، فرفعت ثوبها فلمس الرسول مكمنها، وصرخ أمام المصلين أنه شعر بغشاء بكارتها ينمو من جديد، وبمجرد أن لمست يده جبينها تلوّت وارتجفت وصرخت، ثم سقطت على الأرض، منفلتةً من يدي أحد الخمسة، ثم صرخت مرة أخرى، صرخة لم يتحمّلها حلقها، فبدأت في السعال.

صاح الرسول: «آمُرُكِ أن تخرجي منها باسم الآب! يا روح السحر، آمرك أن تخرجي منها باسم الآب! يا روح البغاء!». خافت المرأة

وارتعبت كما لو أن بطنها قد بدأ ينفتح. سالت الرغوة من فمها، وغارت عيناها داخل جمجمتها. فيما هربت امرأة أخرى من طرف المذبح إلى الطرف الآخر، وتعود، وهي تصرخ: «اخرجي مني! اخرجي مني!».

لوّح الرسول بإصبعين فذهب الخمسة وراءها، أمسكوا بيديها فسقطت وهي تصرخ في صخب. الكنيسة في حالة اضطراب، لكن عازف الأرغن مستمر في العزف، والجوقة مستمرة في الغناء. قفزت السيدات في الصف الأمامي على أقدامهن طالِباتٍ الشفاعة، وتبعهن أخريات، وقفن وأذرعهن مرفوعة وأعينهن مغمضة. ومع ذلك، ظل البقية مضطربين خائفين، لا يفعلون شيئًا سوى المشاهدة. بحلول نهاية القداس، خُرِّرَت ثماني نساء من الأرواح الشريرة.

كان الضجيج عاليًا إلى درجة أن القس بلاي سمعه من نافذته، وقد ألقى بنفسه في نوبة صلاة أيضًا، لكن لغرض مختلف.

أعلن الرسول أن اللعنة على الأبقار قد رُفِعَت، ومن الآن فصاعدًا لن توجد المزيد من الأبقار المسحورة. لا مزيد من الدجل.

لكنه أضاف أن هذه الأشياء ما هي إلا الثمار والأغصان، ولا بُدَّ من اجتثاث الجذر بالكامل؛ الإنسان. الإنسان الشيطان، الزاني مع عاهرة بابل، المسيح الدجال؛ أوه نعم! يمكن أن يكون الرجال سَحَرة أيضًا! انظروا إلى كلارنس المسكين، الذي أغواه الشيطان لدرجة أنه أفسد امرأة متزوجة، وبما أن الشيطان وأطفاله يقومون بأعمالهم الشائنة في الليل، عليهم أن ينتظروا في الليل، وأن يجتثوا في الليل!

خشي البعض، وأمل البعض هذه المرة فقط، أن يخلف الليل وعده

بالقدوم. لكنه أتى، ناشرًا ظلاله المبللة بالندى، والصراصير، والنقيق فوق جيبيه. استعدّ الناس وأضاؤوا المشاعل؛ الليلة سوف يذهبون إلى معسكر الشيطان ويستعيدون ما سرقه بدم الآب.

خشي ماسا فيرجي على أبقاره، لكنه تأخّر وحاصره الليل مع قطيعه على الطريق، يحثّه بقوة، مرعوبًا أنه قد يقابل الشيطان أو العجل المتدحرج. ربما على شخص ما أن يخبر الأبقار أن لديها سببًا للخوف، لكن القطيع استمر سائرًا بهدوء على الرغم من ضربات السوط، يفعل كما يفعل دائمًا عندما يشتد الظلام، وتتعذر رؤية العشب، وعندما وصلوا إلى الحظيرة، دخل الجميع باستثناء واحد. ركض ماسا فيرجي عائدًا إلى الظلام خلف البقرة!

تطلّب الأمر بعض الوعيد وقراءة الرسول لآيتين من كتاب دانيال، حتى اختلط خوف الحشد بغضبه الغوغائي، تحركوا كوحش واحد حتى بدوا من أعلى مثل تنين يبصق النار. هذه ليلة دَخر الشيطان. بدأ الرسول الموكب رافعًا ترانيم التسبيح على طول الطريق، وفي منتصف الطريق تراجع وترك الحشد بزخمه المجنون يمرُّ به، وقفَ الرّم يشاهدهم عبر نافذته.

حشرت البقرة قرنها في سياج يفصل المرعى عن النهر، شدّها ماسا فيرجي من قرنيها، لكنها رفضت التحرك. لعنها الرجل ودفعها بقدميه من كفلها، فتحرّكت حركة طفيفة، فدفعها مجددًا، لكن الندى جعل جلدها زَلِقًا، فانزلق الرجل لكنه أمسك بذيل البقرة ليمنع سقوطها.

«انظروا هناك!».

«لقد قلت لكم، قلت إنه هو».

«لقد عدت إلى معسكر العدو..».

«لقد شاهدت الرجل وهو يتصرف بقذارة مع البقرة!».

«أعِذ ما سرق مني».

«سحرا!».

«رجل قذرا شاهد كيف كان يلمس البقرة! هل تراه؟ هل تراه؟».

«قذارة!».

«قلت إنني استعدت ما سرقه مني».

«يا إلهي، لقد سحر البقرة! إنه تحت قدمي، إنه تحت قدمي».

حاول ماسا فيرجي الهروب، لكن دائرةً من اللهب أحاطت به صراخًا وشتائم. ظلال من اللهب أعجزته عن رؤية وجوه شياطين الجحيم التي أتت من أجل البقرة. إنه تحت قدمي، إنه تحت قدمي. من اللهب والسواد خرجت عصا أصابته في وجهه، فسقط مرعوبًا، حيث قفزت عليه كتلة اللهب والظلام. إنه تحت قدمي، إنه تحت قدمي. صرخ الحشد وصرخوا وداسوا وصرخوا وبصقوا. إنه تحت قدمي، إنه تحت قدمي. لم يشعر بكسر في ساقه اليسرى ولا بكسور في ضلوعه، ولا انكسار في أنفه، ولا بصدغه يردّد صدى الضربات. الضربة على مؤخرة رأسه أعمته عن الآخرين. إنه تحت قدمي، إنه تحت قدمي. ضرب الحشد، وداس، وأحرق. إنه تحت قدمي، إنه تحت قدمي. صرخ ماسا فيرجي مرتين، ثم لا أكثر. لكن عندما أطلق أحد الغوغاء يده وسقط على الأرض، مصابًا بصدمة الرعد، انسحبوا.

انقسم الغوغاء إلى أفراد، فزّقَهم ما فعلوه. وفي حين أن الغضب جماعي، فالشعور بالذنب دائمًا شخصي. هرب الناس بمشاعلهم، ومن الأعلى بدا وكأن كتلة من النار قد انفجرت في جمر صغير مُبَعثَر. داس الرسول الجسد وأكمل طريقه. استلقى ماسا فيرجي على التراب، وقد تحطّمَت جمجمته وضلوعه كأن ثورًا دهسه.

«شكرًا للجوقة.. أيها المصلون يمكنكم الجلوس».

«آه. مممم».

«همف».

«يا إلهي».

«يا إلهي».

«أيتها الكنيسة، كنت أعتقد أنني رجل ثرثار، لكنكم أيها الناس... لكنكم... أنا في حيرة.. إنه لأمر جيد أن الرب إلهنا إله متفهّم...

الرب رحيم.. إنه لأمر جيد أنه ينظر إلى ما وراء الوجوه، ويرى القلوب، فإذا كان الرب مثلي لظنّ أن الشيطان هو الذي تولى مسؤولية التسبيح والعبادة.. لا يمكن أن تكون هذه الكنيسة كاملة الإيمان.. أرى مزيدًا من التسبيح في جنازة... في الكنيسة الكاثوليكية.. من الخير أن يعرف الرب أعباءكم... أيتها الكنيسة، أنا أيضًا أعرف عبئَكِ لأنني صوت الرب.. قلبك مثقل وقلبي قريب ومثقل أيضًا.. لقد كنت هناك يوم الخميس أيضًا، كما تعلمون.. عندما حلّت عدالة الرب».

«كنا خائفين».

«كنا مستائين».

«نحن في حالة ذهول.. أغلبنا مرتبكون، والجميع تقريبًا يشعرون بالخجل.. أصدِقوا الرب، كلنا نشعر بالخجل.. أعرف ما دار بأذهانكم؛

لا تقتل، أعرف أن هذه الجملة ظلت في تلك الليلة تُعزَف في رؤوسكم مرارًا وتكرارًا مثل موسيقى الشيطان التي يواصل صبّها في آذانكم.. لكن، أحِبّتي، سأقول هذا مرة واحدة فقط: استيقظوا! ما رأيكم في هذا؟ أعليّ أن ألصق الذيل بالحمار؟ أيتها الكنيسة، إنها الحرب! حان الوقت ليتخلى بعضكم عن يقينه المبارك.. لم يأتِ الرب إلى هنا لشفاء المرضى، بل جاء بالسيف! نحن نهدم ملكوت الشيطان.. نطلق وابلًا على شواطئ الجحيم.. ندخل صفوف العدو لنستعيد ما سرقه. يا آبا بابا آ ماكا ديش، أتمنى لو لديّ كنيسة تخشى الرب.. الشيطان ليس صديقكم. الشيطان ليس فتى أحمر عاريًا بذيل وشوكة!

يقول الكتاب المقدس إنه يأتي ليسرق ويقتل ويدمّر! إما هو أو نحن! إذن ماذا سيكون يا جيبيه، هو أم نحن؟ الشيطان أم المخلّص؟ لكن الرب يقول لا تقتل.. حسنًا أيتها الكنيسة، ماذا لو قلت لكم إني لم أقتل رجلًا؟ هل تصدقينني عندما أتحدث إليك يا لوسيندا؟ استمعي لي.. لقد خلق الرب الإنسان على صورته، لكنه صنع الشيطان على صورته أيضًا. وشياطينه... يا أطفال المسيح، ألا ترون ما يحدث؟ أعلم ما المشكلة، قلوبكم قاسية للغاية! إذا لم تكن قلوبكم قاسية للغاية، فلن يضطر الرب إلى الضغط عليكم كثيرًا. ألا ترين أيتها الكنيسة؟ الرب يفتح عيونكم لترى الخطيئة كما يراها. ماذا يقول سفر اللاويين، الإصحاح العشرين، في الآية الخامسة عشرة؟ *وإذا اضطجع رجل مع بهيمة فإنه يُقتل بالتأكيد*. وبعد الأبقار، أخوتي وأخواتي، ماذا بعد، يا أولاد؟ أهكذا تريدون لقضيب ذاك المنحرف أن ينتهي؟ ارجعوا معي إلى سِفر الخروج، الإصحاح الثاني والثلاثين،

والآيات من ستة وعشرين إلى تسعة وعشرين: فوقف موسى في *باب المحلّة وقال من للرب فإليّ. فاجتمع إليه جميع بني لاوي. فقال لهم هكذا قال الرب إله إسرائيل، ضعوا كل واحد سيفه على فخذه، ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة، واقتلوا كل واحد أخاه، وكل واحد صاحبه. وكل واحد قريبه. ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى، ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل.*

تابعوا معي.. ماذا فعل موسى للإسرائيليين الذين عبدوا العجل الذهبي؟ ذبح الجميع، ذبح ثلاثة آلاف، ومع ذلك، انظروا إلينا، نبكي على قتيل واحد.. الرب هو الرب.. يقتل أمك إذا أطاعت ملكوت الظلام.. لو رفض الإسرائيليون طاعة الرب، هل تعتقدون أنهم كانوا سيصلون إلى أرض الميعاد؟ وإذا لم تقتلوا الخطيئة التي تتعاظم بسهولة، فكيف ستصلون إلى وعد الرب الحقيقي؟ المسيحية ليست عملاً مرحًا.. يا رجال الرب هذه حرب! والشيطان لا يقاتل بعدالة. انظروا إلى ما كان يفعله ماسا فيرجي. اجتثوها! اجتثوها! اجتثوها! إذا أتى الناس إلى هنا برائحة الشيطان، أرسِلوهم للخارج على الفور.. أي شيء من رائحة الشيطان ينبغي أن يُعاد إلى الجحيم، وأسرع طريقة لإرسال شيء ما إلى الجحيم هي قتله».

رآه الرسول أولًا. في المرة الثانية التي مرّ فيها على السيدة فراكاس، أثار قشّ الرّم انزعاجها الذي انسحب على بقية الكنيسة الصامتة المتفرجة. ارتدى بلاي بدلته البيضاء، نظيفةً ولامعةً باستثناء الكتف اليمنى التي حملت أثر جوال الخيش القذر. بناءً على أوامر الرسول، جاء الخمسة من خمسة اتجاهات لكن لصدمة الجميع، رفع بلاي يده عاليًا وأشار بإصبعين، فتوقف الخمسة جميعًا. سار

بلاي بطء إلى المذبح وتوقف مباشرة أمام الرسول يورك.

«أنت مثل الدمّل على مؤخرتي يا بلاي.. أفقؤك فتنمو مرة أخرى. أبعدك فتعود... ربما ينبغي عليّ جلدك؟ هل تعتقد أنه ينبغي عليّ؟ ربما ينبغي أن...».

«سأكون محظوظًا، لأن الكلمة أن تجلد الشباب وتقتل المسنّين.. لكن مَن ستقتل من أجل هذا؟».

ألقى بالثقل، لكنه ظلّ ممسكًا بالكيس الذي سقط على الأرض. صرخ الأقربون أولًا، وتقيّأ الأخ ڤيكستون من الرائحة، وهرع المصلون، الذين لم يرَ معظمهم ما ألقى به خارج الكنيسة مُسقِطين الكراسي، والمقاعد، وحوض التعميد، والأطفال. وفي ثوانٍ فرغت الكنيسة، باستثناء قس الزّم، والرسول يورك، والماعز، البارد الموحل برأس مقلوبة، منفصل عن جسده. ملأ الوحل الأرض، وأيقظت رائحة الموت المذبح. نظر الرسول في غضب، فرأى قس الزّم من خلال عينيه وجهًا ثانيًا، وقبل أن ينطق أحدهما بكلمة، عوت الريح العاصفة وأغلقت الأبواب.

الجزء الثاني

لوسيندا

بعد أسبوع من عيد ميلادها العاشر، ضرب والد لوسيندا والدتها ووصفها بالعاهرة، ثم اختفى مثل نيقوديموس، مثل اللص في الليل. ولعدة ليالٍ تالية ظلّت لوسيندا مستيقظة في انتظار عودته. قالت والدتها إنه رحل لأن ابنته قبيحة ووقحة. تلك أولى ذكرياتها.

لوسيندا الطفلة في المدرسة تتلاعب بزيّها وهي جالسة إلى مكتبها. مرّت ساعة على دَقّ الجرس، وفرغت المدرسة، وسمعت النسيم يصفر من خلال النوافذ. على الأرض أسفل السبورة قطعة من الطباشير البرتقالي؛ عادة، كانت تقفز من أجلها، وتضعها في جيبها، وتجري مباشرة إلى المنزل حيث تعلم النباتات الكتابة، وتضرب كل ورقة بحزامها، تفعل هذا وإلا أخافها الصمت. لم تكن آخرَ مَن غادر الفصل من قبل، ولم تبدُ الغرفة بهذا الحجم من قبل؛ مع وجود الأطفال فيها، تبدو المكاتب حية، لكن الآن، مع صفير الريح وتلاشي بريق الظهيرة، بدت كأنها توابيت ذات أرجل. كانت تمسك بولها لمدة ساعة، قد يعود التشنج، وأحيانًا يكون خفيفًا، وأحيانًا شرسًا، تضغط على فخذيها بقوة، آمِلَة ألّا يتدفق البول مرة أخرى، لكن قطرات صغيرة تدفّقَت.

سخروا منها جميعًا حتى إلسامير التي تشاركها مكتبها، غطت فمها لإخفاء السن الأمامية التي تنمو ببطء. تتعالى ضحكاتهم كل مرة تتبوّل على نفسها. ضغطت على فخذيها بقوة، وجزّت على أسنانها، وأغمضت عينيها، وبدأت بالعد تنازليًا من مائة إلى واحد. إذا تمكّنت

فقط من الوصول إلى الرقم واحد، عندئذ سيعود البول. إذا تمكّنت من الوصول إلى 100 إلى 99، 98، 97، 96، 95، 94، 93، 92،91، 90،98، 87، 86، 85، 84، 83، 82، 81، 80، 79، 78، 77...

«لوسيندا! ماذا تفعلين هنا يا فتاة تشيلي؟ لماذا تجلسين هكذا أيتها العابثة؟» هجمت المعلمة عليها قبل أن تتمكن من الكلام. كانت طويلة جدًا لدرجة أنها بدت كأنها تلمس السقف بشعرها. ليس لديها عينان، تعكس نظاراتها السميكة الضوء على وجه لوسيندا. يداها قويتان، وعندما تضربك ستوجعك لا شك. أمسكت المعلمة بخدّي لوسيندا وضغطت عليهما.

«هل أنت مريضة؟».

هزّت لوسيندا رأسها.

«هل تعانين من وجع في أسنانك؟ هل أفسدت الحلوى فمك؟».

هزّت لوسيندا رأسها.

«ماذا عن منزلك؟ هل فقدت أمك أعصابها مرة أخرى؟».

هزّت لوسيندا رأسها.

«إذن لِمَ تبقين هنا حتى هذا الوقت؟ لقد انصرفت المدرسة بأكملها منذ وقت طويل؟».

يوجد خمسة أصوات يتحدث بها الكبار. وقد تعرّفَت عليهم لوسيندا، لأن والدتها لديها واحد منها فقط. امتلكت والدة «ماري بالمر» ثلاثة منها: الصوت الذي يقول «العشاء جاهز»، والصوت الذي

يقول «اخرجي من الشرفة»، وهو صوت واضح، والصوت الذي يقول «لا تهتمّي يا حبيبتي، سيتحسّن الأمر بسرعة». لكن ما خرج من فم المعلّمة بدا وكأنه استجواب، صوت يقول «أنت خاملة وشريرة».

«فتاة تشيلي، هل أكلم نفسي؟ تحدثي أيتها الفتاة الصغيرة، لماذا لا تذهبين إلى المنزل؟».

لم تتكلّم لوسيندا.

«سأفقد صبري معك. لماذا آذان الأطفال دائمًا صمّاء هكذا؟ لماذا تريدين أن تُضربي دائمًا».

نظرت لوسيندا إلى حجرها.

«أتريدين مشكلة؟ هل تبحثين عن مشكلة؟ عندما يتحدث الناس الكبار إليك أجيبي. إليك المشكلة.. قومي فورًا.. أفيقي!». أمسكت المعلّمة بلوسيندا من ياقتها وشدّتها. صرخت بينما ارتفع المقعد لثانية ثم سقط للوراء، ومزّقت زيّها عند الخصر.

الآن لديك العرش أيتها الملكة لوسيندا، قالت إلسامير وهي تضحك وتلوح بزجاجة الغراء أمام وجه ماري والآخرين. ظلت لوسيندا مرتبكة لمدة ساعة، بعدها حاولت الذهاب إلى الحمام.

«أوه، بحق السماء.. ما مشكلة هؤلاء المتعصبين! هل الشيطان فيهم، يا يسوع، لا بُدّ أنه الشيطان. أيعرفون كم أدفع من المال مقابل هذا الغراء؟ أيظنون أن الغراء رخيص؟ أذهب إلى كينجستون لشراء الغراء وها هم يضيعونه.. أيادٍ عاطلة يا يسوع..

ورشة الشيطان.. ورشة الشيطان.. الغراء ثمين، اذهب إلى فناء

الدماء قبل أن أعطيك سببًا للبقاء، وإذا أخبرت أي شخص ما أقوله، سنلتقي أنا وأنت غدًا».

وفي الخارج همست الريح ضاحكة، بينما شعرت ساقا لوسيندا بتيار البول الدافئ.

عادت إلى المنزل عبر طرق سرية، عبرت النهر بدلًا من الجسر وانتظرت حتى المساء، لم يكن منزل أمها جزءًا من مخطط جيبيه، بل معلّق مثل الأكواخ الأخرى على الأطراف داخل حدود النهر. في المنزل غرفتان: غرفة نوم لوالدتها، وغرفة جلوس. ومطبخ، وغرفة نوم لوسيندا. المنزل مليء بأثاث قديم مسروق من مزرعة مهجورة، كراسي حمراء فاخرة سوّدها الفحم والسحر الأسود، أربعة منها مبعثرة في جميع أنحاء الغرفة بلا ترتيب. ووضعت طاولة قهوة من الخيزران وفوقها مزهرية من الزهور البلاستيكية وسط الغرفة، وطاولة طعام رمادية من الفورميكا بلا كراسي على اليمين. سطح الطاولة مليء بالنباتات المجففة، والجِرار الزجاجية المليئة بالخل والماء، والمانجو الفاسد، والتفاح المنكمش. فتحت لوسيندا إحدى الخزائن وأبعدت جَرَّةً مليئة بجلود السحالي، ومخالب الكلاب للعثور على العبوة الأخيرة من الكعك. تعرف كيف تخرج من المنزل دون إثارة والدتها، التي كان عليها أن تمر من غرفتها. بدت والدتها مشغولة، وربما لن تراها. تجاوَزَت لوسيندا الغرفة على أطراف أصابعها لكنها نظرت عندما سمعت المشط يسقط ويرتد على حذائه، تبعت ساقيه، وانتقلت من نقطة واحدة من شعر الجسم الملتوي إلى الأخرى، صعدت إلى أردافه المتعرّقة المشدودة بإحكام عندما انغمس في الداخل، وانتشرت عندما انسحب.

انتقلت إلى قميصه البرتقالي للغاية لدرجة أن توهُجه لوّن ساقي أمها المرفوعتين على كتفي الرجل، والدتها على الخزانة، ظهرها المتعرق يزلق المرآة بينما يدقُّها الرجل. تخيّلَت لوسيندا قضيبه القصير مثله، وهو يغرق داخلاً وخارجًا من فرج أمها الواسع. التفت فرأت لثانيةٍ قضيبه يختفي داخل أمها، وخصيتاه الكبيرتان ترتدان في مرونة.

تضاجع أمها رجلين في الأسبوع، وأحيانًا ثلاثة. عندما نظرت لوسيندا في مرآة الخزانة، وجدت أن الرجل قد رآها منذ فترة طويلة، ورفع أحد حاجبيه الكثيفين مبتسمًا وهو يلفُّ وجهه السمين، ووركيه ويدفع عضوه بقوة أكبر، متشبثًا بأمها.

«ووي، ووي، أيتها الحمارة الحلوة.. دادي، ووي... خذي الأمور ببساطة.. أيها الحمارة الحلوة. لا لا لا». شخر الرجل مبتعدًا.

«تعال أيها الثور الأسود، أعطِني لبنك».

شخر الرجل مرة أخرى، وسمعت لوسيندا قطرات صغيرة تسقط على الأرض.

«الرب لا يحب عندما يسكب الرجل منيّه بلا جدوى، أيتها العاهرة».

«الرب لا يحب عندما تمارس الجنس مجانًا أيضًا، أيها الحمار..».

قال وهو يمسح قطراته في فخذها: «لا، لا.. لأدفع نقودًا لا بُدَّ أن يكون الفرج ضيقًا.. كيف سنواجهها في المرة القادمة؟».

«نواجه مَن؟ ما الذي تتحدث عنه؟».

أشار الرجل إلى المرآة، فاستدارت المرأة نحو الباب، لترى لوسيندا وهي تهرب.

«ماذا...».

لوسيندا في الخارج على الدّرج تأكل الكعك، ثم حدث الهجوم القوي فجأة لدرجة أنها لم تشعر بشيء. طار كيس الكعك في الهواء وسقط في التراب، ضربتها على يديها أولًا، ثم على وجهها، فتمرّغت في التراب، ركلتها حتى كادت تفقد توازنها. «أيتها القحبة الزنجية الوقحة».

عرفت لوسيندا بطن البلاد: الينابيع السرية، والطرق المتعرجة، والأرواح الخفية، أكثر من أي شخص يبلغ ضعف عمرها. معظم ما تعلّمَته عرفته من أمها.

بعد أسبوعين، في ليلة مُقمِرة، ساعدت أمها في تحضير شاي كاللالو، ثم شاهدتها وهي تشرب. كانت أمها خلف المنزل، قريبًا من النهر تسمع تدفقه، مختبئة بين الأشجار الكثيفة للغاية التي حجبت الضوء. أمسكت أمها بزجاجة مملوءة بمياه النهر، وأخذت بعضها في فمها، ثم بصقت في النار، فاختفى البخار، وكذلك هي.

توقّفت لوسيندا عن التحدث إلى زملائها في الفصل بعد حادثة التبول، لم تنطق بكلمة حتى عشية عيد الميلاد، نجح البعض في اجتيازها بخمول، والبعض الآخر بجد. لكن إلسامير، التي كانت تجلس بجانبها في الفصل ماتت. وجدوها على الصخور، بعد أن بصقها البحر. قفزت قفزة عنيفة، فانفجر جسدها مثل حبّة طماطم مهروسة. من فوق الجرف نظر زملاؤها الطلاب الذين كانوا في نزهة

مدرسية من أعلى، بمن فيهم لوسيندا، التي همست لماري: «أراهن أنها كانت تتمنى أن تتمكن من الطيران».

في جنازة إلسامير، حين أغلق التابوت رأت لوسيندا الدمار الذي خلّفه الموت، فتقيّأت على أحد أبناء أخي السيد جارفي؛ ممّا أثار استياء مَن حولها لمحاولتها جذب الانتباه في جنازة الفتاة الصغيرة المسكينة. لم يعلموا، لكن والدتها كانت تعلم، فرفعت ذقنها ونظرت إلى ابنتها من طرف أنفها.

عادت لوسيندا إلى سريرها ونامت. استيقظت في الليل وأشعلت شمعة في الغرفة، مُلقيةً بأشكال خشنة على الحائط. انفصل أحد الأشكال عن البقية وجلس بجانبها. همست والدتها: «أنا أعرف ما فعلت». لم تنطق لوسيندا.

«هل تسمعينني؟ أقول إني أعرف ما فعلته».

«ماما؟».

«لستُ أمك.. أتظنين أنك ستخدعين الجميع؟ لقد كِدتِ تخدعينني أنا أيضًا، حتى اكتشفت اختفاء بعض المكوّنات.. مكوّنات خاصة؛ الأشياء التي تخلطينها وتحضرينها إذا أردت إخراج عاهرة معينة من الصورة».

«أخرجها من الصورة، يا ماما؟».

«استمري، ادّعي الحُمق لالتقاط الحكمة، لكنني أعرفك.. بدأت اللعبة تعجبك، أليس كذلك؟ أرى ذلك على وجهك.. بدأتِ تحبين طعم الدم.. تأكدي أن ما يحدث في الليل لا يعود في النهار».

جلست لوسيندا بمفردها إلى مكتبها لبقية العام، وتجنبها الجميع.

كانت المراهقة قاسية على الجميع باستثناء كلارنس؛ إذ بالنظر إلى قبح والديه، فشكله معجزة. والجميل والقبيح من الكلمات الفضفاضة في جيبيه، وعلى هذا النحو، فجماله ذو علاقة بالجلد الفاتح والشفاه الوردية مثل لونه. لكن شعره الزنجي الذي يصعب التعامل معه ضايق أمه. كان نموه مسألة فخر وخزي للآخرين، عرف كلارنس هذا منذ اليوم الذي توقف فيه الأولاد عن الاستحمام معًا. بعد أن تجرّدوا من ملابسهم مثلما فعلوا دائمًا، وغاصوا في المياه الباردة يصيحون ويضحكون. لكن مع ظهور كلارنس، عرف الأولاد الآخرون للمرة الأولى أنه مختلف عندما شاهدوا رقعة من الشعر الأحمر لم تكن موجودة من قبل، وليست موجودة لديهم. رأت لوسيندا الشعر الأحمر أيضًا، ولن يمر يوم دون أن تتسلّل فيه إلى النهر، وتختبئ تحت غطاء أوراق الموز؛ لتراقب الأولاد يمرحون عراة في الماء، حتى توقفوا يومًا بعد يوم عن القدوم إلى النهر باستثناء كلارنس.

قالت له من ضفة النهر، ونصفها مختبئ في ظلال أشجار الموز: «يمكنك أن تفعل بي ما تريد». عرف كلارنس أين ينظر، كان يراقبها منذ شهور.

«أوه؟ أتظنين ذلك؟ ليس لك نهدان حتى». خاض في الماء تجاهها، وحاولت لوسيندا ألا تنظر إلى رقعته الحمراء.

«ليسا نهديّ، أتعرف ماذا ستفعل؟».

«ماذا؟ اسمعي أيتها الحولاء، أنا أعرف كل شيء!».

«هيا، أرِني إذن؟».

«تريدينني أن أريك أشياء الفتيان الكبيرة؟ هل تعتقدين أنكِ مستعدة للأشياء الكبيرة؟ حسنًا، أيتها الفتاة الكبيرة، انظري هنا».

«ليس الآن.. الليلة».

«فتاة صغيرة خائفة».

«أنا لست خائفة! هل أنت خائف؟ نلتقي في الليل».

«إلى الليل إذن».

«سنلتقي عند المقبرة».

«عند المقبرة؟».

«عند المقبرة، وإلا لن تنال فرجي».

ليلتها اتضح أن كلارنس لا يعرف شيئًا عن الأعضاء التناسلية الأنثوية. عذّبها لدقائق حتى تذكر أن لديه أيضًا فتحة شرج.

وعندما عرف المكان الصحيح أخيرًا، دفعها فوق قبر إسمنتي مثّسخ. اصطدمت وركاه بها عدة مرات قبل أن ينسحب، ويرش فخذيها بالمنيّ. تركها في المقبرة، فسمعت خطى والدها، ولعدة أيام بعدها ظلت تبكي.

قبل أسبوع من عيد ميلاد لوسيندا الثاني والعشرين، وجدت أمها المسيح. طلبت من لوسيندا أن تتخلّص من كل أدوات السحر ففعلت، لكنها احتفظت ببعض الجِرار والجرعات لنفسها. أمضت العامين التاليين إلى جانب أمها، ترتدي الأبيض مثلها، تقف عندما تقف،

ترتجف عندما ترتجف، وتصرخ هللويا عندما تصرخ. أصيبت أمها بجلطة دماغية ثانية، لكنها كانت -والحمد للرب- لا تزال تأتي إلى الكنيسة. الآن إذا حاولت لوسيندا الحصول على رجل قبل أن يجفّ فرجها، لن يكون بإمكانها إنجاب الأطفال. انظروا كيف جعلت رجلًا صالحًا مثل السيد جرينفيلد يفلت منها ويتزوج تلك الفتاة، ماري التي تعيش في منزل والدتها المتوفاة.

«لوسيندا، ضعي بعض الكريم على شعرك».

«لوسيندا، الرب ليس بحاجة إلى زوجة».

«لوسيندا، هل تعتقدين أن التبول هو السبب فقط؟».

«لوسيندا، ماذا تخفين؟ إذا أمسكت بك دون عمل في هذا المنزل، سأكسر ظهرك».

«اللعنة عليك أيتها الحمقاء، تجعلين رجلًا مثل السيد جرينفيلد يهرب.. أتعلمين أنها طلبت من رجل المدينة أن يشتري منزل ماري بالمر من السيد جارفي، ويمنحها إياه؟».

«لوسيندا...».

«أنا أقرأ في الكتاب المقدس يا أمي».

بصفته رجلًا من كينجستون، ويعرف المياه المنقولة بالأنابيب، عاد السيد جرينفيلد للاستحمام في النهر. لكنه لم يتزوج من ماري بالمر، فلن تسمح لرجلٍ بالتّعزّي في منزل أمها. على الأقل كان وحيدًا، وبينما يستحمّ، بلغه صوت طرطشة لوسيندا للمياه، جاءت لتستحم هي أيضًا، وهي تلفّ فستانها المنقّط حول رقبتها مثل حبل المشنقة.

قالت: «أنا أعلم أنك تريد أن تفعل معي الفاحشة».

هي أختٌ تذهب إلى الكنيسة، وتُعرف بهذا الاسم. لا أحد يعرف لوسيندا النهارية، يعرفون لوسيندا الليلية. لكن عندما تركت ردفيها ليديه الخشنتين، غمرها شعور بأنه كان من الأرواح في الماضي. احتضنته، لكنه أبقاها بعيدًا، ووقفا متباعِدَي الرأسين، متباعِدَي الأقدام، متلاصِقَي المنتصف. وعندما وصل إلى الذُروة ابتعد وسكب منيّه في النهر. تقدّمَت إليه، وفركت ثدييها على كتفه وقالت: «إذن نحن متزوجان الآن؟».

نظر جرينفيلد إلى حاجبها المرفوع بحسرة فوق عينها اليسرى الحولاء، وأخذ يقهقه قهقهةً ارتدّت في جميع أنحاء الوادي الذي يمر عبره النهر، ثم دفعها بعيدًا ففقدت توازنها. وعندما سقطت في النهر، ابتعد، ولم يكلّف نفسه حتى عناء ارتداء أي من ملابسه غير المنشفة. سمعته يضحك طوال الطريق حتى منزل ماري.

لاحقًا، في اليوم الذي ساعدتها فيه لوسيندا على الاستحمام، انهارت أمها في النهر، ركعت تحت شمس الظهيرة الساطعة، خانها الجانب الأيسر من جسدها فتعثرت في الماء المائج. تتكلم بنصف فم، ترى بعين واحدة، وجسدها نصف نائم. شاهدت لوسيندا تيارات النهر تجتاح أمها وتغرقها. ومع أنها بنصف جسد فقط، كان من الممكن أن تنقذ المرأة نفسها لولا لوسيندا، التي لم ترفع قدمها المثبتة لرأس والدتها حتى اقتحم الماء رئتيها وقتلها.

لم تقم جنازة. رحّب الليل بعودة لوسيندا، في النار ألقت بجلود سحالي وهياكل قطط ومخالب كلاب حفظتها أمها في الخل، وفي

اليوم التالي تزوجت ماري والسيد جرينفيلد.

بعد أن استسلمت لوسيندا إلى أنها لن تكرر ثانية التجربة البائسة مع رجل، تسلّمَت مسؤولية مدرسة الأحد. لم تنجب ماري جرينفيلد أطفالًا، ومات زواجها قبل وقت طويل من موت زوجها؛ قتلته الأجِنّة المبتسرة، وانعدام الثقة، والغيرة.

***

وجدت كلتا المرأتين نفسيهما وقد قهرهما رجال فهموهما بالكاد. أيقظت الريح الأرملة من نومها فتوجّهَت نحو الكنيسة. في الخارج، كانت الظهيرة تحترق في صمت، عرفت أن شيئًا ما قد حدث، فركضت إلى الكنيسة.

التعافي

التقت الأرملة جرينفيلد ولوسيندا في الكنيسة عندما جاءتا لأخذ رجليهما. الرجلان فاقدا الوعي، والسلام يعمّ المبنى. رقد قش الزّم في الممر والمقاعد منتشرة في كل مكان حوله، بدلته البيضاء مغطاة بالتراب والقاذورات، وجسده شديد الموات. وقع حوض التعميد في آخر الكنيسة وغطت المياه الأرض. أمسكته لوسيندا من كتفيه وشدته.

صرخت لوسيندا عندما لم تستطع العثور على الرسول، ثم وجدت عند المذبح، خلف المنصّة المكسورة تلًا من الأنقاض؛ ألواحًا خشبية ملقاة على الأرض، وقطعًا من القماش في كل مكان، والأرغن المكسور. من بين الأنقاض ظهرت يد قاسية تلوّح بإصبعين، قفزت على الكراسي والمقاعد مدفوعة بهلع شديد لتجد الرسول مصابًا بجرح فوق جبهته، وخطًا من الدم ينسال على وجهه.

استدارت لوسيندا ونظرت إلى الأرملة، التي كانت على وشك الخروج من الباب.

سحبت الأرملة قش الزّم عبر الباب بينما الريح تنتظر. في الخارج، تجمّعَت الغربان على برج الكنيسة والصليب، وكان الطريق خاليًا.

في تلك الليلة استعدت الأرملة لانتقام البلدة. لم تعاود إشعال الشمعة مفضّلةً حماية الظلام. اجتاح الليل البلدة خلسة، غير مكترث بأحداث اليوم.

وضعته في الغرفة التي كان من المفترض أن يموت زوجها فيها.

وفكّرَت أنها تشمُّ رائحة وجود بلاي في الغرفة الآن، وزاد هذا من اكتئابها. لم تشم رائحة وجود زوجها حتى مات. سيصيبها الرب بالحزن، لعنت الرب من بين أنفاسها، ولعنت قس الزّم الذي جعلها ترتدي الأزرق.

لم يكن نوم بلاي كالنوم، ولا كالموت. اختلف الأمر عن ذي قبل؛ عندما كان يقفز صارخًا بسبب الكوابيس ويسقط مرة أخرى في السرير. هذ مختلف؛ يداه باردتان، لكن عندما لمست صدره خفق قلبه بسرعة، معلما خفق قلبها عندما شعرت بالخوف. وضعت كرسيًا بجانب سريره وظلت جالسة هناك حتى هدها الحزن، فراحت في النوم.

مال أحد الفروع على النافذة فأيقظها صوت خدشه للزجاج، نهضت واقتربت من النافذة لترى الغربان تطير بعيدًا في الليل. لا يزال القس على نفس الحال التي رأته فيها قبل أن تغفو. يداه إلى جانبه، جسده متصلب، لكن المختلف أن عينيه كانتا مفتوحتين على مصراعيهما.

«هيكتور.. يا يسوع المسيح! هيكت..». ركضت نحوه وأمسكت يده، لكنه ظل صامتًا محدقًا في السقف.

«هيكتور؟».

لوّحت بيدها أمام وجهه، لكنه ظلّ نائمًا. حينها تمنّت الأرملة أن يتحجّر قلبها.

***

وضعت لوسيندا الرسول في الفراش، لم تكن مَهمّةً هيّنة؛ فالرسول أثقل رجل حملته على الإطلاق، أثقل من جميع السكارى الذين ساعدت أمّها على طردهم من المنزل. ملأها الأمل لأنه لم يكن ميتًا، لكنه لم يستجب لتوسلاتها أو صيحاتها، ولا حتى تلك التي وجّهَتها للرب نفسه. لطالما عزمت لوسيندا على عدم تكرار التجربة البائسة مع رجل مرة أخرى، لكن البؤس تغلب عليها، مثل طاعون أو روح عظيمة. خلعت لوسيندا النهارية سترته وحذائه، وبينما كانت تنظر إلى سرواله، ظهرت لوسيندا الليلية في قلبها.

مستلقيًا على ظهره، انتصب قضيبه مثل الجبل، تلًا أسود بين تلال فخذيه الضخمتين. أجبرت نفسها على العودة إلى الحزن، لكنها فشلت. فكّرَت في ظَهرها وفي الجلْد، لكن لم يستطع أي منهما أن يبعد ذهنها عن انتفاخه المختبئ في بنطلون أسود. صلّت على نفسها، وغادرت الغرفة.

في ظلام الخارج واجهت نصف القمر، وفي الضوء الفضي رأت لوسيندا نفسها على حقيقتها؛ وحشًا، لا مخلوقًا زائفًا متنكرًا في ثياب الكنيسة، علم القمر أنها تحدثت إلى «ساسا» وفركت صدرها بدم الماعز. الحزن أقل بكثير من الشهوة، ومثل أي خطيئة أخرى، ظهر عندما حانت الفرصة.

في الداخل، لم يتحرك الرسول. شاهدت لوسيندا صعود وهبوط صدره، وصعود أشياء أخرى لم تسقط. أخذت نَفَسًا عميقًا وأغلقت عينيها. قالت لوسيندا النهارية: سيعاقبك الرب على شرورك. وقالت الليلية: تلمّسي من أين تأتي الحياة. فجلست على جانب سرير

الرسول ولمست قدميه.

***

هذه المرة فقط، تمنّت الأرملة لو أنها تعرف أسرار الروح؛ إذ ربما يأتي ملاك ويخبرها بما حدث. هي امرأة عاقلة، رغم شعورها بالمرارة. حدّثت نفسها أنه ينبغي أن يذهب إلى المستشفى، لكن هذا مستحيل، ليس أمامها سوى هذا السرير والماء الساخن والأمل. لن تصلّي، لكنها هذا الصباح، وبينما تُحمّمه بدا كطفل عاقٍّ، رأت فيه براءة ووعدًا وضياعًا، فبكت، من أجل رجل لا يستطيع البكاء. غسلت شعره وفركت تجاعيده وشعر صدره الأبيض المجعد وغسلت قدميه، وهو لا يزال مستلقيًا على السرير. ربما سينهض في اليوم الثالث هو الآخر. لم تملك سوى الأمل لكنها لن تصلي. ومن النافذة رأت الكنيسة ومنزل جارفي، وقد غطت الغربان سطحيهما.

***

في مساء اليوم الثاني، حمّمَت لوسيندا الرسولَ من رأسه إلى أخمص قدميه بالماء الدافئ والصابون، مع أنه لا توجد حاجة لذلك؛ فرائحة جسده مثل البخور، لكن لوسيندا الليلية تعرف ما تريد. وعدت نفسها بالتكفير عن الذنب؛ لذلك سلّمَت نفسها. لم تكن صلواتها من أجل الرسول، بل من أجل نفسها. استلقى على السرير مثل تمثال يوناني سقط من صفحة في أحد كتبه، وعلى هذا الحال ظلت لوسيندا في غرفته طوال هذا الوقت.

في اليوم الأول حمّمَته وهو على السرير، ووزّعَت الصابون بالتساوي على جسده، وتجنّبت قضيبه دقيقة واحدة، ثم في

اليوم التالي مسحته بعناية بقطعة قماش مبللة بالماء الدافئ؛ خشية أن يوقظه الماء البارد. مرّرَت القماش على رقبته فشعرت بحرارته ونبضه. وجدت على جسده بقعًا ودوائر حمراء صغيرة مثل الموجودة أسفل شفتيه، كأنها جُزُر تسبح في الجلد من صدره حتى فخذه، استخدمت مواضعها لإنشاء خريطة، مع صندوق الكنز وسط جسده. تأوّه الرسول فقفزت لوسيندا، ممسكة بقطعة القماش والحوض، ونزلت من السرير. كان لا يزال فاقدًا للوعي، وإذا استيقظ الآن، فلن يكون هناك تفسير.

لكن ربما لا توجد حاجة لتفسير. همهمت لوسيندا الليلية بصوت الجوع، استكشفت عيناها الرسول: وجهه الصخري المخفي في لحيته، والندبة الحمراء تحت شفته، وذراعيه الطويلتين، حدّقَت في شعر صدره الكثيف ونزلت ببصرها مباشرة حتى منتصفه. وعندما تحرّك وتأرجح قضيبه، لمست نفسها.

***

حسمت الأرملة أمرها، ستتوقف عن الاهتمام. هذا هو اليوم الثالث ولا يزال مثلما هو في اليوم الأول. أحيانًا كان القس يفتح عينيه مثل السابق ولا يرى شيئًا. تساءلت عن نوع الكارثة التي حدثت بين الرجلين اللذين تركا الكنيسة في حالة من الفوضى، وقس الزّم فاقدًا للوعي. في الخارج، كان الطريق لا يزال خاليًا، باستثناء الرياح العاصفة ونعيب الغربان. تعلم أن السيد جارفي لا يتدخل في شؤون الفقراء، لكنها اعتقدت بالتأكيد أنه سيعيد بعض النظام الآن. لدى الرجل قوة ماسا، وربما يملك قلب أحدها أيضًا. وهو الذي أحضر

الرسول إلى هنا. أملت أن يكون الرسول قد مات، مع أنها تعلم أنه لم يفت. كان هيكتور بلاي بداخلها، رجل غبي، لكنّ غباءه أصابها بالعدوى، وجعلها تطلق على ما يحدث أسماء جديدة، مثل الإخلاص والعاطفة والرسالة. لا تعرف شيئًا عن الأرواح، لكنها تخيّلَت معركة القس والرسول صراعًا بين الجنة والجحيم، أو ربما بين الخير والشر، لكن كلمات مثل هذه لا تعني شيئًا في جيبيه. ولمدة دقيقة تخيّلَت القس سوبرمان في المسلسل السينمائي الذي يعرض في سينما ماچيستيك، ربما بلاي سوبرمان، والرسول شرير نازي كبير، وفي صراعهما بين القوى العظمى دمرا الكنيسة.

ربما أمسك بلاي بمقعدٍ وألقى به على الرسول، الذي تفاداه في الوقت المناسب ليصطدم بالمذبح، ثم مزّق الرسول جزءًا من الحائط وقذفه على القس، الذي سيمزّق القطعة إلى أجزاء صغيرة. ثم يطيران معًا ويصطدمان، بووا! أضحكتها تلك الأفكار، ثم نظرت إلى بلاي الراقد على السرير بلا حراك، وضحكت أكثر، ثم تطوّرَت الضحكة مكتومة إلى ضحكة عالية، ثم إلى نوبة من الضحك بينما تنهمر الدموع من عينيها، لم تعرف الأرملة ما إذا كانت تضحك حزنًا أم تبكي ضحكًا.

***

منذ أن حمّمَته لوسيندا آخر مرة لم تلبسه. تركته عاريًا وهي أيضًا. لا وجود للخجل. كانت سعيدة لأنه كان نائمًا.

***

في اليوم الثالث استيقظت الأرملة على صوت الخربشة. كانت

نائمة في غرفة المعيشة متجاهلة البعوض. جاءت الخربشة من غرفته، لا بُدّ أن الغربان وجدت طريقة للدخول.

«هيكتورا هيكتورا هيكت...».

وعندما نظرت وجدت على الجدار الأيسر في الغرفة كلمات ملتوية متعرّجة، تتجه لأعلى ولأسفل، وتتقاطع باللونين الأسود والرمادي. وعلى الجدار الأيمن، تدور الكلمات حول صليب أسود ضخم مثل دوامة تنتشر من الجدار إلى النافذة إلى الأرضية.

أمّا صوت الخربشة فمصدره عند الحائط الشمالي أمام السرير. كان بلاي يكتب كلمات وأرقامًا ويرسم صلبان وسداسيات وأشياء لم تفهمها. شعره مهوّش، ويرتدي فقط سرواله الأبيض المغطى بالبقع السوداء. ظلّ يكتب، غاضبًا، ملتصقًا بالحائط، ويداه تتحركان بسرعة شديدة. نظرت على الأرض فرأت أوراق زوجها كلها مبعثرة ومغطاة بكتابات بلاي وصوت الخربشة يقطعها.

«هيكتور؟».

ظلّ يكتب حتى نهاية الجدار ثم توقف. التقت أعينهما، لكن الأرملة رمشت أولًا. اقترب منها بلاي، وأسقط القلم من يديه. رأت من خلال عينيه وجهًا آخر لم تره من قبل، وجه ملأها بخوف شديد. وحين تقدّم نحوها، تراجعت خطوة خطوة. قال كأنه لا يكلمها: «اعتقدت أنهم يمتلكونه.. أنت تفهميني؟ اعتقدت أنه يريد التحرر منهم لكنهم مَن يريدون التحرر منه».

«هيكتور؟».

خرجت من البيت، وعندها فقط رأت أن غطاء الزجاجة على إطار النافذة خلفه مفقود. لقد شرب زوجها شراب الرّم من نفس الزجاجة في الليلة التي سبقت وفاته. الزجاجة التي كانت تخبئها في خزانة المطبخ. أغلق بلاي الباب.

***

في اليوم الثالث بدأت لوسيندا تُحمّمه، هذه المرة دون صابون أو ماء. فاكتشفت أنهارًا وروافد مخبّأة بين شعر صدره. تحرّكَت أصابعها لأسفل ودارت حول سُرّته، مكوّنةً دوامة اختفت داخل بطنه. استيقظ الرسول عندما سحبت أصابعها من وركه واتجهت ببطء نحو قضيبه. قفزت من على السرير، وركضت إلى زاوية ظليلة من الغرفة. أمسكت بثدييها، ونظرت بعيدًا، شعرت بوجوده عندما عاد إلى الحياة. قفز الرسول من السرير وتوجّه نحوها لكنه رأى صليبه على الأرض، وحين انحنى لالتقاطه، رأت بقعًا وندبات ودوائر حمراء على ردفيه، تشبه الندبة الحمراء أسفل شفته وعلى صدره وفخذيه.

قال يورك وهو يلتفت إليها في مكمنها الظليل: «لوسيندا، ماذا تعرفين عن شجرة معرفة الخير والشر؟».

«أغلِقوا الغرفة لتغرق في الظلام وأعِدُّوا المرآة». تردَّدَت لوسيندا في تنفيذ أوامر الرسول، لكن ليس لديها خيار آخر. على العالم أن يعرف أن قسَّ الرَّم لا يستطيع أبدًا هزيمة سيد الحشود. كان لا بُدَّ من إخبار العالم أن الرسول أصيب بجرح مميت، لكن هذا الجرح قد شُفي. شرَّت لوسيندا لأن كنيستها لم تَعِظ من سِفر الرؤيا، فهذه معركة الوحي، وهو أمر ليس لديها ما يكفي من الحكمة لتقبله. الرسول حكيم مثل سليمان، قرأ أسفار سليمان غير الموجودة في الكتاب المقدس، الحكمة الأكبر من أن يحتويها أعظم كتاب مقدس.

ليس هذا ما رأته في الأحلام. هكذا تحدَّثت إليها والدتها في أفكارها «أيتها الزنجية القحبة الشريرة، يمكنني أن أشمَّ رائحتك المريبة من هنا.. هل تظنين أنه يريدك؟ مَن يريد حولاء سوداء مُقرِفة؟».

عندما استيقظ، خطا الرسول نحوها، وتوقَّف عن قرب إلى درجة أن شعر صدره لامس جلدها وهو يتنفس. نظرت إلى صدره وهو يعلِّق الصليب حول رقبته. تاقت لوسيندا إلى أن تَنهَض رجولته، وتخترق أنوثتها. نعم، هي امرأة. نعم هي جميلة. نعم، أجمل من والدتها. بين الليل والنهار هذه هي لوسيندا الحقيقية، وسيرى. وكان جسده يضيء بصدمة الفجر ويقطر ندى الغسق. نعم، هذا رجل، وأب، ليس أباها الذي سيرحل. نعم، ستكرس نفسها للروح، له، ستسبح لروعته وعظمته. لشعره الذي ينسال حول وجهه المتعرق، ورجولته، التي ستعبدها الآن، الآن بفمها. ركعت، لكنه سحبها إلى

أعلى.

«لوسيندا»..

لم تنظر إلى وجهه. لو فعلت، لما كسرها مثلما فعل. كانت ستسمع والدتها تضحك وقد تحقّقَت النبوءة.

«ماذا تفعلين بحق الجحيم؟ يا رب اغفر لعاهرة بابل هذه. أين... لماذا أنتِ... أيها الأب اغفر... اخرجي. وارتدي ملابسك لأجل بطرس.. انظري هنا، بيني وبينك؟ لقد استيقظت للتو.. يجب أن أجعل الخمسة يطردونك من المدينة الآن، لكن... حتى لو أن هذا حب.. هل تحبينني يا لوسيندا؟ لوسيندا، هل تحبينني؟ لوسيندا؟».

«نعم، أيها الرسول».

«أنا أبني كنيستي.. عليكِ فعل الكثير للتكفير عن هذه الخطيئة الجسيمة.. هل أنت مستعدة للتكفير عن الذنب؟».

«لوسيندا»، نبّهها صوته من غرقها في الذكريات. كانت في مكتبه، لكنها مختبئة في مكانها الخاص.

قال: «اتركونا». لوّح الرسول بأصابعه فتركته في المكتب مع اثنين من الخمسة، الأخ چاكس، والأخ باتريك.

«أحضراه».

دخل الباقون من الباب الجانبي. رفض كلارنس السير خطوة واحدة فاضطر الأخ ڤيكستون، الرجل الذي جلَده، وتوني كيرتس والشماس بينكني إلى جرّه.

«كلارنس.. كلارنس. لِمَ كانت كل هذه المقاومة؟ هل تعتقد أن يديك قويتان بما يكفي لملاكمة الرب؟ اجلس».

رفض أن يجلس، مع أنه كان يعرج ويتمايل وعلى وشك الانهيار. جذبوا كرسيًا من الزاوية ووضعوه خلف ركبتيه، أمسك به توني كيرتس والأخ ڤيكستون قبل أن يقع.

«سمعت أنك كنت ترفض السماح للناس بمساعدتك..».

«سمعت أنك متّ».

«حسنًا، ها أنا ذا، مَن تصدق؟».

«كان عليه أن يقتلك».

«سوف أخبره.. والآن، يا كلارنس، ألا تعتقد أن السيدة سميثفيلد لديها أشياء أفضل لتفعلها من تطبيب الجروح التي تسبّبتَ فيها لنفسك يا كلارنس؟ لقد أصدرتَ حكمًا على نفسك يا كلارنس، لا تنسَ ذلك.. انظر إليّ».

في البداية رفض، لكن لاحقًا علا الاستغراب وجهه. تفرق الخمسة في اللحظة التي ابتعد فيها كتفا كلارنس عن الرسول، التفت رأسه في الاتجاه الآخر، وتكوّر على نفسه، ثم خانه فكُّه والتوت رقبته، وبدا وكأن وجهه يتمزّق إلى قسمين؛ ساعتها تخلى كلارنس عن المقاومة.

«قلت لك.. انظر إليّ.. لا يوجد ما يمكنك فعله، كما تعلم يا كلارنس، لا يوجد هنا سوى سيد واحد».

وضع الرسول كرسيه أمامه وجلس.

«أنا قَلِقٌ عليك يا أخي لأنك لا تتعامل مع شرائع الرب بحكمة على الإطلاق.. ما هذا الذي سمعته عن التبول في سرير السيدة سميثفيلد؟ وأنك تبصق الحساء في وجهها؟ تخيّل امرأة كبيرة مثلها ورجل كبير مثلك وعليها تنظيف برازك لأنك لا تريد استخدام المرحاض.. الأسوأ من ذلك يا كلارنس، الأسوأ من ذلك كله، أنك لا تدعها تعالج ظهرك. أستطيع أن أشم رائحته الآن؛ القيح يمتدُّ.. لكنك لا تهتم، أليس كذلك؟ أتعتقد أنك تنتقم من الرب القدير.. أتعتقد أنك ستقتل نفسك فقط وتتركه يشاهد.. أتعتقد أنك سترفض حكم الرب؟ هذا ما حدث يا كلارنس، حكم الرب، وهو يؤدب من يحب.. هل تعتقد أنني أحبك يا كلارنس؟ كلارنس، لقد طرحت عليك سؤالًا.. كلارنس، هناك طرق.. كلارنس، الرب سئم..».

بصق كلارنس البلغم الذي تجمّع في فمه، فطال أنف الرسول. لم يكن الأخ ڤيكستون بحاجة إلى أي إشارة ليضرب كلارنس على مؤخرة رقبته ليسقط من الكرسي صارخًا. مسح الرسول وجهه.

«أمسِكوا به».

معزّزًا بعجرفته كافح كلارنس ضد الخمسة، لكن الشماس بينكني غرس إصبعه في ظهره فصرخ مجددًا، ثم حرّر نفسه من بين أياديهم وجلس على الكرسي.

انحنى الرسول على كلارنس قائلًا بهدوء: «كلارنس، لقد سامحتك.. أنت لا تعرف ماذا تفعل.. ولا تعرف ماذا بإمكاني أن أفعل بك.. لا يزال هناك جانب من جسدك لم يُجلَد بعدُ».

تراجع كلارنس.

«لا يوجد سقف لما سأفعله من أجل الرب.. أنت تتنفس الآن بفضل رحمة الرب ونعمته، لأنه إذا كان الأمر بيدي، لتغلّبث على ضوء النهار الحي...». رفع الرسول يده ليضربه، فجفل كلارنس مرتجفًا.

«انظر إلى حالك.. كأنك كلب يخاف سيده». ثم انحنى على كلارنس مرة أخرى هامسًا: «هل أنت مستعدٌ للذهاب إلى الجحيم؟ هل تعتقد أنه بمجرد وصولك إلى هناك يمكنك العودة؟ حسنًا، أخي العزيز، أنت بالتأكيد في طريقك إليه.. هذا ما يدفعك إلى الجحيم!».

لم يكن الخمسة يتوقعون ذلك أيضًا. قفزوا حين قام كلارنس، لكن الألم الهائل سحقه وطرحه أرضًا. أمسك اثنان منهم بذراعيه، فلم يستطع فعل شيء سوى الصراخ. بللت الدموع رموشه وانسالت على وجهه، حين شدّد الرسول قبضته على خصيتيه.

«قال الرب إن أعثرتك يدك اقطعها.. ماذا تعتقد أن عليّ أن أفعل بك يا كلارنس؟».

هز كلارنس رأسه محاولًا أن يقول شيئًا. تشكّلت الكلمات في ذهنه، وتراكَمَت الأفكار، كل فكرة مرعبة أكثر من الأخرى، لكنها فشلت في تجاوز فمه، فشعر بالاختناق.

«هكذا أتمكن منك يا كلارنس.. أنت في قبضة يدي.. استمر في هذا التحدي الآثم وسوف أنسى نفسي وأسحقك.. هل سأواجه مشكلات معك؟».

هزّ كلارنس رأسه مرة أخرى. تمكّن فقط من نقل نظره برعب

بين رِجلَيه وعيني الرسول. فعل الرسول فعل السحر، فلم يستطع التحرك.

«جيد». أطلق الرسول قبضته. ثم قال للخمسة: «اتركونا الآن.. لكن أشعِلوا النور».

جفل كلارنس في الضوء الذي أشعله الخمسة قبل أن يغادروا، وعندما أغلق الأخ ڤيكستون الباب، هزّه الصوت فارتجف.

«انظر إلى حالك.. تعتقد أنك رجل، لكنك بالكاد صبي.. انظر إلى حالك».

حدق كلارنس في الأرض وهو يشعر بتحزُّر عضلاته وأطرافه. تلاشى ألم بطنه، وبدأ يتماسك. وقف الرسول ووضع يده على رأسه: «كلارنس، الرب لديه خُطَطٌ لك، لكن الشيطان لديه خطط لك أيضًا.. هل سبق وفكّرت فيما فقدته بسبب ضعفك؟ كان عليك أن تجلب هذا الضعف إلى الملكوت.. الشفاء موجود في الملكوت كما تعلم يا كلارنس.. الشفاء التام».

شعر كلارنس بحكّةٍ في جزء صغير من ظهره، ثم ازدادت الحكة سوءًا، وطالت كل ظهره. وبدأ يشعر بشيء واحد، أو أشياء كثيرة، تتحرك على ظهره حتى ظنّ أنه سيُجَنّ. زحفت الحكة حتى طرف كتفه، ثم عادت إلى أسفل، متجوِّلة في ثقوب جلده. لقد لعنه الرسول بالثعابين. حاول الصراخ لكن الخرس أصابه مجددًا، لم يستطع التحرك، فسقط متشنجًا وقد تجمّدَت أطرافه. بدا الرسول على يقين. حكت الثعابين بطونها الحرشفية على ظهره، وتحت قميصه، وهو متحجر على الكرسي، رجلاه على الأرض، يبكي بكاءً مكتومًا.

مثل ورقةٍ حمله الرسول إلى المرآة: «إنها معجزة الشفاء يا كلارنس.. الشفاء التام». حاول كلارنس الكلام، لكن الرسول لمس شفتيه وأسكته. ثم أمسك بأطراف قميصه وسحبه منها. لا يرغب في رؤية الثعابين، لكنه لم يستطع الحركة. رفع الرسول مرآة يد أمام وجهه، وعندما رأى ظهره سقط فكُه مذهولًا؛ لا توجد ثعابين؛ لقد شفت أخاديد الجروح في ظهره نفسها، انغلقت الجروح كالسّحاب واختفت في نعومة جلده. بكى حين رأى ظهره دون أي أثر للجلد.

«هل تريد معجزة الشفاء يا كلارنس. هل تريدها؟».

حدّق كلارنس في ظهره غير مصدّق. رمى الرسول المرآة وقال: «اتبعني.. يمكنني أن أقودك إلى ما وراء الألم، وما وراء الخطيئة، وما وراء المعجزات.. أنا الطريق يا كلارنس.. أنا الطريق.. أبعد من كل شيء فكّرتَ فيه عن نفسك.. أبعد من الطبيعي.. أبعد من الواقع.. في كل مرة تستخدم فيها هذا الثعبان في سروالك تعتقد أنك تقتل الشيطان بداخلك.. تعرف طبعًا عن أي شيطان أتحدث.. الشيطان الذي حاولت قتله منذ أن كنت في الثانية عشرة.. الشيطان بداخلك الذي كان يسترق النظرات إلى ما بين ساقي الآن وأنا جالس أمامك.. لن تقتله أبدًا.. لا بالألم ولا بالخطيئة.. أيًا كان عدد المرات التي ضاجعتَ فيها نساء، فلن تقتل أبدًا رغبة قلبك الحقيقية».

لمس الرسول خصيتي كلارنس مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يقبض عليهما. ثم قال وهو ينظر من الباب المفتوح: «لوسيندا، بلّغيهم أن يذهبوا إلى منزل چونسون.. أوه، ولوسيندا، بلغيهم أن يحملوا السيوف المقوسة».

عندما وصل الخمسة إلى منزل چونسون وجدوا الباب مفتوحًا بالفعل. الداخل مظلم، وفي مؤخرة المنزل مستطيل من الضوء. عبروا المنزل متتبعين الضوء في الخارج، ليجدوا السيدة چونسون في أسفل الدّرَج، ظهرها ينزف، وذراعاها ملفوفتان حول نفسها، تتأرجح يَمنةً ويَسرةً، وتغمغم بما بدا وكأنه ترنيمة. همس النسيم عبر الأشجار، نظروا إلى أعلى، ورأوا سبب اصطحابهم للسيوف، فقد رأوا چونسون يتأرجح متدليًا من حبل مربوط في غصن مرتفع، وهو يرتدي زيّه العسكري المموّه من الحرب العالمية، ذراعاه ساكنتان وحبل المشنقة ملتف بإحكام حول عنقه، وتحت الشجرة كرسي أزرق مقلوب. هبّ النسيم مرة أخرى فتمايل جسده متأرجحًا.

اليوبيل

في الثامنة والنصف مساءً امتلأت الكنيسة في ليلة بلا قمر، جاء معظمهم بسبب المعجزة، قالوا إن قس الرّم قتل الرسول فمات، لكنه قام في اليوم الثالث، وسوف تُدلي لوسيندا بشهادتها. هي تحب الرجل، ولا تستطيع أن تفعل أقل من ذلك.

على الطريق غرق منزل الأرملة في الظلام؛ لم تشعل شمعة، ولم ترَ قسّ الرّم منذ اليوم الذي استيقظ فيه؛ فقد أغلق عليه بابه من الداخل.

عزف عازف الأرغن ترنيمة واحدة على الآلة التي تعرّضَت للكسر. ليس هذا وقت التسبيح والعبادة، الخطبة مهمة للغاية الليلة. لم يستطِع أحد الحصول على تلميح من لوسيندا أو الخمسة. بدا كلارنس مليئًا بالأسرار، وهذا ما فاجأ معظم الناس.

يبدو أنه قد تلقّى معجزة، على الرغم من أنه لم يشهد. كلارنس على المنبر، في مكان لم يُسمح قطُّ للوسيندا بالوجود، وأثار ذلك تساؤل الكثيرين، مرتديًا ملابس الأحد: بدلة سوداء وقميص رمادي بأزرار بنية تتناسب مع بشرته، لكنه هنا فقط للإلهاء، فليس هو مَن أتوا لرؤيته.

ثم ظهر، لم يره أحد يخرج. انتفخت أرديته السوداء والحمراء على الرغم من عدم وجود رياح، وقد نزع الشعر عن وجهه. ثم نشر ذراعيه على نطاق واسع فبدأ عازف الأرغن يعزف.

صاح يورك: «هللويا! هللويا! النار الآكلة! النار الآكلة! ليتمجد الرب،

أيها القدّيسون لقد عُدتُ إليكم! جاء الشيطان ليسرق ويقتل ويدمر، ولكن لا، ردّدوا خلفي، لا!».

«لا!».

«لا!».

«هذا ما قلته للشيطان في حفرة الظلام.. أخبرته أنني أرفض الموت على يد الخطيئة وأقبل حياة الآب.. حاول الرجس أن يقضي على المؤمنين، لكن الحمد للرب، لا زلت هنا! أنا لا زلت هنا! لا زلت هنا.. وأنتم أيضًا. لكن أوه، هل حاول أن يؤذي رسولكم. أوه ساكارا، جانجا، هوسيفا.. هل حاول هو وأعوانه قتل الشخص الذي عيّنته.. لقد فعل ذلك، ولكن بنعمة الرب ضربته مرة أخرى. كان يجب أن تراني يا ڤيكستون.. أنا فقط أقول.. ضربته بدرع الإيمان، ثم طرحته أرضًا بخوذة الخلاص، ثم أتعلم ماذا فعلت بعد ذلك؟ أتعلم ماذا فعلت؟ قتلته بسيف الروح».

«الحمد للرب! ليتمجّد الرب!»..

«النار الآكلة!»..

«سيكورسا، راكتوك!».

قال الرسول بهدوء: «لكن... ليتمجد... قلت ولكن! لقد قتلني أيضًا.. لكن مجّدوا الرب.. أين القس الآن، ها؟ أين شوكتك أيها الموت؟».

«هللويا!»..

«ليتمجد الرب!»..

«والآن اسمعوني جيدًا.. عندما كنت نائمًا، أراني الرب أشياء جديدة.. وحي جديد مثل يوحنا.. جيبيه، لقد أخبرتك أن هذه حرب.. نحن نخوض الحرب.. على كل رجل وامرأة ارتداء الدروع.. مَن مستعدٌ أن يُذبَح من أجل الرب؟ مَن مستعد للدخول في الملكوت؟ أراني الرب عندما كنت ميتًا.. حان الوقت لتصبح جيبيه جادة وإلا ستهلك».

«لا، أيها الرسول، لا!».

«أبونا في الفردوس».

«مَن هنا يريد أن يموت؟ مَن هنا يريد حقًا أن يُشوَى في بحيرة النار، ها؟ هذا هو المكان الذي تتجه إليه جيبيه.. هذا هو المكان الذي تتجه إليه الليلة إذا لم تعُد إلى الرب. لقد قلتها من قبل وسأقولها مرة أخرى، إذا أعثرتك يدك اقطعها.. إذا رأيت الخطيئة، اجتثّها! اجتثّها! اجتثّها! أوه، أعلم أنني أعِظ شخصًا ما الليلة، هللويا.. يا جيبيه، الرب منتقم لكنه أيضًا رحيم..

يمكننا إقامة الجنة هنا على الأرض.. ألا ترغبون في جنة على الأرض، سيدة فراكاس؟ مَن لا يريد الجنة؟ ارفعي يدك. ماذا لو أخبرتك أن الرب أراني كيف تكون الجنة في جيبيه؟ هل تريدين الجنة يا سيدة سميثفيلد، هل تريدين الجنة؟ وأنت في الخلف، ماذا عنك؟ سيداتي هل تُرِدن الجنة؟».

«هللويا!».

«حسنًا، يمكنكم إقامة الجنة.. سيمنحكم الرب الجنة.. سيمنحكم

الرب إياها الليلة.. لكن ينبغي أن تكونوا مستعدّين..

سأوضح لكم الليلة كيف تستعدون.. المس الشخص بجانبك وقُل استَعِدّ. الآن، المسه وقُلْ الرب هنا في هذا البيت.. جيد.. جيد. استعدوا.. أول ما سنفعله هو القضاء على كل الملهيات في جيبيه.. لذلك من الآن سنتعبّد كل ليلة.. المس من بجانبك وقل كل ليلة.. من الليلة لا أريد أن تجتمع أي عائلة معًا.. لا أريد أخًا بجانب أخت.. لا أريد زوجًا بجانب زوجة.. لا أريد أن ينصرف أي شخص عن عمل الرب بالتفاصيل الجسدية.. لا أريد أن يشتّت انتباه أي شخص بإيجار سيدفع، أو بطفل يحتاج إلى صفع.. كل شخص في هذه الكنيسة هو أخ أو أخت، نحن جميعًا عائلة.. أتوقع أن يكون الجميع في الكنيسة كل ليلة.. الرب لا يبالي إن كنتم مرضى.. تعالوا إلى الكنيسة، مجّدوا الرب.. في بعض الليالي، أريد أن يتعبد الرجال وحدهم كأخوة، وفي بعض الليالي أريد أن تتعبّد النساء وحدهن كأخوات.. قُلتها من قبل وسأقولها مرة أخرى، الشيطان يجول مثل أسد يزأر يبحث عن أناس يلتهمهم.. لا أريد رؤية وجه غريب في جيبيه مرة أخرى.. أول مَن سيعبر ذلك الجسر سيكون الشيطان المتخفي.. تذكّروا كلامي، إذا تركنا الشيطان يمر، سيصيبكم ما هو أكثر من العجول.. أتعلمون لمن يأتي الشيطان؟ لأطفالكم.. إنه يطلق عليكم وابلًا من النيران مثل دبابة ألمانية.. لقد رأى الخير الذى يفعله الرب ويريد أن ينتزعه لنفسه.. لكن ماذا نقول عندما يأتي الشيطان ليسرق؟ ماذا نقول؟ لا أسمعكم جيدًا. لا!

لقد رأيتم جميعًا المعجزات.. لقد رأيتم جميعًا العلامات والعجائب.. لقد رأيتم القيامة.. هذا لأنني القيامة.. أنا القيامة! أنا مبعوث الرب..

لا أحد يستطيع أن يصل إليه إلا من خلالي.. لقد أنقذتكم من السحر.. كسرت اللعنة التي حلّت بجيبيه.. طردت كل الشياطين إلى الجحيم.. الرب في يديّ.. انظروا وارتعدوا!».

اللاويُون

هذا لغزنا وذاك لغزنا. أعتقد أن هذا لغزنا وربما لا. چاك سبرات لا يستطيع أكل الدهون. لذلك يأتي الشيطان ويأخذه. هذا ما حدث.

على مَن إذن سيُطبّق الحُكم بعد ذلك؟ على مَن؟

على مَن سيطبق الحكم؟ على مَن؟

يمكن أن تكون هي، ويمكن أن تكون أنت. ليس صحيحًا.

إذا ليس عليها فعلى مَن؟ عليكَ؟

سيطبق الحكم على سينما ماچيستيك حيث تكثر الخطايا. يطبق الحكم بالنار والكبريت. والآن لم يعُد لدينا المزيد من صور الشيطان. يأتي الشيطان كأسد يزأر، لكن الرب يزمجر بصوت أعلى، وتسقط ماچيستيك في النار.

احكُم عليهم اثنين اثنين. على مَن؟

احكُم عليهم اثنين اثنين.

إنها دينونة العرش الأبيض. ينفذ الحكم على السيد والسيدة چونسون، عاهرة بابل التي تتربّى جيدًا الآن، وعلى ظهرها ندوب تشبه شبكة العنكبوت.

تفتح فرجها لرجل آخر. تدنّس فراش الزوجية بالزنا.

سوف تحترق في الجحيم حيث سيضعون مذراةً في فرجها.

هللويا.. المجد للرب الذي أنزل بها حكمه غاضبًا. مات زوجها مثل

يهوذا.

الرب منتقم ورحيم. ينتقم من كلارنس، ثم يرحمه.

كلارنس والرسول، أقرب من الأخوة. هما اثنان هما اثنان.

قبل مدة نزل الحكم على رجل الآلة الذي كان يضاجع البقرة. نزل الحكم بالبرق والرعد. سِفر اللاويين، الإصحاح العشرون، الآية الخامسة عشرة.

نزل الحكم على ماسا فيرجي؛ شريك رجل الآلة في الخطايا. *من ثمارهم تعرفونهم.* فَضَحه البرق. *مَن اضطجع مع بهيمة يقتل قتلًا.*

عليكم قتل الوحش.

رجل مع بقرة، ثم اثنان.

احكُم عليهم اثنين اثنين.

نزل الحكم على مَن جالَسوا قسّ الرّم. كان العدد ستة، والستة يساوي ضرب ثلاثة في اثنين.

احكم عليهم اثنين اثنين.

نزل الحكم على قس الرّم والأرملة العاهرة. هما في البيت يرتكبان الخطيئة. هما في البيت يتلقّيان الأوامر من الشيطان بعلزبول. عرش الدينونة الأبيض سيحطم سقفهما. سيحطم كل شيء.

نزل الحكم على قس الرّم، عن كل إثم اقترفه.

نزل الحكم على ما يفعله الرسول.

قس الزّم ضرب الرسول وقتله. لكن الرسول قام بعد ثلاثة أيام. وتغلّب الخير على الشر، وتغلب الأبيض على الأسود.

الرسول طريق الحق والنور. يرسل الرب إشارات وعجائب. الرب يرفع الرسول ويضعه عن يمينه. وسينتحب قس الزّم ويندم.

والأرملة كذلك.

احكم عليهم اثنين اثنين.

لكن أكبر حكم على الإطلاق سينزل بالبيت الأسود. بيت سدوم حيث خيمة جيبيه المنحرفة. بيت الخطيئة حيث تجرى أنهار الهلاك. من خلاله تأتي كل الخطايا. من داخله ومن خارجه تقع كل الخطايا.

الشخص الذي يسمُونه السيد جارفي. ألقوه في النار لأنه يضاجع المؤخرات.

ألقوه في النار لأنه يعتقد أنه أفضل منّا.

أطلَقوا النار عليه لأنه مروزُ جَمَلٍ من ثَقب إبرة أيسَرُ من أن يَدخل غنيٌ إلى ملكوت الرب.

الرب يحكم على الأغنياء أيضًا. لسنا نحن من نحكم، لا أنا ولا أنت.

نحن لا نعرف ما يجري. لم يقُل الرسول شيئًا عن هذا البيت بعد.

لا بُدّ وأن الخطيئة تُقترَف فيه وإلا فلن يُكلّله السواد. انظروا كيف تقف الغربان على سطحه.

قريبًا سينزل الحكم بالبيت. الغربان تعرف.

لديه ستة أبناء لا يشبهونه. لا يكبرون، يا للغرابة!

على الرجل أن ينجب أولادًا. وهم يحتاجون إلى أم. إنه يخطئ مثل أونان ويبذر منيّه.

لكن الرجل الغني يفعل ذلك؛ لذلك أُرِنَا عمل الرب فيه. عندما ينزل به الحكم سينفذ.

احكم على الشاذ وقس الزّم.

احكم عليهم اثنين اثنين.

على مَن إذن سينزل الحكم بعد ذلك؟ على من؟

على من سينزل الحكم؟ على من؟

ربما أنا، ربما أنت.

القدم المشقوقة

أصدر الرسول مرسومًا بإبادة جميع الأبقار بالفؤوس والنار، لم يفهم أحدٌ المرسوم، بمن فيهم كلارنس الذي تولى مهمة إبلاغ الناس. ثم أصدر الرسول مرسومًا آخر: من المقرر ذبح وحرق جميع الأبقار والماعز قبل يوم الأحد، كل الماشية باستثناء الخنازير.

كان الثور الأول قاتلًا عنيدًا، حياته وإرادته متّحدتان مثل الخطيئة وتبعاتها، مثل سدوم وعمورة. رأى الثور ما يكفي من البشر فصار لا يكترث لهم، لكنه شخر عندما رأى البصيص القاتل للسيوف والفؤوس. في البداية استدار، فلم يتمكّنوا منه، ثم ركض، ثم طُعِن في مؤخرته، فوقع مثل زهرة ذابلة. وضُرب الثاني مثل لصٍّ منتصف الليل، قطع ذيله وشُلّ توازنه. ثور آخر ضُرِبَت رجله الخلفية اليسرى فانهار. انهالت الضربات على الثيران مثل المطر.

تجاهلت الأرملة باب القس، جلست قبالته طوال الليل، تنام على كرسي بذراعين، وتستيقظ حين يسقط ذقنها على صدرها. حدّقَت في زُرقة الباب من خلال ضباب عينيها اليقظة بالكاد، وفكّرَت في قس الرّم الذي ربما ليس نائمًا، ربما لا يزال يكتب على الأرض حتى الآن، أو ربما على جلده. ليس ثمة عودة؛ لقد جُنّ تمامًا، لكنها تملكه الآن، وكلما تركت نفسها شعرت كأنها أمٌ، وعاشقة. تعامَلَت الأرملة بالسخرية والازدراء التي بالكاد استطاعت استحضارهما، حاولت أن تكره، لكن الكراهية خرجت كأنها شفقة، حاولت أن تلعن، لكن اللعنة خرجت كأنها صلاة. كان بداخلها، لكنها اعتقدت أنها كرهته؛ إذ ينبغي على جميع النساء أن يكرهن الرجال الذين حطّموهن. مَن هذا اللقيط

الذي حلّ بمنزلها بالقليل جدًا والآن لديه أقل من ذلك؟ لكن هذا لم يشمل قلبها، مع أنها لن تعترف بهذا أبدًا. الرجل الذي فقد عقله، مثلما فقد حياته، غير قادر على الإيذاء أو الوعد، لكنه جرحها، تدفّق الألم في موجات عبر الباب الأزرق الفاتح. هل يكتب عنها؟

في الخارج، استيقظ الأطفال على صراخ الماعز.

أعدّت له الإفطار، وهي تعلم أنه سيُتركَ دون أن يُمَسّ. وانتظرت حتى الحادية عشرة. ستقابل الأرملة جرينفيلد الرسول. تعرف أنه قوي وبلاي ضعيف، وربما يستمع إلى مناشدتها. تجاهلت الأشجار والرياح التي تهمس بحمقها.

كان الشارع خاليًا، لكن عند مدخل الكنيسة وقفت لوسيندا كأنها تنتظرها.

«أنا هنا لأرى يورك..».

«بالنسبة لك هو الرسول».

«أنا هنا لرؤيته».

«يا سلام! ما الذي يجعلك تعتقدين أنه يريد أن يراك؟ وأنت عاهرة بابل، كما يقول عنك».

«لم آتِ إلى هنا للشجار معك».

«إذن، لماذا أتيت أيتها العرثارة؟ اقتربي، يمكننا الجلوس والحديث». حين وقفت لوسيندا هكذا، وذراعاها في خاصرتيها، تذكّرت الأرملة آخر مرة كانا فيها بهذا القرب. قبل وقت طويل، قبل

أن تجيء لوسيندا تحت المطر لإبلاغها بأن بلاي مدعوٌّ للعودة إلى الكنيسة. قبل أن تصبح الأرملة زوجة بوقت طويل، وتصبح لوسيندا أختًا. قبل وقت قصير من زواج الأرملة، عندما حذرت لوسيندا من الابتعاد عن زوجها المستقبلي بلكمها في وجهها. وجدت لوسيندا نفسها تحب السيد جرينفيلد بعد أن مارس الجنس معها، وتركها قرب النهر.

في ذلك الوقت، تعهّدَت بأن ماري بالمر، عدوتها منذ الطفولة، ستتزوج من رجلها على جثتها. رقدت في سريرها، ممسكة بوسادة، تدفع بموزة خضراء داخلها، وتتخيل السيد جرينفيلد يبللها بعرقه. سيتزوج ماري على جثتها.

سمعت الأرملة هذه الشائعات، التي أشاعتها لوسيندا بنفسها، «كيف يخور مثل البقرة عندما يكون قضيبه منتصبًا وجاهزًا للمضاجعة.. وكيف أن قضيبه مُعوَجٌ لكنه كبير». ثم سَرَت شائعات بأنه سيشتري منزل ماري من السيد جارفي ويهديه إلى لوسيندا. لم يَكفِها الشائعات، بل ظلّت تظهر أينما ذهبَا، تقهقه على نكات السيد جرينفيلد، وتتنهد قائلة كم كان عاشقًا رائعًا.

لم تعرف جيبيه ما الذي ينبغي أن تفكر فيه، خصوصًا عندما انتشر الخبر أن لوسيندا، وليست ماري، هي التي ستتزوج. ولما رأت والدة لوسيندا العار الذي تجلبه ابنتها لاسمها، تبعتها وهي تطارد الزوجين إلى محل البقالة، وأمسكتها من شعرها، وسحبتها حتى البيت وهي تضربها.

في الأسبوع التالي لقيت والدتها حتفها، غرقت في نهر العذراوين،

بعد أن دفستها قدمُ ابنتها تحت الماء. أبلغت لوسيندا، التي انتظرت طول حياتها لتصفيف شعرها، مصفِّفَ الشَّعر أنها بحاجة إلى تسريحة شعر من أجل الجنازة وحفل الزفاف.

تذكَّرَت لوسيندا ذاك اليوم. هي جالسة على كرسي مُصفِّف الشعر وماري تخطو تجاهها، ربما قالت بعينيها الحولاوين «اتركي لي الرجل»، وربما لم تفعل. تخيَّلَت أن الأرواح فقط هي مَن تستطيع التحرك بهذه السرعة. تذكرت قبضة ماري وهي تسرع تجاه وجهها، ثم حلَّ الظلام. تركت اللكمة دائرة منتفخة حول عينها تنبض عندما تلمسها.

تذكَّرَت المرأتان آخر مرة كانتا قريبتين جدًا، وأدركتا الآن أن مراكز القوة قد تغيَّرَت. رفعت لوسيندا ذقنها ونظرت إلى الأرملة.

«الرسول لا يتعامل مع آثمة مثلك».

«يمكن للرسول أن يتحدث عن نفسه يا لوسيندا».

رأت الأرملة وجه كلارنس وهو يتجه نحوهما، فشعرت بالأمل والضيق، وكما هو الحال دائمًا، عيناه منتفختان كأنه استيقظ للتو. تعرف المرأتان أن تلك الملابس ليست ملابسه. حدَّقَت الأرملة في لوسيندا وهي تتخطَّاها وتتبع كلارنس داخل الكنيسة. سارت في الممر وهي تشعر بالغربة حتى قبل أن يظهر الرسول، وأملت أن يكون هذا هو كلارنس نفسه، الرجل الذي أحبَّته عندما كانا صغيرين على الرغم من محاولاته الدؤوب للعبث قسرًا بمكامن أنوثتها. لكن كلارنس خطا بتصميمٍ يعزِّزه صمته. هذا ليس كلارنس الذي عرفته، لم تحمل خطواته أي أمل، عند الباب تركها.

لم تسمع نداءً، فدخلت. الرسول على مكتبه، يدوّن شيئًا في كتاب أحمر كبير يشبه الكتاب المقدس. «حسنًا، ما الذي يمكنني فعله للأرملة؟».

أحست بالاستهزاء في نبرته، ونظرت يسارًا ويمينًا، خشية أن يظهر الخمسة في أي لحظة.

«حسنًا؟».

«سيد يورك..».

«أفضّل أن تناديني بالرسول».

«الرسول.. أيها الرسول يورك. أنا.. أنتَ.. كنتُ.. كنت.. كنت..».

«أستقولين شيئًا أم لا؟».

«بشأن القس».

«تلك البقعة الخبيثة على جدار الكنيسة.. ماذا عنه؟ أهو بخير؟ أهو نائم؟ أهو في السرير؟ هل تعافى ذلك الشيطان من محاولة قتلي؟».

«إنه..».

«هو... حسنًا، يا امرأة، لا يمكنك تكوين جُمَل من كلمة واحدة فقط.. ماذا تحاولين أن تقولي؟ هل تحاولين أن تسأليني شيئًا ما؟».

«أعلم أنك أقوى وهو أضعف منك».

«نعم، لقد جعل الرب قوتي كاملة في ضعفه.. هذا مكتوب، على أي حال.. أطفال الظلام ليس لهم سلطان على طفل النور. وهو لن...».

«دعه وشأنه».

«عفوًا؟».

«دعه وشأنه.. أطلب منك أن تدعه وشأنه».

«فيم يفيدك؟ حسنًا.. أستطيع أن أتخيّل».

«أنا لم أقل شيئًا».

«بل قلتِ.. لقد وشى ترذُذكِ بما هو أكثر من الكلمات.. يبدو أن بلاي يمارس في السرير ما هو أكثر من النوم».

«لا! ليس بيننا شيء».

«إذن ماذا يفعل معك؟ لقد أدّيت عملك الصالح.. كان على شخص ما أن يفعل.. والآن حان الوقت الآن، لتركه لقضاء الرب أو لرحمة الرب.. مَن يدري!».

«لكن سيدي الر..».

«أيها الرسول..».

«أيها الرسول.. هو ضعيف، كما تعلم.. إنه ضعيف جدًا.. لا يستطيع أن يفعل شيئًا لك.. لا يستطيع حتى أن يمسح مؤخرته.. لا يستطيع القس بلاي أن يزعجك أكثر من ذلك.. لا يستطيع حتى أن يفعل شيئًا لنفسه. فقط دعه وشأنه.. أنا... أشعر بالشفقة عليه».

«تشعرين بالشفقة على كلب ضالّ، لكنني لا أسمع نباحًا قادمًا من غرفة نومك. ربما يجب أن أستمع لشيء آخر».

«لا توجد خطيئة في منزلي».

«كلنا نخطئ يا ماري.. هذا ما يجعل الفداء أحلى».

«فقط دعه وشأنه».

«ليس ممكنًا.. أتعرفين ماذا يعني ليس ممكنًا؟ بالطبع لا، لم يذهب رأسك الزنجي إلى مدرسة كينجستون قطُّ، يعني أن ما تطلبينه غير وارد.. ما بدأه الرب سيرى إتمامه.. لا أمل لهيكتور بلاي، وربما يكون هذا لصالحك».

«ماذا تقول؟».

«لقد سمعتِني.. انظري، هذا ما يقوله الرب. سلِّميه.. والآن اذهبي إلى المنزل وأخرِجيه على الفور.. اسحبيه للخارج، اطرديه، ادفعيه للخارج، أخرجيه مثل الزِّمّار.. سلِّميه لي».

راقبته وهو يقوم، وينظر إليها كما لو كان سيقترب منها، ثم يجلس مرة أخرى.

ثم قالت: «لا». واستدارت لتغادر.

«لا تحكمي على نفسك بالجحيم معه.. أنا أعطيك فرصة للحياة، والحياة أكثر وفرة.. سلِّميه إليّ».

«لا».

في المرة الأخيرة التي أراد فيها الرسول بلاي، أرسل رجاله ليأخذوه. لكنه الآن يطلب منها تسليمه.

«لن تطلب ذلك مني إذا كنتَ تستطيع الحصول عليه بنفسك».

«يمكنني أن أنزل جحيمًا بذلك المنزل الملعون الآن! إلى أين تذهبين؟ كيف تجرئين على تجاهلي أيتها العاهرة.. كلارنس!».

اندفعت الأرملة من أمام كلارنس ولوسيندا وركضت نحو منزلها.

صرخ الرسول مرة أخرى «كلارنس!» فركض هو ولوسيندا إلى المكتب، لكنه عندما دخل، أغلق الباب في وجهها.

أغلقت الأرملة بابها الأمامي. هيكتور بلاي لا يزال في غرفته، وقد منحتها المعرفة شيئًا لن تعترف به أبدًا حتى تطمئنّ؛ الرب يعمل من خلاله ويعمل من خلالها. جلست أمام الباب وانتظرت، انتظرته، وانتظرت الخمسة، وانتظرت الرسول والشيطان.

الرائحة

دخَلَت لوسيندا منزلها وأغلقت الباب بإحكام. أشعلت شمعة، لكن عندما بدأت الظلال ترقص أمامها، أطفأتها. في الكنيسة، أغلق كلارنس الباب في وجهها، وضرب أنفها، فغضبت، لقد كان الرسول لها أولًا، وهي مَن هيّأت الطريق، هي يوحنا المعمدان، وكلارنس مجرد مجدلية بقضيب. انزعجت لرؤيتهما معًا؛ تطابق جماله مع جمال الرسول، فبدَوا مثل أخوين أو زوجين أو ملاكين ملتصقين. لا بُدّ وأن فيها شيئًا ما يغضبه، أو يجعل هذا الرجل يرضيه أكثر.

همست لوسيندا النهارية بشيء عن رائحتها؛ كيف لم تشم نفسها من قبل؟ الرائحة التي تلطّخها، رائحة الشاي التي عرف أنها شربته. ماذا يريد؟ طلب منها أن تكون تقيّةً، ثم طلب منها أن تتكلم بهتافات أرادها للرب، أرادها لساسا، والآن لا يريدها على الإطلاق. اقترب منها، ولم يمنحها أسرارًا، صحيح أنها لا تزال مساعِدَتَه، لكنها شعرت أنها خارج مجاله. ربما أراد الجمال الذي لا تملكه؛ لذلك أبعدها مثل شيء عزيز لكن كريه الرائحة.

لكنها مُصمِّمة على أن تدخل أقداسه. ستمزِّق الستائر الحمراء مثل الحافة الحمراء الجريئة لقض.. لا، لن تفكر في مثل هذه الأشياء. لقد أراد الرسول نوعًا مختلفًا من العبادة. شيء بدا أن كلارنس قد فهمه بالفعل. لا يهم، ستؤدي أداءً أفضل من ذلك الرجل الجميل، لكن الغبي لم يحسبها جيدًا. سوف تتخلص من الرائحة. الخل. تخلّصَت من الجِرار الحامضة التي تحفظ فيها جلود السحالي ومخالب الكلاب؛ لكن الرائحة بقيت. فأدركت أن الرائحة موجودة في كل مكان. في

لهب الشمعة التي أعادت إشعالها، وفي صوت الندى المتساقط، وفي صرخات حشرة السيكادا الحادة، والأضواء الصغيرة لليراعات التي ترقص حولها مثل نجوم صغيرة. الوجود كامن في أسرارها، وقد عرف أنه حتى في النهار ففي قلبها ليل أسود كالقطران.

قالت لوسيندا: «أنا لا أعرف كيف حدث ذلك أيها الرسول.. كنت أطبخ العشاء، ثم اشتعلت النيران في كل مكان!».

«اشتعلت النيران في كل مكان.. لقد فهمت».

«هذا كل ما استطعت فعله لأنقذ نفسي.. إنه الشيطان».

«أنا متأكد».

«ليس لديّ مكان أعيش فيه حاليًا».

«لكن هذا ليس صحيحًا يا لوسيندا.. لم تحرق النار المنزل.. سمعت أن الجدران لا تزال قائمة».

«لكن لا يمكنني العودة إلى هناك.. احترق كل شيء.. ليس لديّ حتى سرير لإراحة جسدي المتعب».

«أنا متأكد من وجود أكثر من صديق سيرغب في..».

«ليس لديّ صديق.. الجميع يغار مني.. يا إلهي انظر كم أنا مرتاعة.. هل حلّ الويل بي.. كيف يمكنني فعل ذلك، وي..».

«هذا يكفي يا لوسيندا! حان موعد العِظَة.. لديك غرفة نوم في برج الكنيسة».

«ماذا؟ في برج الكنيسة؟ كيف عرفت هذا؟ لم أسمع قطّ عن

غرفة؟ كلارنس، هل سمعت عن هذا؟».

«لا.. ولو أنه توجد غرفة، فلا بُدّ أنها مغطّاة بالأتربة والعنكبوت».

لاحظت لوسيندا أنه لم يقُل «أيها الرسول»، أو «سيدي»، بعد «لا».

قالت: «لا، إنها نظيفة.. لقد نظّفتها قبل مجيئك».

وقفوا صامتين وقد اتخذ الرسول قراره، فنظرت إلى كلارنس شاعرة بالنصر. اقترب من الرسول الواقف بالنافذة وهمس في أذنه، فرأت كتفيهما تتلامسان.

«حسنًا يا لوسيندا، يمكنك الحصول على الغرفة حتى تتمكني من تدبير أمورك».

همست: «شكرًا لك يا يسوع». أرادت أن تحدق في كلارنس، لكنه كان يعطيها ظهره ويهمس للرسول مرة أخرى.

***

حلّ منتصف الليل، لكنها لم تستطع النوم. هي الآن أعلى من كل القرية؛ ترى كل شيء من نافذتها: أسطح المنازل المتّسخة ملطّخة بحبّات المانجو المتساقطة، والضوء البرتقالي الوحيد في نافذة الأرملة، وعند نهاية طريق بريللو، وخلفها، مقرّ الرسول، حيث ظلّت طول الليل تراقب، لكن كلارنس لم يغادر.

الانفجار

في الصباح التالي، منح الرسول الكنيسة درعًا روحيًا من إنجيل مرقس:

فإذا سمعتم بحروب وبأخبار حروب فلا ترتاعوا، لأنها لا بُدّ أن تكون، ولكن ليس المنتهى بعدُ.. لأنه تقوم أُمّةٌ على أمة، ومملكة على مملكة، وتكون زلازل في أماكن، وتكون مجاعات واضطرابات. هذا مبتدأ الأوجاع.

وأما في تلك الأيام بعد ذلك الضيق: فالشمس تظلم، والقمر لا يعطي ضوءه ونجوم السماء تتساقط، والقوات التي في السماوات تتزعزع. وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتيًا في سحاب بقوة كثيرة ومجد. فيرسل حينئذ ملائكته ويجمع مختاريه من الأربع الرياح، من أقصى الأرض إلى أقصى السماء..

قال لهم إنه تحت غيومٍ في نهاية الأيام، سيهزُّ الرب الأرض والمعاقل، وقد حان وقت دخول الفُلك، وجيبيه هي الفُلك الذي بناه الرب بالفعل بشكل مثالي؛ محاطة بنهر لا يربطه بالضَّعف والشَّرّ سوى الجسر. كل قلوب جيبيه طاهرة ما عدا هذين الاثنين؛ مبعوث الشيطان وعاهرة بابل. إذا لم يتخذ إجراء ضدهما قريبًا، سيتحوَّل موطئ قدم العدو إلى حصن. قبل تسعة أيام، حاول قس الزّم، جندي الجحيم، قَتْلَه، لكن الشر لا يمكن أبدًا أن ينتصر على الخير. في غمضة عين، سقطت سينما سدوم في الحكم. لقد حكم الرب بالنار الآكلة.

***

اهبطا طريق إيمانويل أيها الصبي والفتاة

لتكسرا الأحجار الصخرية

اهبطا طريق إيمانويل

أيها الصبي والفتاة

لتكسرا الأحجار الصخرية واحدًا تلو الآخر أيها الصبي والفتاة

اكسراها اثنين اثنين أيها الصبي والفتاة

لا تبكيا أصابعكما المحطّمة أيها الصبي والفتاة

وتذكّرا أنها مسرحية نؤديها

تعالَيا صباح الاثنين لننتظر الشاحنة. هل سيتولّى الرب أمرنا الآن. نحن ننتظر بغرض أن يمنحنا الرب القوة. يمنحنا الرسول سيف الروح. يقول الشر فقط يأتي عبر ذلك الجسر؛ لذلك نقف.

لذلك ننتظر. ثم تأتي الشاحنة تطنّ وتدكّ الطريق مثل الزلزال.

الأصفر والأحمر مثل الشيطان. لكننا مستعدّون. نذهب إلى معسكر العدو ونستعيد ما سرقه. هذه ليست شاحنة بل سفينة من الجحيم.

الجحيم. الجحيم. الجحيم.

يخرج الشيطان من الشاحنة ويبتسم، كأننا قلنا نكتة. نعطيه شيئًا آخر. يمسك الأخ چاكس الحجر أوّلًا. لم نتحدث. عندما فتح السائق الباب وقفز للخارج بدأنا في التقاط الأحجار. قذفه بالحجر الأول

وكاد يوقعه، فانفجرت عينه اليسرى بالدم. صرخ خارجًا وحاول تسلُّق الشاحنة مرة أخرى، لكن ليس قبل أن ندفع رأسه إلى الوراء، ونلكمه في كتفه وظهره ومؤخرته وخصيتيه.

صرخ: «شياطين ملاعين».. كسرنا له الزجاج الأمامي وزجاج النافذتين الجانبيتين. حتى الطفل الصغير يعرف كيف يتعامل مع الشيطان. ينقل الشاحنة ويلكم شخصًا ما ثم يقود سيارته. لم يصرخ أحد؛ لأننا نعلم أن الصبي قام بعمل الرب، وهكذا ذهب إلى الجنة مباشرة. صرخت الشاحنة وانطلقت بسرعة، مع هطول الأمطار الصخرية على السطح دوّى الانفجار!

***

أولئك الذين تمرّدوا على الكنيسة بالاصطفاف مع القس بلاي تابوا عن خطاياهم. تابوا كذلك عن السحر والشيطان والتنجيم وشهادة الزُّور، والشوكولاتة والشذوذ والزنا والوحشية وسِفاح القُربى والرقص، والاستماع إلى الموسيقى وارتداء الفساتين القصيرة وغسل الفروج، أو القضبان لفترة طويلة في البانيو. تابوا عن أي شيء يقودهم إلى الجَلْد. الرسول حازم، ينبغي طرد الشر. فلمّا تجنّبوا أقلّ الخطايا نَجوْا من الجِلد. كلُّ مَن خشي مساءلة الرسول صار يخاف الخمسة.

الليلة

خلع كلارنس فردة حذائه اليسرى أوّلًا، ثم اليمنى، واحتضن قدم الرسول اليمنى في راحة يده، وسحب الجورب الأسود ببطء. ألقى الملابس في الحمام مع بقية الغسيل المتسخ؛ لكي تغسله لوسيندا في الغد. سمع كلارنس في رأسه موسيقى، أغنية أجنبية بطيئة يغنيها رجل أبيض. نظر إلى الأعلى فرأى وجه الرسول في ضوء الحمام الساطع. سحب كلارنس إبزيم حزام الرسول وسقط بنطلونه، فأغمض عينيه، ضغطت يدا يورك على كتفيه. توقّع كلارنس ألّا يكون ضغط الرجل ليّنًا، فتمسك به، لكنه بعد ذلك ضغط بقوة أكبر، وأمسكه بمزيد من الهدوء والإحكام، فانغرست أصابعه في كتفي كلارنس كأنه يسحب عظامه للخارج. نظر كلارنس مصدومًا، شخر الرسول وعيناه تدوران ورأسه يرتعش.

«أيها الرسول؟» نشج كلارنس محاولًا نزع يديه عن كتفيه. كان الرسول يصرخ ويرتجف مرتعشًا كأنه مخمور. وأخيرًا سحب كلارنس قبضته، فترنح الرسول، وسقط في الحمام.

«أيها الرسول!».

انتزِعَت ستارة الحمام عن مفصلاتها واحدًا تلو الأخرى، وانفجرت المياه من الصنبور. خار الرسول، فتجمّد كلارنس.

«أيها الرسول؟».

«إنه هو! أبا بابيها ريكوكاسرابوتوك!».

«أيها الرسول..».

«إنه هو، ريكوكاسرابوتوك! إنه يهاجمني! من ذلك المنزل اللعين، يهاجمني ابن العاهرة! آآآآه!».

«مَن؟ مَن يهاجمك؟».

«هو، أيها المخبول اللعين! بلاي! بلاي!». انهمرت مياه الدش لكن يورك رفع إصبعين فتوقّف انهمار الماء. كان يلهث لكنه قفز للخارج، هبّ كلارنس لمساعدته فأبعده، حاول كلارنس مرة أخرى.

«ابتعِد عني!». شعر كلارنس بلكمة في صدره صدمته بالباب. لكن الرسول لم يمَسّه حقًا، بل كان يفرك فروة رأسه.

«اجمع الخمسة. اجمعهم الآن.. لا بُدّ أن ننتهي الليلة، اللعنة.. الليلة! أحضِر الخمسة! أريد ذلك اللقيط اللعين ميتًا الآن، لذا ساعدني! الآن!».

***

امتلأت ساحة الأرملة بالجِيَف؛ لحوم كواسر نَتِنة وريش متناثر. بطريقة ما، كأنما سقطت الغربان على عشبها لتهوي إلى حتفها. أو ربما بدأت الغربان في أكل بعضها بعضًا. من نافذتها رأتها تسقط. نظرت خلفها إلى باب بلاي المغلق، وتساءلت عمّا إذا كان لا يزال يكتب على الحائط. سمعت قعقعة، واهتزّت النافذة فجأة. أقلع سرب الغربان الرابض فوق سطح منزل السيد جارفي في الحال، متجهًا إلى البوابة، وها قد وصل.

كانوا جميعًا أمام بوابتها، رجالاً ونساءً، عرفت بعضهم طوال حياتها، بعضهم لم يكن صديقًا ولا عدوًا. متجمعين في صفٍّ

مستقيم. في البداية وقفوا صامتين كأنهم لا يرمشون. ثم تفرّق الحشد، وتقدّم الأخ ڤيكستون إلى الأمام، وهو يضرب بسوطه كأنه امتداد له. كان أصغر بكثير من الأرملة، ويلوّح بشبابه مثلما يلوّح بسوطه، كما أنه الأطول بين الخمسة، مُثقَّل مثل عبد من عبيد الحقول نال للتو حريته وغرضه.

ثم رآها.

«أتذكرين ما تقوله الآية السابعة من سِفر الأمثال؟ أتذكرين ما تقوله الآية السابعة من سِفر الأمثال؟ أسألك إن كنتِ تذكرين ما تقوله الآية السابعة من سِفر الأمثال؟».

أدار الأخ ڤيكستون ظهره للأرملة، وصرخ في الحشد. رفع سوطه عاليًا، فارتدّوا إلى الوراء، وتعثّروا فسقطوا فوق بعضهم بعضًا.

«والآن أيها الأبناء، اسمعوا لي وأصغوا لكلمات فمي. لا يَمِلْ قلبك إلى طرقها، ولا تَشرد في مسالكها. لأنها طرحت كثيرين جرحى، وكل قتلاها أقوياء. طرق الهاوية بيتها، هابطة إلى خدور الموت»..

«هذا المنزل! هذا المنزل!».

خطا رجل الرب الضخم خطوة هائلة واحدة على عشب الأرملة ثم وقع، أوّلًا على ركبتيه، ثم على وجهه، وقد ابيضّت عيناه.

اهتزت الأرض مثل أريحا، وطار السوط من يده، وسقط على الأرض مثل ثعبان ميت. تناثر الرجال والنساء، وصرخ بعضهم، إذ تفجّر الدم الأسود من عيني وأنف وأذنين وفم الأخ ڤيكستون. ابتعدت الأرملة، لم تكن خائفة ولا حزينة، بل مرتجفة، ومع ذلك

بكت، وانهارت تحت نافذتها، وراحت في النوم.

حلمت الأرملة بقتلى يرتجفون تحت سياط تحوَّلَت إلى ثعابين وصولجانات وأراجيح، ثم تطايَرَت شظايا حمراء، تحوَّلَت إلى سكاكين، في كل الاتجاهات؛ ممَّا أسفر عن مقتل المولود الأول. ساعتها استيقظت.

في الخارج، كان جسد الأخ ڤيكستون يلمع من الندى. سكن الليل كلوحة، ربما لهذا اختلط عليها الرسول في البداية؛ رمشت عدة مرات، لكنه ظلَّ موجودًا ينظر إليها، وثيابه ترفرف على الرغم من عدم وجود رياح. كل ما فيها أراد أن يركض، ما عدا قدميها اللتين زُرِعَتا بجوار النافذة. كان وجه يورك هو الشيء الوحيد الذي لم يسوَدّ مع الليل؛ لذلك عندما استدار مبتعدًا، اندمج شعره في الظلام واختفى.

البيت الأسود

حتى غروب الشمس لم تستطع الأرملة استجماع شجاعتها. لم يمر أحد بمنزلها منذ الليلة السابقة. وسمعت صوتًا لم تسمعه من قبل يهمس بأن الضرر لن يصيبها على العشب، ربما هو الرب، وربما قس الرّم، الذي توقّف عن الكلام بالكلمات، لكن ربما يتكلم في الأفكار والأحلام. انزلق العشب البارد الندي من خلال نعليها، وأشعر قدميها بالبرودة. عندما خطت فوق الغربان غلبها الخوف. كانت ترفس طائرًا فيصرخ وينهض حاقدًا مكتمل التكوين. تحرّكت بعيدًا عن الأخ ڤيكستون، خوفًا من أن تتسبب الأرواح الشريرة بداخله في إيقاظ جسده. ربما لم يكن ميتًا أو نائمًا، ربما هو مستيقظ وينتظر أن تقترب منه كي يتمكن من قطع رأسها، وشرب الدم من رقبتها. خطت خطوات واسعة، فوجدت الطريق خاليًا. أحيانًا تعمل الكنيسة في بعض الأوقات حتى وقت متأخر من الصباح. كانت جاهزة بسيف مقوّس في يدها.

لم يرَ أحدٌ السيد جارفي منذ وقت طويل جدًا، ولم يُطِلّ أيّ وجه من نافذة السيد جارفي، ولم يصدر أي صوت عن بابه.

يبدو أن جميع أبناء أخيه قد كبروا وغادروا، لكن في بعض الليالي يسطع ضوء خافت من خلال شقوق الأبواب والنوافذ.

يعتقد أنه أفضل من الشود، ولا يختلط بهم، لكنه يملك القرية كلها: يملك كل مبنى أحمر، بما في ذلك الكنيسة. بالتأكيد كان بإمكانه أن يطرد الرسول من القرية ويعيد جيبيه معلما كانت. لمدة دقيقة فكّرَت فيما يعنيه ذلك. كان النفاق درعًا لها مثل البقية، والتظاهر حماية.

عبرت الأرملة البوابة آملة أن تكون مُحِقّة، وأن تكون الكلاب قد نفَقَت. كادت أن تتعثر وهي تندفع صاعدة الدرج.

«سيد جارفي؟ سيد جارفي؟ سيد جارفي، سيدي؟ سيد جا... ».

ألقت بنفسها على أرضية الشرفة. تقاطع مصباحان في الظلام، علّها ليلة سعيدة، الحمد للرب، لن تتأخّر لأن الرسول لديه خطبة عن الليلة الماضية. كانت الفوانيس تحوم بعيدًا عن الأنظار والأصوات بعيدة عن مرمى البصر، وخلف الباب باب آخر بإطار خشبي، مُغطّى بشبكة محكمة مثل أبواب المنازل المتربة في أفلام چون واين. طرقت وهي تهمس باسمه، فامتصّ الليل صوتها.

ثم صاحت: «سيد جارفي، سيد جارفي، سيدي؟ سيد جارفي؟».

لمع السيف في الظلام ساخرًا منها، كأنها تستطيع قتل أي شخص. الظلام يسرق أملها. فكّرَت في الرجل الموجود في غرفة زوجها الراحل يخربش الأسطر الأخيرة من عقله على السقف.

نادت الأرملة السيد جارفي للمرة الأخيرة، وفي صمتٍ مُخيِّب استدارت لتغادر. أرجحت السيف بشكل أقوى ممّا كانت تقصد وضربت الباب، فانفتح قليلًا وصرّ الصدأ المكدّس في مفصلاته. فضولًا ويأسًا، تخطّت الباب الأول ووجدت الباب الثاني مفتوحًا أيضًا. قبل أن تسمح لنفسها بالدخول، واجهتها رائحة كريهة أكثر غموضًا من تلك الموجودة في منزلها. انتشرت الرائحة في كل مكان حولها، فكّرَت أن هذه الرائحة مثل الرب، والعمر، والنفايات، والخراب، وكل الأشياء التي من شأنها أن تضعف المرأة. في الظلام، شعرت بحرارة الغرفة ورطوبتها. خطت إلى الداخل فتعثرت في

شيء صُلبٍ وليّن، مثل كتلة صلبة على سجادة. كان ينبغي أن تحضر شمعة، لكنها كانت مرئية. هناك في الظلام، عمياء مثل الخفافيش. تحرّكت شمالًا، غير متأكدة من السبب، فتعثرت مرة أخرى، وهي تصدر صوتًا، فمنذ أن دخل قش الزّم إلى منزلها، ارتدت الأزرق مرة أخرى، كما توقفت عن اللعن.

رائحة اللحم الفاسد تفوح من الغرفة. عرفت جيدًا كيف يكون الجسد الميت مزحة قاسية، وكيف تتسلّل الرائحة الكريهة دائمًا مثل العطر، للتحرش بها مع العفن الموجود تحتها: رائحة لحم خنزير متروك لفترة طويلة، أو مجموعة ميتة من صغار الفئران. ثلاجة السيد جارفي مغلقة، لكن نافذة المطبخ مفتوحة. وصلت أصوات الكنيسة إلى الغرفة. سحبت الستارة السوداء لتغطي النافذة. هذا هو المطبخ؛ ممّا يعني الموقد والكبريت، اشتعلت النيران في الحافة الوردية وأحرق الكبريت أنفها، وغمر الضوء المطبخ، وغطّى المنضدة الفورميكا البيضاء ببقعة برتقالية. رقصت الظلال في زوايا الغرفة مع اللهب الخافت. وجدت شموعًا في الخزانة تحت الحوض المزدوج.

«سيد جارفي؟».. غرفة المعيشة وسط المنزل. نقل الأثاث من مكانه، وانتشر الخطر مثل شبح بين الكراسي والطاولات المقلوبة. كانت الشمعة تهتزُّ في كل مرة تمرُّ فيها بمرآة مكسورة أو لوحة. توجد أكواب وأطباق وزجاجات محطمة على الأرض، ورائحة البول منتشرة في كل مكان.

«سيد جارفي؟».. على ضوء الشمعة غادرت الأرملة غرفة المعيشة، إلى الطابق العلوي ثم السفلي والردهة الضيقة. بدا المنزل أصغر،

رفضت فتح الأبواب المغلقة بالفعل، كأنها بهذا تعتدي على حرمة منزل شخص ما، واعتقدت أنها لا تختلف عن الغربان أو الأخ ڤيكستون المصروعين في حديقتها، بعد أن دفعوا ثمن خطيئة التعدي على ممتلكات الغير. لكنها قطعت شوطًا بعيدًا وهذا هو أملها الوحيد، حتى لو كان شاذًا.

لدى الأرملة آراؤها الخاصة بشأن الغُزّاب المُسنّين، وخاصة أولئك الأثرياء الذين نالوا تربية جيدة ولا يزالون دون نساء. لكن لكل واحد أفكاره، تنهّدَت، لم يكن السيد جارفي الشّاذّ الوحيد في جيبيه، لقد انفصل التوأمان سكوتفورث اللذان غادرا القرية عندما حاولا الزواج من فاحشين مثلهما. طوال حياتها عرفت الرجال فقط عند نقطة انكسارهم، فحمت نفسها بالمرارة كي لا يخيّب أملها أحدٌ. بالنسبة لها، كان للرجال بعض الفوائد، في الواقع لم يكونوا رجالًا على الإطلاق، بل أولادًا أصبحوا أكبر وأطول وأعرض، هذا في حال كانوا محظوظين، كانوا رجالًا محطّمين بطريقة لا تستطيع أي امرأة إصلاحها، والوحيد الكامل ميت الآن؛ لأن ذلك هو الوقت الوحيد الذي يفعل فيه العقل والجسد نفس الشيء.

امتدّ الممر وطال، فانكمشت على نفسها، وشدّت ذراعيها بقوة لتخفي رقبتها في كتفيها. كان الباب الأخير مغلقًا، لكن السابق عليه مفتوح بعض الشيء.

السيد جارفي ظهره لها. لم يكن بإمكانها أبدًا الجلوس في مواجهة النافذة في منزلها مثلما يفعل، وظهره يواجه الباب الأمامي المفتوح. منزلها هو منزل والدتها في الأصل، ثم منزل زوجها، لكنها لم تشعر

قطُّ أنه منزلها، ولا حتى بعد وفاته. كيف يشعر المالك باختلاف المنزل، وعلى كل جدار علامة احتمال. يمكنه فعل أي شيء يريده، بما في ذلك لا شيء. بإمكانه ترك المنزل يسقط في حالة من الخراب، أو أن يفتح ثقبًا متَّسعًا في جدار بما يكفي لتسلُّل سحابة إلى الداخل، بإمكانه ترك المنزل يتحول إلى مرحاض كبير مثلما فعل السيد جارفي، بإمكانه الجلوس ووجهه إلى النافذة، وظهره إلى الباب، كما لو أن الشيطان لا يجرؤ على التسلل إليه في مملكته.

كانت الستائر الزرقاء الداكنة مسحوبة، فرأت النجوم من خلال النافذة. الجزء الخلفي من المنزل بعيد عن الطريق، لكنه قريب من النهر. يمكن للسيد جارفي أن يرى في الظلام؛ عينان مثل عينيه يمكن أن تريا خلال الليل، والستارة، والنافذة، وحتى الجدران التي تحيط به. من خلف الكرسي الداكن الضخم، رأت طرف رأسه متوّجًا بشعر خفيف.

«سيد جارفي؟ سيد.. سيد جارفي؟ هذه أنا.. سيدي.. أعني، السيدة جرينفيلد.. لا أعرف ما إذا كنت تتذكَّرني أم لا.. أنا ابنة الآنسة بالمر؟ هل تتذكر الآنسة بالمر؟ لقد ماتت منذ وقت طويل، الرب يسوع، لا بُدَّ وأنك تتساءل لماذا اقتحمت هذه المرأة المجنونة منزلك هذه المرة، لكن يا سيد جارفي، ألا ترى ما يحدث في المكان؟ ألا ترى كيف استولى الشيطان على جيبيه؟ ألا ترى كيف يشعر الناس بحريتهم في أرضك كما لو أنهم يمتلكونها؟ كل أنواع الدجل والشيطنة التي أتى بها هذا القس الجديد، ألا ترى ما الذي يحول الناس إليه؟ سيد جارفي؟».

لم يُجِب السيد جارفي. ظل ساكنًا، ظهره وظهر الكرسي لها. شعرت بالرفض من جدار عجرفته، فجعلها ذلك أكثر جرأة وغضبًا.

«أتعرف شيئًا يا سيد جارفي؟ أعلم أنك لا تهتم كثيرًا بالسود، لكني لا أسألك شيئًا.. فقد اشترى زوجي منزلًا، ونحن لا نؤجر منك.. لكن على الأقل يجب عليك الاعتناء بمنزل السيدة چونسون الذي يحرقونه؛ أليس منزلك كذلك؟ وماذا عن السينما؟ هل ستترك كل هذه الأشياء تحدث؟».

كانت خلفه مباشرة، تكاد تلامس ظهر لامبالاته.

«سيد جارفي، أنا أكلمك، وأنتَ لستَ أصمَّ.. هل تسمع كلام الصبيان الملوّنين فقط؟ هل تظن أنني أهتم لو أنك تريد أن تذهب مدينتك الصغيرة الحمقاء إلى الجحيم؟ هل تعتقد أنني أهتم؟»، ثم أمسكت بظهر الكرسي ذي الذراعين.

«ألا أتحدث إليك أيها الشاذ الأشعث!». هزّت الكرسي، فسقط رأسه على عنقه، ثم في حضنه، ثم سقط على الأرض، ودار حتى توقف عند الحائط أسفل النافذة. على عنقه تجمّعَت الحشرات والذباب والرائحة الكريهة. داخل العظم لا يزال اللحم يتحرك، لكن ضوء الشمعة كشف أن ما يتحرك هو الدود.

وضعت يدها على فمها وصرخت في راحة يدها، لكنها لم تركض. عندما تذكّرَت الأرملة جميع الموتى الذين رأتهم في حياتها، شعرت بهدوء بدا لها غريبًا. تذكّرَت الأخ ڤيكستون وسَيل الدم الأسود الذي سال من أنفه، وشعرت بهدوء أكثر. الرجل الميت غير قادر على الإيذاء أو الوعد.

الطريقة التي احتضن بها السيد جارفي أشياء في حضنه لم تجعلها تخمّن أبدًا أنها أعضاؤه التناسلية. لكن يوجد المزيد، اختفت عيناه وتغذّت الحشرات على أجزائه الرطبة. في البداية اعتقدت أن رأسه قد وقع بفعل التعفن، لكن رقبته كانت مذبوحة كما لو أن جزّارًا جزّها.

استدارت بعيدًا، ونظرت أسفل المكتب المجاور له، فبادلها مَن تحت المكتب النظرة؛ بالكاد صبي، كريه الرائحة أيضًا. عيناه حفرتان، ليستا سوى دائرتين جوفاوين من الظلام، لكنهما رأياها، كان جلده متغضنًا غائرًا في عظامه، حتى في الضوء الفضي. هربت من الغرفة، وهي تشعر بثقل لم تستطع فهمه أو تحمله. في الغرفة بابان، في الأسفل جثة أخرى منحنية على السرير، بالطريقة التي اعتاد زوجها أن ينحني بها كلما أراد أن يرى فرجها لا وجهها. نظرت إلى الجثة وشعرت ببرودة مماثلة، جذبها أزيز الحشرات المتجمعة على ظهرها المشرّح إلى أخاديد، ورقبتها التي لا رأس لها. ركضت وتعثّرَت، فشعرت يداها بنعومة القماش، واللحم الذي يتمزق بسهولة شديدة. كانا اثنين، الأول أكبر سنًا، مع أنه لا يزال شابًا، والآخر صبي بدا أنثويًا. ربما هذا هو وضعه؛ يؤدي تحديًا أخيرًا للجمال الخنثوي، وقد ألصقت قطع من الورق على خده. رأت في الظلام أنها صور، لكن لم تستطع تمييز محتواها. يمسك الصبي الناعم بالصور كأنه ينقل روحه إليها، كأن بإمكانه أن يعيش إلى الأبد متحصنًا بهذه المربّعات.

جمعت الصور من على الأرض، ونزعت البقية من يده، ودفعتها بين ثدييها. لقد فهمت لماذا لم تضعفها الروائح؛ تصبح رائحة الموت

مميزة فقط عند مقارنتها برائحة الحياة. اجتاحتها الرغبة في القيء، فأمسكت بطنها وتقيأت حتى أفرغت ما في جوفها، ظل صدرها يرتفع، وشعرت بألم في بطنها، وخفقان في رأسها، وبالكاد تمكنت من الخروج من المنزل.

ستكون العودة إلى المنزل شبه مستحيلة، وقد التصقت الصور بصدرها واختلطت بعرقها. وبمجرد خروجها من منزل السيد جارفي رأت لوسيندا تنتظرها عند بوابة المنزل. ها هي ذي، يداها على وركيها، رأسها مائل للحصول على رؤية أفضل للنافذة.

نظرت الأرملة حولها بحثًا عن بقية المصلّين، لكن لوسيندا بدت وحيدة، العاهرة الحولاء تبحث عن شيء ما، وسيأتون لقتلي بالتأكيد. للحظة فكّرَت في العودة إلى منزل السيد جارفي، لكنها نالت ما يكفي من الموت لليلة واحدة، موتهم أو موتها. وعندما فكرت في لوسيندا وكمينها الغبي، لم تكترث، فإذا كانت إرادة الرب أن يخذلها مجددًا، فلا شيء يمكنها فعله، باستثناء توجيه لكمة قوية إلى وجه لوسيندا ستسبّب حوَلًا إضافيًا في عينها اليمنى.

«ماذا تريدين من بوابتي يا لوسيندا؟».

ظلّت لوسيندا تدور حولها مشدوهة، فاقتربت الأرملة.

«أيها الآب السماوي! المجد لك يا أبي!».

«لوسيندا، أسألك ماذا تريدين؟».

التفتت لوسيندا وعبثت بذيل تنورتها.

«لوسيندا!».

«أيها الرب يسوع! أيها الرسول! يا يسوع الرسول! يا يسوع المسيح الآب السماوي! سيقتلني يا ماري! سيقتل الجميع!».

«إنهم يقترفون الفاحشة، يا للقرف والبذاءة! لو رأى الرب مثل هذا القبح لفضل العمى!».

نظرت الأرملة حولها بحثًا عن كمين. «هل أبدو وكأنني أهتم؟ ابتعدي عن طريقي».

«يا سيدي المسيح! أقول إنه سيقتلني لأنني هربت.. يا سيدي المسيح!».

«حقًّا؟ شخص ما يريد إصلاحك؟ قفي مستقيمة كي أراك جيدًا».

«لاااا.. يا إلهي.. سيقتلونني! لا تتركيني في الشارع».

«إذن ماذا عليّ أن أفعل، أيتها العاهرة الحولاء؟ أساعدك؟ لا، اذهبي من هنا.. تحمّلي عواقب أفعالك السيئة.. ابتعدي عن منزلي».

«يا إلهي.. ماري، ستتركينهم يقتلونني؟ ليتغوّل شرُّهم.. يا الآب السماوي».

«أولًا تقولين إنهم يقترفون الفاحشة، ثم تقولين إنهم سيقتلونك.. هل أنت خائفة أم مريضة.. أنت مريضة؟ أتعلمين؟ لا شأن لي.. لا يهمني ما يحدث لك».

«ما خطبك؟ لماذا أنتِ باردة هكذا؟ لمن تعتقدين أنهم سيأتون بعد ذلك، أليس كذلك؟ انظري ماذا فعلوا بي».

فوجئت ماري بأنها لم تزَ وجه لوسيندا حتى هذه اللحظة؛ كانت عينها اليسرى منتفخة وشفتاها مبللتين بالدماء، وفستانها الأبيض

ممزّقًا بوحشية، ويبدو صدرها الأيسر منتفخًا من خلال القماش الممزق، وحافية.

«لم أكن لأستطيع الهرب إلا بركل كلارنس في خصيتيه».

أزعج الأمرُ الأرملةَ بعدّة طرق، إذ يوجد قليل من القواسم المشتركة بينها وبين لوسيندا، أحدها كان المسافة، وقد كسرت مرة واحدة فقط، لكن لوسيندا هنا الآن وقد نسيت ألّا شيء بينهما، ولا حتى مرحبًا، حتى إنها نادتها بماري. ورؤية كدمات لوسيندا مثل رؤيتها عارية. تذكّرَت الأرملة شعور الناس بمشاهدة عريها، وتذكّرَت عندما رآها زوجها عارية للمرة الأولى: ركبتاها وساقاها الممتلئتان ونهداها الكبيران للغاية، أول ما كان يهاجمه دائمًا. لقد جاءت لوسيندا إلى مساحتها، مثلما جاء السيد جرينفيلد. تذكّرَت ماري كم كرهت ذلك.

بدأت لوسيندا في البكاء.

«توقّفي عن النواح اللعين! كفى يا لوسيندا».

لوسيندا امرأة معتادة على الأوامر، فتوقفت.

«حسنًا، حسنًا، يمكنك الدخول».

«يا إلهي! لا.. لن أخطو في حديقتك، سيقتلني العشب بالتأكيد!».

«إذن ماذا تتوقّعين أني سأفعل، أحملك؟».

«لا بابا، لن أمشي على هذا.. انظري إلى ما فعله لـ... أهذا حيث...؟ حيث كان الأخ ڤيكستون...».

نظرت الأرملة حولها، ثم حدّقَت فيها.

«لا تنظري إليّ، إنه منزلك! يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي!».

«اخرسي يا لوسيندا!».

«سيقتلونني! سيقتلونني!».

«سأقتلك أنا إذا لم تصمتي! من الأفضل أن ندخل، يبدو أن كل أنواع الحماقات تحدث في هذا الشارع».

«لا! لن أخطو خطوة فوق العشب، وإلا مثُ!».

«لن يصيبك مكروه».

«لا! هل تريدين قتلي! مثلما يريدون قتلي! ليرحمني الرب! ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟».

صفعت الأرملة لوسيندا التي كانت في حالة هيستيرية.

«أمسِكي بيدي.. لن يصيبك مكروه».

أمسكتها لوسيندا دون تردُد، وضغطت بقوة، وجرّتها الأرملة على العشب. عندما دخل العشب في المسافات بين أصابع قدمها، أطلقت لوسيندا صرخة صغيرة. خطتا فوق الغربان الميتة وبقع العشب المظلمة بالدماء. بدا العشب أكبر وأطول.

كان توتُر لوسيندا يجعلها تتراجع بشدة لدرجة أنها سحبت يدها، فأمسكتها الأرملة بسرعة، لكن ليس قبل أن تصرخ مجددًا، بلّل الندى نعلَي الأرملة وجعل أصابع قدميها لَزِجة. ألقت باللوم على لوسيندا وهمست. خَطَتا بين فوضى جثث الغربان حتى وصلتا أخيرًا إلى

الدرج.

«يا إلهي! ما هذا الظلام!».

«نعم.. الليل والظلام، لا يمكن لأحدهما أن يحدث دون الآخر، لكن لا تخبري أحدًا أنني أخبرتك».

«يا إلهي.. أهكذا تهدّئينني؟ أنت تعرفين ما أعنيه.. هذا ظلام دامس يا فتاة».

«لا أشعر بالرغبة في إشعال أي شمعة».

«أليس لديك مفتاح إضاءة؟ لقد اعتقدت أن هذا منزل حديث».

شرّت الأرملة سعيدة بمثل تلك العبارات؛ كانت لوسيندا دائمًا ذات لسان منفلت. فكّرَت ماري، الكلبة الحولاء، وتذكّرَت مدى كرهها لها.

«لا أشعر بالرغبة في إشعال أي شمعة».

«حسنًا.. حسنًا.. هذا ليس منزلي ولا يمكنني رؤية أي شيء وإلى أين سأذهب».

«أيخصُّك شيء في هذا المنزل؟ ماذا تريدين أن تري هنا؟».

«فقط..».

«أتريدين حشر أنفك فيما يحدث في منزلي؟ هذا هو الباب.. اخرجي منه!».

«لا يا ماري! ماري، لا! لا أستطيع الخروج! سيقتلني العشب!».

«لا يمكن للعشب أن يقتل أحدًا.. لا بُدّ أنه..».

«الشيطان!».

كان اسمه يوقفها مثل أي شخص في جيبيه، لقد اعتادت الأرملة ألّا تكون مثل أي شخص آخر، على ألّا تصاب بمخاوف تافهة، لكن خوف عدوّتها أصابها.

«أنتِ امرأة مجنونة لعينة.. تقولين إن الشيطان يحيط بمنزلي.. ولكنك أتيتِ إلى هنا.. هل تخطّطين لطرد الرسول بمذراة؟».

«أنا.. أنا.. لا أفعل... تشو! أنتِ تُحيّرينني! أنا... سوف يقتلني! ألم ترَىٰ ما فعل بقسّكِ؟ هل هيكتور بلاى هنا؟».

«هذا ليس من شأنك».

«كنت أسأل فقط.. أعرف أن عليك حماية رجلك».

«هو ليس رجُلي».

«إنه رجلٌ فى بيتك».

«أيًا كان ما يعنيه ذلك لك، فلا يعنيه لي».

«على أي حال، الرب أعلم.. لقد ضربني يا ماري.. ضربني.. كلارنس ضربني».

أنزلت بلوزتها وأخرجت ثدييها من تحت الضمادات الملفوفة بإحكام حول ضلوعها. انزعجت الأرملة أكثر بسبب افتقار لوسيندا للخجل، للحميمية. هذه لوسيندا التي لم تعرفها جيدًا، ولم تحبها نهائيًا، لكنها شعرت بالأسى عليها. الجدار بينهما يتآكل، مهما حاولت جاهدة الحفاظ عليه. هذا خطٌ لم تستطع الأرملة عبوره قطُ، ولا

حتى مع زوجها، وتذكّرت كم كان الأمر أسهل، حين عرضت عليه مهبلها وهي تخبّئ نفسها. لوسيندا منفتحة وصادقة، وهذا أكثر ما أزعجها في التّعرّي؛ صدقه.

«ارفعي بلوزتك يا لوسيندا.. لا أريد أن أرى..».

لكن فات الأوان، رأت الكثير من الكدمات في جميع أنحاء صدرها وعنقها. أدارت لوسيندا ظهرها للأرملة، كانت الضمادات تخفي جلدها، ومن خلال اللون الأبيض ظهر خطّان طويلان أحمران على يمين ظهرها ويساره، كأنها ملاك اقتُلِعَت جناحاه. شعرت الأرملة بطعم العصارة الصفراوية في فمها، فابتلعتها.

«ارفعي بلوزتك يا لوسيندا».

«كنت أوّلَ مَن أراد رحيل القس بلاي.. أعرف.. رنّمَت هللويا عندما طرده الرسول.. يقول الكتاب المقدس اغفر سبعين مرة.. وقد غفرت له أكثر من تسع وأربعين مرة.. لا أكذب، لقد فرحت عندما طرد.. لكن يا رب لو كنت أعرف! يا رب لو كنت أعرف! أنا لقد أمسكت بهما.. لهذا ضربني كلارنس، فركلته في خصيتيه وهربت.. لقد أمسكت بهما».

«أمسكت بمَن؟».

«بهما.. الرسول وكلارنس؛ لم أرَ شيئًا مثل ذلك في حياتي كلها».

«أيوجد شيء شرير لم تَرَيْه قَطُّ؟ لقد اعتقدت أن الرب أراكِ كل شيء، لأنكما قريبان».

«لم يرني الرب قطُّ رجُلًا خلف رجلٍ يدقُّ مؤخرته كأنه يضاجع فتاة!».

«ماذا؟ ماذا قلت للتو؟».

«اسمعي ما أقوله.. كلارنس والرسول عاريان، وهو خلف الرسول ممسك بوركه، يضاجعه كما لو أنه هو الزوج والرسول هو الزوجة».

«أنتِ فتاة كاذبة.. هذا مقرف.. حتى بالنسبة لك».

«كيف أكذب بشأن ذلك؟ لا.. ألا تقولين إني أحب الرسول؟ لماذا أختلق شيئًا سيئًا ضده؟».

«أنت ترمين إلى شيء ما.. أنا أعرفك».

«أنا لا أفهم كيف لا تصدقينني.. لم ترَيْ مثلي كيف كانا ملتَصِقَين.. أين تعتقدين أن كلارنس ينام الآن؟».

«هل تكذبين؟ القس لا يستطيع أن يفعل مثل هذه الأمور».

«وهل يتصرف مثل أي قس تعرفينه.. لقد اعتقدت أنك الوحيدة التي ستصدقينني».

«نعم.. وسأصدق ذلك إن أخبرني أحد غيرك».

«إيه إيه، مَن تظنين نفسك، أعليّ أن أثبت لك؟ السبب الوحيد الذي جعلني آتي إليك أنك الوحيدة الذي لا تعمى عينها عن الحقيقة، ليس لأنكِ بَدَوتِ فجأة لطيفة جدًا وأصبحتُ صديقتَكِ».

أمسكت لوسيندا أحد الكراسي حول طاولة الطعام وجلست، تنهدت وهي تلفُّ خاتم والدتها حول إصبعها. فكّرَت الأرملة في إخبارها عن السيد جارفي لكنها بدلًا من ذلك قالت: «أنتِ تعرفين يا لوسيندا أنني لم أحبك قطُّ، ولا حتى ونحن صغار...».

«أنا أعرف.. أعرف.. أنا أيضًا لم أحبك.. لكنه سيقتلني لأنني أعرف.. وبعد ذلك سيقتلك لأنني أخبرتك.. وسيقتل القس بلاي.. ألا ترين كيف يمتلك القرية؟ الجميع تحت السيطرة الآن.. إنهم يفعلون كل ما يريدهم أن يفعلوا.. يا إلهي.. لا أعرف كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد.. ذات يوم كنا نغني ترنيمة 'النعمة المجيدة'، وفي اللحظة التالية نقتل رجلًا مُسِنًا لأنه يضاجع بقرة، مع أن هذا شائع في الريف.. لقد كادوا يقتلون الرجل الذي يقود الشاحنة الصخرية الأسبوع الماضي!».

«ماذا تقولين؟».

«أنت لا تعرفين أي وقت تدقُّ الساعة.. إنه لا يريد أن يغادر أحدٌ أو يأتي أحدٌ.. يقول إن الخطيئة تأتي وتحدث.. لا أذكر.. لا أذكر ما يقوله، لكن الشر في طريقه إلى القرية وعلينا إبقاؤه خارجًا».

«يبدو أنه لا يزال يستخدمك».

«لا! إنه مجنون! مجنون مجنون مجنون! وها هي جيبيه قد جُنَّت أيضًا!».

«لكن الناس لا يصابون بالجنون هكذا.. أنا لا أصدقك».

«إيه.. وكأنك لا ترين بعض ما يحدث بنفسك.. أنتِ لا تعرفين الناس يا ماري.. ربما هو يعطي الناس ما يريدونه دائمًا.. هذا الشيء الذي في عقلك يوسوس لك، لكنك لن تفعليه أبدًا».

«وماذا تريدين دائمًا أن تفعلي يا لوسيندا؟ لا أنسى كم كنت جائعة إلى رَجُلي، كما تعلمين.. يبدو أنك تحصلين على ما تريدين».

«كيف يمكن لأي شخص أن يريد ذلك؟ مَن أنتِ.. أأنتِ امرأة أم وحش يرتدي ثوبًا أزرق؟».

«إذن، كيف يمكنك أن تعرفي ما عرفت دون غيرك؟».

«لأن لا أحد رأى ما رأيت في غرفة نومه.. ولن يقتل شخصًا لم يكتشف ذلك.. ربما استدعى الخمسة بالفعل».

«لذلك أتيتِ إلى هنا، لأن أحدهم سقط ميتًا عندما حاول عبور العشب.. هل تظنين أنه سينقذك؟».

«لا، سينقذني القسُّ بلاي».

«الآن تقولين هذا عن القس بلاي.. ما الذي يجعلك تعتقدين أن القس بلاي يمكنه إنقاذ أي شخص؟».

«ألا ينبغي عليه! لا أعرف، لكن لسبب ما كان الرسول خائفًا منه مثل قطٍّ.. إنه لا يريد حتى أن ينطق أحدٌ باسمه».

«بلاي لا يستطيع حتى إنقاذ نفسه، ناهيك عن أي شخص آخر».

فجأة سكنت هيستيريا لوسيندا، وبدا وجهها كالقبر، ساكنًا إلا من شهقات تفضح ذعرها. «أعرف أن الرب يعمل من خلاله».

لم تجد الأرملة ما تقوله، فهذا ما كانت تأمله؛ أن يكون لجنونه معنى أكبر وأعظم ممَّا تستطيع فهمه، لكنها لم تستطع قطُّ الاعتراف بذلك، ليس لنفسها وبالتأكيد ليس للوسيندا، التي شعرت الآن بأنها مضطرة إلى مناداتها باسمها الأول.

«هل أنت جائعة؟».

«لا».

«هل تريدين شيئًا لتشربي..».

«هل تعتقدين أنه نائم؟»

«أنا... أنتظر هنا».

لقد أمضت وقتًا طويلًا خارج بابه. زوّدَته الأرملة بأقلام حبر ورصاص وطباشير وفحم، ثُرى، هل سيجرح نفسه ويكتب بالدم؟ الأرملة لا تجيب. إنه مجنون جنونًا مُطبِقًا، ومع ذلك عرفت أن يسوع يعمل من خلاله، لا بُدّ أنه يفعل، لا بُدّ وأن لهذا الجنون معنى أكبر. كل ما ليس للرب سقط ميتًا عند بابها، لا بُدّ أنه بلاي، لا الرب. لقد رسم بالروح سياجًا حول منزلها، لم يجعلها تشعر بالحماية، بل جعلها فقط تشعر بالأمان في معيّة الموت. رفعت الأرملة يدها لتدق الباب، لكنه فتحه بالفعل.

لقد خدعت نفسها، بالطبع يمكن أن يغرق قلبها، انتشر في الغرفة هواء قديم. اعتقدت أنه إذا مات السيد جرينفيلد هنا، فستكون هذه رائحة الغرفة. لم تستطع فهم القليل الذي رأته من الكتابة. الخربشة المسعورة من الكلمات والعلامات، بعضها فوق بعض. كان أيضًا قد كتب على صدره عرضًا لرموز لا معنى لها. حكّ بلاي أنفه فرأت أصابعه، وأطرافه مسودة بالحبر والفحم. كان عاري الصدر، وشعره أكثر بياضًا...

«لوسيندا.. هي...».

نظر يمينًا ثم يسارًا ثم إليها مباشرة.

«لوسيندا... تريدك. لقد قالت بعض الأشياء عن الرسول.. إنها...».

تراجع وأغلق الباب. لم تكن الأرملة متأكّدةً ممّا تشعر به، من الأفضل أن تتخلّى عن كل المشاعر وتنعم بليلة نوم جيدة، فالسلام أفضل من التّفهُّم. الليلة على أي حال، يمكنه أن يتحول إلى مجنون، هذا ما يهمني، لكنها ترتدي الأزرق بسببه.

يمكنها أن تعترف بذلك الآن. لا، اعترض عقلها، من الأفضل الابتعاد. من الأفضل أن تشعر بالسلام، لأن السلام لم يكن شيئًا؛ لا يوجد شيء يمكنك أن تقطع نصف الطريق إليه ويتبقى الكثير سوى السلام. لكن عندما ابتعدت، فتح الباب مرة أخرى، وخرج مرتديًا بدلته البيضاء المغطاة بالكلمات والخربشات والأشكال. بدا أكبر سنًّا، وأطول، وقد وصلت الكلمات إلى أعلى، نحو رأسه.

قال أشياء دون أن يتكلم.

قالت لوسيندا: «ليباركك الرب! ليتمجد يسوع! ليتمجد الرب!».

وقف بلاي ساكنًا، محدقًا فيها، طال الوقت وتوتّرَت المرأتان. نظرت لوسيندا بعيدًا متململة. شاهدت الأرملة المكنسة في زاوية الغرفة، فتظاهرت بالكنس لكنها ما لبثت أن تركتها تسقط في الزاوية مجددًا. وجلست لوسيندا مرة أخرى، وأصابعها في حجرها.

وفي نَفَسٍ واحد قالت الأرملة والأخت.

«إذن».

«إذن ماذا ستفعل؟» انفجرت لوسيندا بسرعة: «هل سمعت بما

فعله؟ الفاحشة، أقول لك إنه آثم...».

«هل رأيته يرتكب الفاحشة؟» كانت نظرته حادّة مثل شفرة قاطعة من الحكم والوصول إلى الحقيقة، وهذا كثير جدًّا بالنسبة إلى لوسيندا، التي فضّلَت الحقيقة عن توجيه أصابع الاتهام إليها.

«آه... حسنًا، الجنس.. رأيتهما يمارسان الجنس!».

«كيف؟».

«ماذا؟» قالت الأرملة.

وسألت لوسيندا: «ماذا تقصد؟».

«كيف؟ كيف كانا يمارسان الجنس؟».

«مثلما يمارس الرجل والمرأة الجنس.. فاحشة مقرفة».

«أخبريني».

حاوَلَت الأرملة الاعتراض «حقًّا.. لا ينبغي أن يخبر أحدٌ أحدًا عن...».

«كان الرسول منحنيًا على الدولاب وكلارنس يضاجعه من الخلف مثل الكلب».

قال القس بلاى: «أنتِ تكذبين».

«لا! انظر كيف ضربني كلارنس.. إنهما شاذّان!».

«هذا صحيح.. لكنك لم تريهما».

«لقد سمعتهما».

«لا. ولم تسمعيهما».

«حسنًا، كلارنس مقيم في منزله ليل نهار.. ماذا يفترض أن يعني ذلك؟». نظرت إليه جائعةً للحصول على إجابة: «إذن، ماذا ستفعل؟ هل ستقتله؟».

صاحت الأرملة: «هل أنتِ مجنونة؟» كانت تتوقع أن يكون توبيخ القس أقوى. أن يرفسها خارج المنزل بحذاء الروح القدس، لكنه لم يقُل شيئًا، وكذلك لوسيندا. تركت ثورتها معلّقةً، تلطّخ الهدوء مثل اقتحام غير مرغوب فيه.

«إيه؟ إيه أيها القس؟ ألم تره يقول إن الشيطان يأتي ليسرق ويقتل ويدمّر؟ لقد سرق وظيفتك وقتل ماسا فيرجي، كما أنه يمارس الفحشاء مع رجل، أيها الرب يسوع، ماذا سيفعل عندما يكتشف أنني كنت هنا؟».

«لا تقتل»، قالت الأرملة بضعفٍ وهي تستدير مبتعدة. لكنها تذكّرَت بعد ذلك أن هذا منزلها ولن يُشعِرَها أحدٌ بعدم الارتياح، فجلست على طاولة الطعام تتطلع بشدة إلى لوسيندا.

«إذن ست..».

«كفى..» أدار ظهره إليهما وانحنى، فى بعض الأحيان كان يغلق عينيه ويهمس. اعتقدت الأرملة أنها صلاة نسي أن يؤديها من قبل، وظلّ يفعل هذا حتى الصباح. استيقظت لوسيندا أولًا، نظرت إلى الأسفل فرأت القس بلاي ساجدًا تمامًا، وبدلته البيضاء مغطّاة بالعلامات التي رأتها في كتب الرسول، والأرملة نائمة على الكرسي،

وذقنها واقع على صدرها وتشخر.

خطت لوسيندا فوق القس وسارت على أطراف أصابعها في الردهة، مرّت بالمطبخ وغرفة النوم المغلقة، خشيت أن تستيقظ الأرملة لكنها كانت متحمّسةً لذلك، ثم نزلت إلى الصالة، وتوقّفَت عند الغرفة الوحيدة المفتوحة؛ تعرف أن هذا هو المكان الذي ينام فيه القس، أو يفعل ما يفعله في الليل، لكن القس توقّف عن النوم، وعليه أن يؤدي عمل الرب. وسرعان ما أفسحت دهشتها الطريق لفضول عميق مثل شهواتها.

أثارتها الكلمات المكتوبة على الجدران. أمكنها أن تتعرف على بعضها: أسماء مثل دانيال ويعقوب ويوحنا، وبعضها لم تستطع نطقه. بدت الكلمات ترقص وتدور من الأرض إلى السقف في حدّةٍ وغضب، كذلك توجد أرقام: ستات وسبعات والمجموعات والعلامات ومثلثات وعيون ورأس ماعز ونجوم وصلبان ولطشات أفكار أجهِضَت ومُحِيَت، أزالت الكلمات التمييز بين الأرضية والجدار والسقف. في أي لحظة ستقفز من على سطحها وتهاجمها، وتظل تدور وتلف نفسها حول رقبتها.

استدارت فوجدته، في تلك الثانية تخيّلَت أنفها يتمرغ في صدر رجل آخر، والسوط يقطع ظهرها لتقويمها.

وبينما الأرملة لا تزال نائمة، قال بلاي: «لقد حان الوقت».

«لقد توقّف الجميع عن العمل، كما تعلم.. إنه يأمر كلّ مَن يخرج من القرية بأن يتوقف عن العمل.. يقول كل ما نريده سيوفّره الرب.. كل ما علينا فعله هو العمل الجاد.. على كل الدجاج أن يتجمع الآن في

قنّ واحد».

أشار إليها بالتزام الصمت، وكانت معتادة على طاعة الأوامر.

«على القس ألّا ينسى أبدًا الخطأ الذي ارتكبه كإنسان.. وإلا بدأ في الاعتقاد بأنه الرب.. أتفهمين يا امرأة؟».

«نعم نعم...».

«لا.. أنتِ لا تفهمين.. اختار الرب ألّا يكشفه لك.. هو وحده أدرى بالسبب.. سيحدث ما يجب أن يحدث.. في أي يوم نحن؟».

«الخميس».

«الخميس».

«إنه ينام حتى التاسعة صباحًا، ماذا ستفعل؟ أستقتله؟ تشفّع بدم يسوع؟ هل يملكه الشيطان؟ لقد رأيته مرة واحدة، كما تعلم.. رأيت الشيطان يهاجمه في المكتب، وطردني عندما تملّك رأسه.. أستطرد الشياطين؟ مثلما حاولت عندما لحقت به في الكنيسة؟ لقد طلب مني أن أخبر الناس بأنك قتلته ثم عاد إلى الحياة».

«لماذا إذن تفعلين ذلك؟».

«أنا... لا أعرف.. أنا فقط أردتُ رجلًا واحدًا... رجل واحد فقط لمرة واحدة... هل ستطرد الروح الشريرة مرة أخرى؟».

قال وهو يغلق الباب خلفها: «لوكاس يورك ليس بداخله شيطان يا امرأة.. إنه مصاب بمرض الزهري».

فوق طاولة الطعام دقّت الساعة السادسة والنصف، وفي الخارج

صباحًا، كانت الأشجار والأعشاب والأوساخ كلها صفراء.

الطريق صامت وفارغ طوال الليل. لم يتحرك هيكتور بفرح، لقد ذهب كل ذلك، ولم يتبقَّ إلا الهدف. عندما مرّ على الأرملة، خدشت يده كتفها فنسي هدفه، ركع أمامها وهي لا تزال نائمة فتململت لوسيندا. اختلط شخيرها مع شهيق وزفير لجيوب أنفية ملتهبة، لمس وجهها فهدأ تنفُّسها. لوسيندا لا تزال في المنزل. نظر إلى الأرملة كأنه يراها للمرة الأولى؛ خفف النومُ التجاعيدَ التي غزت وجهها مبكرًا جدًا، أبعد هيكتور الشَّعر الذي ألصقه العَرَق بجبهتها، وتحرّك للمس شفتيها، ثم توقَّف وأخذ يدها اليسرى التي سقطت ووضعها في حِجرها، تحرّكَت قليلًا، لكنه كان خارج الباب بالفعل.

«سيدي.. انتظِر.. لا، أنت تمشي أسرع كثيرًا!».

«أسرع كثيرًا ممَّن؟».

«أسرع بكثير من الفقراء ضخام الأصابع.. أتعتقد أنك تستطيع أن تشفيني أيضًا؟».

لم يجب.

في الخارج، كانت السماء صافية. منزل الأرملة على ناصية طريقَي بريللو وهانوڤر، والكنيسة عند سفح طريق هانوڤر، ليست رحلة طويلة. ومع ذلك، عندما خطا بالكاد عشر خطوات رأى السيدة فراكاس على الطريق كأنها هنا منذ زمن، والسيدة سميثفيلد على بُعد ياردتين، والأخ چاكس على مقربة بما يكفي لسماع تنفُّسه. وتساءل القش عمّا إذا كان أعمى، لأنه لم يرَ أحدًا من قبل. كانوا واقفين على

طول الطريق، والمزيد قادمون، رجالًا ونساءً وأطفالًا. لم يكن يخشى الرب، لكن الرعب هزمه، وهاجم الذُّعرُ عقلَه. اثنان آخران من الخمسة على الجانب الآخر من الطريق، حين مرّ بهما سارا بحذائه؛ يتوقفان عندما يتوقف، ويسيران عندما يسير.

«لوسيندا، أنت...» استدار، فوجدها لا تزال عند بوابة الأرملة. وخلفه ثلاثة من الخمسة، الذي أصبح كلارنس من بينهم الآن بعد أن حلّ محلّ الأخ ڤيكستون. عبر الآخران الطريق مثّجِهَيْن نحوه، ركض قسُ الرّم، لكن بلا جدوى، ضربه كلارنس بحجر فسقط، ركلوه وداسوه ولكموه وأخضعوه. شاهدت القرية، لكنها بقيت في مكانها وصدى صراخ القس يتردّد من السياج إلى السياج. شعر الأخ چاكس بالرضا بعد أن لكمه في أسنانه مرتين. ابتعد الآخرون بينما أمسك هو القس من قدمه وجرّه على طول الطريق إلى الكنيسة.

التخطيط ليوم الخميس

ذهبت لوسيندا إلى سينما ماچيستيك مرة واحدة فقط، عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها. شاركت هذا السّرّ مع طريق مسدود، بعيدًا عن الشارع المزدحم الذي أخذها إلى هناك، وعادت مختبئة تحت أسقف القش الخضراء الزاهية. وصلت لوسيندا متأخرة، واختبأت في آخر السينما كي لا يراها أحد، لهذا لم تعرف قطّ اسم الفيلم، لكنها تذكّرت الرجل؛ الذي كان أبيض بشعر أسود أملس وشارب وأذنين كبيرتين، يمسك بالمرأة التي بدت وكأنها تقاوم ثم تمتثل، وحملها صاعدًا درجات عالية كأنها تؤدي إلى السماء. تعرف ما الذي صعدوا ليفعلوه. لم تملك الفتيات الريفيات سوى القليل من الوقت للعواطف؛ فهذا من اختصاص النساء البيض. كانت تعلم أن السلم أدّى إلى ما تفعله والدتها مقابل سبعة شلنات وبنس، لكن حتى والدتها أرادت، ولو مرة واحدة، أن يحملها رجل. وأغضبها أن والدتها ربما تشاركها نفس الرغبة ونفس الخسارة. قالت لنفسها للمرة الألف، إنها ليست والدتها، والرسول يورك رجلها. يمسكها من خصرها ويخبرها بسر طفولةٍ مُحرِج، يتصرف بغرابة ومرح، ويضحك على ضحكتها الطفولية، ويقبّلها كما يقبّل الرجالُ النساء، ويضاجعها ويهمس لها بكلمات ساخنة، لأنها عذراؤه وعاهرته. وسيكون هدوءها وعاصفَتَها، وفي هذه الريح الجديدة، ستختفي هي والرسول قريبًا.

وقريبًا هذا هو اليوم الذي سلّمت فيه قس الزّم إلى الخمسة، وتبقّى لديها الوقت لتصنع للرسول وجبة إفطار خاصة. حتى من

خلال عينها المنتفخة، كانت ترى أن هذا الصباح يحمل وعدًا. المطبخ جزء من الكنيسة، لكنه منفصل عن الأماكن التي تخص الرسول. بدأت في الطهي، نسيت الزلابية وصنعت الكعك، نسيت الكاللالو وصنعت البيكون، نسيت الأقية وصنعت البيض؛ أيًا كان، فالأشخاص الأذكياء، وذوو الدم الطيب، والبيض، يأكلون. في قاع الإناء رأت انعكاس صورتها فجفلت؛ لقد ضربها كلارنس بلا ندم بعد أن واتت الرسول الفكرة، كان يحتاج إلى التخلص من الشر الذي يعيش في منزل الأرملة، وأن يصل إلى الرجل الضال بأي ثمن.

قبل ساعة من إرسالها إلى بيت الأرملة قال لها الرسول: «يجب أن ننقذ الضالين يا لوسيندا.. يجب أن ننقذ الضالين، لكن أوّلًا يجب أن نوقف الرجلَ الذي أضلّهم.. هل أنتِ مُستعدّة لإنقاذ الضالين بأي ثمن، يا لوسيندا؟».

«نعم أيها الرسول».

«جيد.. أنت كلبة الصيد يا لوسيندا، وهو الجِنّيّ، تمامًا مثل الثعلب.. عندما يختبئ الثعلب في جحره، هناك شيء واحد فقط يمكننا القيام به».

«نردم الجحر يا رسول؟».

«نردمه؟ ماذا؟ لا، لا، يا طفلتي البسيطة عندما يركض الثعلب إلى جحره، عليك أن تطردي اللقيط للخارج.. عليك طرده».

«كيف نطرده أيها الرسول؟».

«ليس نحن، بل أنتِ.. يجب أن يصدقك يا لوسيندا.. أشكر الرب

لأنه اختارك لهذه المهمة الجادة والخطيرة. أنت الأولى بين النساء! أشكر الرب أنه اختارك للذهاب إلى معسكر العدو.. علينا أن نجعله يصدقك.. هذا اللقيط العجوز يمكنه قراءة الوجوه يا لوسيندا، علينا التأكد من أنه يقرأ شيئًا واحدًا فقط». ثم هجم عليها كلارنس مثل الكلب، استطاعت أن ترى متعته ولمعة عينيه؛ فهذا هو انتقامه من الجلد الذي تعرّض له. كان لا بُدّ أن يتألم الابن قبل أن يتمجد، وهذا مع حدث لأيوب ويعقوب وإرميا وبولس. كان هذا عمل الرب وسوف يجازيه بالمحبة.. محبة الرسول التي هي انعكاس لمحبة الرب؛ سيكون يورك شمسها وستكون قمره، ستعكس نوره وتعمى كل مَن بداخلها.

يرتدي كلارنس ملابس الرسول الآن، لم ترَ ذلك منطقيًا؛ كيف لمفلس حقير رديء السلالة مثل كلارنس أن يرتدي ملابس جيدة بعد ترقيته؟ عرفت مَن يملك قلب الرسول؛ لهذا طلب منها التضحية والذهاب إلى معسكر القس وإغراءه بالخروج، هذا ليس مختلفًا عن طلب الأب من ابنه، حتى يجلس الابن بعد ذلك عن يمين الأب.

ابتسمت لأنها خدمت الرسول بشكل جيد. خدعتها الذاكرة من قبل، لكن هذا الصباح انغمست لوسيندا في الماضي عندما كسرت ثلاث بيضات في زيت الذرة ورشّتها بالملح والفلفل. ثم أتاها صوت شرير «أيتها الزنجية العاهرة، أستطيع أن أشمّ رائحتك المريبة من هنا.. هل تعتقدين أن أي رجل يريدك الآن بعد أن جفّ فَرجُكِ؟».

جاء صوت والدتها محمّلًا برائحة الخل. تقول الأسطورة الريفية إنه إذا تلطّخَت يداك بدماء شخص ما فإن شبحه يعيش معك إلى

الأبد. أجابت لوسيندا: «لم يمنعك فرجك الجاف قطُّ من الحصول على رجل».

«هل تعتقدين أنك طيبة.. أنا فقط أعلم أنك شريرة تمامًا مثل أبيك الذي رحل».

«لماذا لم ترحلي أنت».

«أنتِ كريهة الرائحة.. لا يدخلك إلا الشر ولا يخرج منك إلا الشر. أخبَرَني النهر عنك».

«نعم، نعم، لقد وُلِدتُ شريرة.. وُلِدتُ سيئة. ألم أخرج من فرجك؟!».

«أنتِ بذرة سيئة.. سيئة منذ اليوم الذي وُلِدتِ فيه.. عندما حاولتُ قتلك، لكن الحبل السري لم يلتفَّ حول عنقك بإحكام كافٍ».

«إيه.. وانظري كيف كان فمك يلتقم قضبان الرجال.. كان يجب أن تحاولي بجدية أكبر.. ما حاولتِ فعله معي عُدتُ وفعلته معك.. كنتُ فقط أنهي المهمة».

«لوسيندا».

«لا تناديني لوسيندا.. سيبقى رجلي معي.. انظري.. لن يرحل رجلي.. إنه لا يكرهني لدرجة أن ينام مع الماعز بدلًا مني.. الآن اخرجي من المطبخ أيتها العاهرة الشريرة».

رنَّمَت لوسيندا ترنيمة «صليبي الحامي» تحشبًا لأي روح أخرى قررت مهاجمة أفكارها هذا الصباح. قال الرسول ألا شيء يجب أن يقف في طريق سعادتها.

بعد أن أنهت ترنيمتها ستكون قد حضرت كعكتين، وثلاث شرائح من لحم الخنزير المقدد، وأصبحت وجبة الإفطار جاهزة.

قلبت الكعك وهي تشعر بالأسف على الأرملة التي فوجئت بحنانها، ربما الآن بعد أن فازت، شعرت بالتعاطف الذي يشعر به المنتصر تجاه المهزوم، القاتل تجاه الموتى، الرومان تجاه المسيح المصلوب. الآن ليس لدى الأرملة أي شيء، ولدى لوسيندا وعدٌ، والوعد شعاع وردي في سماء الصباح، وميض صامت على أزهار لم تتفتّح بعدُ، الوعد شمس تطلُّ من خلال نوافذ التهوية وتقبّلها على خدّها. ربما تجد الأرملة المسيح مرة أخرى. والآن بعد أن خرج قشّ الزّم من منزلها، ربما تجد الأرملة السلام، لقد تواصَلَتا كأنهما صديقتان، مع أنهما لم تكونا صديقتين بالطبع.

تذكرت لوسيندا كيف صنع الحسد منها وحشًا. مَن أسوأ من امرأة لعنت الرب وفقدت رجلها مرتين؟

في الطريق إلى منزل الرسول كادت تتعثر، لكنها توقّفَت عندما اهتزّت أكواب عصير البرتقال، وضحكت على رائحة البيض والبيكون المقدّد والخبز المحمص، فطورِ رَجُلها الأبيض. ستوقظ الرسول وتناديه باسمه الأول. ثم توقفت؛ ليس لديها أي فكرة عن اسمه الأول، لا يهم، سيكون هذا صباح الاكتشافات الجديدة، ستوقظه ليتناول الإفطار في السرير، ومَن يدري، ربما تنزلق تحت الملاءات التي تفوح منها رائحة عرقه وتطعمه، فهي تعرف من مهمة التنظيف التي تؤديها مرة في الأسبوع أنه يترك الأبواب دائمًا مفتوحة.

«ماذا كنت تفعلين، تبيضين البيض اللعين بنفسك؟».

رفع كلارنس سرواله لأعلى ونفض قضيبه عبر سحاب بنطلونه، تجمَّدَت لوسيندا عندما هاجمها عقلها، وتحرش بها بمعلومات لا تريد معرفتها، ولا تستطيع التعامل معها. كانت امرأة بسيطة اختتمت الأمر ببساطة؛ كلارنس عار. كلارنس يرفع سرواله، قضيب كلارنس يتدلى مثل السجق خارج بنطلونه. كلارنس يرتدي بنطلونه دون ملابس داخلية، كلارنس في غرفة نوم الرسول عاريًا، كلارنس يرفع بنطلونه، قضيب كلارنس يتدلى مثل السجق خارج بنطلونه، كلارنس في غرفة نوم الرسول وهو... يلتقط قميصه من على الأرض.

«حسنًا، ما الذي تنتظرينه.. المباركة؟ ضعي الصينية واخرجي».

كانت امرأة بسيطة اختتمت الأمر ببساطة، وضعت الصينية على السرير ووقفت بشكل مستقيم وصلب. لم تستطع النظر إليه، لم تستطع تحمُّل صوت تدفُّق المرحاض، وظهوره الحتمي، والدليل على عدم وجود شيء. لا شيء بداخلها. وسمعت ضحكة والدتها المكتومة.

«أيتها العاهرة، على الأقل أغلقي الباب عند مغادرتك».

ركضت عائدة إلى الكنيسة، ركضت إلى المطبخ وفوضى قشور البيض ولحم الخنزير المقدد والدقيق المسكوب والبرتقال المعصور على المنضدة. ركضت طوال الطريق إلى غرفتها في الطابق العلوي وأغلقت الباب. كانا ينتظرانها.

رأتهما في المرآة: والدتها ولوسيندا الليلية، تارة كلاهما، وتارة إحداهما، تضحكان طوال الوقت بصوت مثل هزيم الرعد.

أبيا باباا أماكا دش

نصلّي للرب الحي الذي هو الآب والابن من خلال نائب الرب الذي يجلس إلى يد الرب اليسرى. النائب هو خلق الابن الذي هو واحد مع الابن ولكن مع الآب أيضًا.

ريكيلو بابا لاكوسا.

لقد جئنا لنثني على مَن هو أعظم. ندخل أبوابه بالشكر وديارِه بالحمد. نقدّم أنفسنا كذبيحة حيّة نطلب من الآب أن يقبل ابن الابن في أقدس مكان له.

سيكوسا رابوكوك ميشاندي ريبوبابا.

سنهزم العدو، هكذا تتحقق النبوءة، ويدخل السائر في الظلام إلى النور. نشكر الجبار على انتصاره على ملك الأرواح. نشكر الآب ونعيد خادم الظلام إلى الظلمة.

يا بابابا لاجكمه سيكيثاكوكو. آمين.

***

استيقظت الأرملة على تهديدٍ، وبعد دقيقة شعرت بالصور على جلدها. وجدتها بين الثوب وثدييها، فوضعتها على الطاولة مثل البطاقات ودرستها بتركيز. لها جميعًا اللون البني الشاحب نفسه، والاستجابات نفسها.

صبية، بعضهم صغار الحجم وبلا ملامح، وبعضهم لديه قليل

من شعر الوجه والعانة، كلهم عراة، شبكت أرجل البعض، وبعضهم انفتحت رجلاه مثل ملائكة أبرياء ضُبِطوا يمارسون الجنس. لم يعودوا أولادًا، بل دمى شُوِّهَت وأعيد تشكيلها لتتحول إلى انعكاس لشخص ما. مثل الفتيات على أوراق اللعب التي احتفظ بها السيد جرينفيلد في مكانه السري. في كل سنواتها التي اشتبهت فيها بمحلية السيد جارفي رأت العديد من أبناء أخيه، لم يتزوجوا جميعًا، سافر عقلها إلى أماكن لم تكن تعتقد أنه يمكن التفكير فيها، وعذبها مثل هذا المرض والانحراف، وجعلها تشعر بخوف يشبه خوف الأطفال من الظلام. نظرت إلى صور الأولاد، فاتحين أرجلهم كالنساء، بعضهم يضع مكياجًا وقبّعات، وتخيّلَت شياطين تغتصب ثقوبًا صغيرة من البراءة وانعدام الخبرة. توجد صور أخرى لا تحتاج إلى التخيل؛ ثقوب خالية لكن أفواههم محشوّة بما يتجاوز قدرتها على التصديق. الطريقة الوحيدة للتعامل مع ما رأت كانت تخيُّلَهم غيرَ واقعيين، أو فرنسيين، مثلما سيقول زوجها عندما يريد أن يصف شيئًا فاحشًا. هذه الطريقة الوحيدة التي تعرفها لتجاهلهم، وبصعوبة شديدة، وكادت أن تنجح لولا الصورة الثالثة التي نظرت إليها مرتين، لم تكن الصور الأخرى واضحة كهذه، ولكن في هذه انزلق وجه إلى بؤرة التركيز.

من الشعر الأسود الجامح ظهرت العلامات، عيون متلألئة وسط جلد بني فاتح لكنه أغمق من الآخرين، نفس الجلد البني ونفس العينين ونفس الشعر الرطب الجامح الذي انفجر على كتفيه حتى في سكون الصورة.

«هيكتور! هيكتور! هيكتور! تعال بسرعة! هيكت...». حلّ عليها

الصمت، حتى طغى تمامًا. عاقبها الهدوء على إدراكها، فظلت واقفة تحاول تقبُّل غيابه عن المنزل. بدا فستانها الأزرق غبيًّا، ولم تعُد ترغب في ارتدائه؛ أرادت أن تقشر ذكرى مِسكه عن بشرتها. انتشرت رائحة الغربان الميتة في المنزل، دخلت غرفته وجلست وسط الكلمات والرُّموز، وبقيت هناك حتى حلول الظلام.

***

أبا بابا مكا ديش.

تعلن مملكة الألف سنة أن نور الآب والملك الذي سيحلُّ قريبًا، نحن الخراف الأخرى نسجد له ونستحضره باسم القدير.

***

اخترق صباح الجمعة السماء الرّمادية. ظهر الأولاد الوقحون بالفعل؛ لديهم وظيفة كبيرة، وأدوات كبيرة لتنفيذها. كان للضجيج الذي أحدثوه إيقاع الصناعة، التحطيم، والتدمير، والتكسير؛ دوّت المطارق والمعاول، مُخلّفةً شظايا أسقطت الجسر. منحهم الرسول حتى الواحدة والنصف.

***

عندما رأى الرسولُ القسّ قال: «كما تعلم، لقد اعتادوا تقييد الزنوج المتغطرسين بهذا الشيء حول عنقك.. ما رأيك في ذلك؟».

الغرفة مظلمة وعنق بلاي مقيد بالأصفاد التي وجدها الخمسة في منزل الأخ ڤيكستون. تدلّت سلسلة من السقف إلى رقبة بلاي، وثبّتته في مكانه، ويداه مقيدتان خلفه.

«أعتقد أن لديك بعض التعليم؛ لذلك أعلم أنك ترى المفارقة في هذا.. هذه هي مساحتك».

«مرض الزهري يفسد عقلك».

«الآن أنت تفكر.. لكن ماذا أعرف عن التفكير.. كيف عرفت بالمناسبة أني أعاني من مرض الزهري؟».

«ترى الكثير عندما تعِظُ في المستشفى يا لوكاس».

تجمّد الرسول.

«مستشفى كينجستون؟ لقد فهمت».

«نعم، كينجستون يا لوكاس».

«لوكاس يورك مات.. لقد قتلته بنفسي».

«أنتَ لستَ ميتًا.. أنت مريض فقط».

«مريض؟ أهذا كل شيء؟ ثلاثة أشهر من السجال وكل ما يمكنك مناداتي به هو المريض؟ أهذا فقط يا بلاي؟ ذاك الأحد كنتَ تعرفني أكثر من أي رجل أو امرأة، أو الرب الذي يهمُّ أكثر من أي شيء.. وما زلت لا تعرف نصف ما ينبغي أن تعلمه.. تعلم أنني لست ممسوسًا.. هذا خطؤك، ومع ذلك فالأرواح في كل مكان حولي.. يمكنني أن أحضر أحدًا ليمارس الجنس معك إذا كنت ترغب في ذلك.. فكّر في الأمر كهدية وداع».

قال بلاي وهو ينظر إلى قدميه: «أبعِد شيطانك اللعين».

«فقط بيني وبينك، أعتقد أنهم يفضّلون الأمور الروحية. حسنًا، إذا كنت لا تريد هذا النوع من الروح، فماذا عن النوع الآخر؟ ألا تريده؟ هذا الويسكي يناديك كفتاة لم تقُل لا أبدًا؟».

«لا».

«لن يلومك أحد يا بلاي إذا غطستَ في زجاجة ويسكي الآن.. قد ينقذك حتى.. هل يجب أن أحضر لك بعضًا منه؟ ماذا عن زجاجة چوني ووكر حمراء.. مع أنك تصدمني أكثر بتفضيلك السوداء؟ كما تعلم، ئنبِئني حدسي بأنك ستوافق؛ لذا انظُر إلى ما أحضرته لك». كان الرسول يتكلم وفي يده زجاجة ويسكي متلألئة باللون الذهبي...

«احتفِظ بالخمر.. لديّ الروح القدس».

«وكيف تسير أمورك؟ هل ترتوي؟ هل أنتَ في حالة معنوية عالية؟ أم تفضل هذا؟ أستطيع حفظ السر».

«لا أريدها...».

«لا تريدها عمومًا أو لا تريدها الآن؟».

«لا أريدها أبدًا».

«أبدًا.. هذا وقت طويل جدًا.. ربما نسيت مذاقها، والآن بعد أن أصبحت بارًا جدًا.. الويسكي المسكين يموت من الغيرة. يقول فقط لو يتذوّقني.. فقط لو..».

سحب الرسول الغطاء ووضع الزجاجة فوق رأس بلاي «لو كان

بإمكانه فقط أن يتذوّقني». سكب الويسكي على جبين بلاي، فأغلق هيكتور عينيه بإحكام بينما ويسكي چوني ووكر يجري على وجهه ويبلل شفتيه.

قال الرسول: «فقط أخرِج ذلك اللسان الكبير أيها الفتى الصالح.. رشفة واحدة يا بلاي.. الويسكي ينسكب يا بلاي؟ بلاااي انظر، لقد انتهى كل شيء.. لا مزيد من الويسكي.. أنت تحاول منح السود أشياء و..».

«عليك لعنة الرب».

جلس الرسول يورك على الكرسي الوحيد في الغرفة قريبًا من المدخل. «أعتقد أنك فهمت الزمن بشكل خاطئ.. لكن هذا جيد، لعنة الرب عليّ؟ أنا أيضًا ألعنه.. الكتاب المقدس مجرد كتاب يا بلاي، كتاب غير مكتمل وغير حاسم.. كنيستك تسمّي نفسها كنيسة القديس توما، لكنها نفسها تمنع إنجيل القديس توما.. يوجد الكثير يا بلاي، الكثير ممّا لا يستطيع عقلك الزنجي الصغير الجاهل فهمه.. مثل سليمان.. لقد قرأت كتبًا عن سليمان لم تسمع بها من قبل».

«أهذه حصة في التاريخ أم أنك توذّ الثرثرة فقط؟».

«لا، هذا ليس تاريخًا، هذا هو الحاضر.. لكنك ستصبح قريبًا من التاريخ، هذا هو..».

«ستقتلك الفنون السوداء».

«الفنون السوداء؟ الفنون السوداء؟ تقصد السحر؟ هذا ليس سحرًا يا أحمق.. هذا هو عمل الرب الحقيقي!».

«سوف تقتلك».

«هذا يبقيني على قيد الحياة! لا يوجد طبيب يمكنه مساعدتي.. عندما اكتشفوا ما كنت أعاني منه، كنت بخير حال.. لكني لست بحاجة إلى طبيب، أنا الطبيب العظيم.. أنا الرب.. أترى الرب؟ الرب مُختَلَق.. منزلة.. خطوات.. لقد اتبعت نفس الخطوات وصِرتُ الرّبّ».

«أنا الآن أعلم أنك مجنون.. ليس في إمكان أحد أن يصير الرب.. لم يولد الرب ولن يموت أبدًا؛ فهو الكينونة».

«كذب.. لقد صنعه الظلام، وشكّله النور، ولوّن الناس أجزاءه القبيحة.. أنت يا بلاي، أنت نفسك، إذا أغمضت عينيك الآن وصليت إلى الرب، ستتخيّل شخصًا يشبهني تمامًا.. بشعري، ولحيتي، وعيني، وبشرتي..».

«بالزهري الذي تعاني منه».

«ليذهب إلى الجحيم معك».

«لستُ أنا مَن ينتظر الشيطان».

«كيف تعرف ذلك؟».

«تذهب وتخطئ في الخفاء وتصاب بمرض والآن تلوم الرب.. منذ متى وأنت مصاب به؟».

«مصاب به؟ تتحدّث كأني جلبته لنفسي.. لقد مُنِحته يا بلاي.. أنا أسمّيه عطيّة الرب.. أعطاني الرب مرض الزهري».

«هذا تجديف.. الرب لا يُسبّب المرض، بل يعالجه.. أنت تكذب».

«أنا الطريق والحقيقة».

«أنت أبو الكذب».

«جيبيه تفضُّل أكاذيبي على حقيقتك.. لماذا يتبعونني بهذه السهولة يا بلاي؟ بهذه السرعة دون سؤال؟ لأني أعطيهم شيئًا لا يستطيع الرب أن يعطيه.. اسمع، هذه القرية بأكملها ملكي.. كان ينبغي أن تغادر عندما سنحت لك الفرصة.. أنت لا تنتمي إلى هنا».

«ولا أنت كذلك.. هؤلاء الناس لم يفعلوا لك شيئًا».

«أيها الأحمق اللعين! إلى أي مدى، ها؟ إلى أي مدى يجب أن يغوص السكين في صدرك لتدرك أنك انتهيت؟ كيف تعتقد أنني أعرف كل اسم؟ كيف تعتقد أنني أعرف كل وجه؟ لقد كنت هنا يا هيكتور.. كنت هنا حتى عندما أحضر العم أليوسوس مؤخَّرَتكَ الحزينة إلى جيبيه.. السبب الوحيد الذي جعل الرجل يوظِّفكَ أنك كنت أعمى مثلما أنت الآن.. ألست غاضبًا جدًّا الآن، ها؟ هذا الزُّهرى مِنحةٌ من الرب، من رجُل الرب الذي سبقك، صديق أليوسوس جارفي المقرّب وزميله في الاغتصاب.. هل فهمت الآن؟ لماذا لا تقول اسمه معي؟ نعم، القس بالمر.. لديّ ندوب تثبت ذلك، هل أُسقِط سروالي وأريك؟».

«لا».

«انظر إلى هذا، لم يستطع القس إبقاء قضيبه في سرواله.. أيبدو مثل أي شخص تعرفه؟».

«كان الرب معك، حتى في ذلك الحين، كان الرب معك».

«لا.. كان الرب مع القس الذي شاركني الفراش. لكن كما تعلم، بدأت أشعر بأنني غُدتُ.. شكرًا لك يا بلاي، شكرًا لك.. أعتقد أنني أؤمن بالكتاب المقدس الآن، الرب يتألّم معي حقًّا.. يمكنني فقط أن أرى أباه يصلبه بالركلات.. لم يساعدني الرب، استطاع أن يمنحني الحرية، لكنه لم يفعل.. استطاع أن يمنحني السعادة أو السلام، لكنه لم يفعل.. أنت لم تلاحظني حتى ولا مرة.. غادرتُ بعد عام من مجيئك ولم تلاحظ ذلك».

سعل الرسول، وأغمض عينيه ليخفي بصيص الدموع الرطب.

«لكني لا ألومك.. أنا ألوم الرب.. على أقل تقدير، كان بإمكانه إعفائي من الشعور بهذا الألم اللعين، لكنه لم يفعل.. تركني الرب وتجاهلني؛ لذلك فعلتُ نفس الشيء مع ابن العاهرة.. هل تعلم ماذا فعلت؟ لقد درسته.. قرأت كل شيء من أبوكريفا إلى لوثر إلى أوغسطين إلى فاوست. قرأت أكثر وعرفت شيئًا.. الرب حقيقي، ويهوه أسطورة؛ اخترع الناس يهوه ليبرروا كل هذا القرف الرهيب؛ كما لو كان ذا هدف ما.. لكن لا يوجد شيء، كما ترى، وهذا ما أدركه الشيطان دائمًا.. لا يوجد هدف.. لا يوجد معنى، ولا معرفة، ولا خير أكبر من مضّ قضيب عمّي المزيف.. هناك فقط فمي وقضيب، لا شيء آخر. مثل الرب، الرب لا شيء.. استخدمت خواء الرب لأصبح شيئًا، ولتحلّ عليّ اللعنة إن لم أجُرّ الرب إلى الجحيم معي».

«لا».

«ثم بدأت في قراءة الأشخاص الذين أدركوا ما أدركته، أن الرب محدود.. أشياء من سليمان.. سيخبرك هذا الكتاب المقدس الكاذب

أن سليمان أصبح غبيًا عندما ضلّ.. لا، بل أصبح أكثر حكمةً عندما بدأ في التفكير. صار بإمكانه أن يأمر الملائكة والشياطين ويكتسب الحكمة، ويعرف أن الرب يخشى الإنسان منذ أن قضمت حواء التفاحة.. بالمعرفة يا بلاي تصبح الرّبّ.. الآن الملائكة والشياطين ينفذون إرادتي أيضًا».

«لا».

«ثم عُدتُ.. هل تعتقد أن عمي شرّ لرؤيتي؟ هو ودفعته الجديدة من الأولاد؟ أتعلم ماذا فعل عندما أصبح وصيًا علينا؟ أرسلنا إلى مدرسة داخلية، ليضاجِعَنا المزيد من الرجال، لكنني عُدتُ.. عُدتُ بالملابس نفسها التي كان صديقه القس يرتديها فاعتقد اللعين الأسود النحيل أنني جئتُ بالغفران، حتى رأى سيفي المقوّس، قطعت رأسه، ثم قطعت لعنته.. ثم قطعت رأس كل شيطان صغير في ذلك المنزل، كان معظمهم نائمين عندما أرسلتُهم إلى الجحيم».

«لا».

«لا؟ مطلقًا.. أنا أنتمي إلى هنا يا بلاي.. أنا أنتمي إلى هؤلاء الناس.. لقد أمضيت وقتًا طويلًا مع كل هؤلاء الأغبياء الذين اشتبهوا أو ربما عرفوا مَن هو عمّي، لكن أساليبهم الزنجية سمحت بذلك.. الأساليب نفسها التي تسمح لي الآن.. أنا أنتمي إلى هنا.. لقد أخرجتك لكنك لم تغادر.. والآن لا يمكنني فعل أي شيء من أجلك».

***

الثانية عشرة والربع.

قال الرسول يورك عند الثانية، أعلن ذلك الليلة الماضية. استعدت السيدة فراكاس، لم تكن قد ارتدت فستانها الأسود منذ حُكم ليلاماي، شتمته لكونه الفستان الأغلى والأقل فائدة، لكن الرب علّمها أن ما يبدو عديم الفائدة ربما لم يجد غرضه بعدُ، والناس كذلك. نظرت إلى نفسها في المرآة ورأت قوة التخسيس المعجزة لشريط الدبابيس، سيستخدمها الرب اليوم.

نظر الشماس بينكني إلى عينيه الجميلتين وأعجب بنفسه في مرآته. توني كيرتس لا يرتدي الأسود؛ لذا ارتدى الأبيض: بنطلون جدّه، وبلوزة والدته. كانت ربطة عنق كلارنس ملتوية، فجاء الرسول من خلفه، أمام المرآة وشدّها حتى استقامت، نعّم أكتاف سترته، ثم سلّمه بنطالًا ملائمًا.

اختار الأخ چاكس حجابًا أسود لزوجته، التي قزّرَت من قبل عدم الذهاب. دلّ التورم حول عينها المصابة على تغيُّر قلبها، وحرص فستان طويل على إخفاء فخذيها المجلودتين ويدها المصابة بالكدمات. حتى الأطفال ارتدوا ملابسهم واستعدُّوا.

***

أنهى الأولاد الوقحون عملهم. جاءت الساعة الثانية ومزّت، فتركوا الأدوات وعادوا إلى المنزل لتغيير ملابسهم. سقط الجسر في حادث كارثي، تراجع صوت الحياة، انهار، وقُتلَت أرواح أخرى تحته. من خلال سلسلة من المواعظ الليلية أظهر لهم الرسول إمكانية فعل ذلك. شعب الرب لا يحتاج إلا إلى الرب فقط. كان يورك جادًا.

***

شعر الأطفال بالقلق، يشعر معظمهم بالاستياء من ارتداء ملابس يوم الأحد يوم الأحد، لكن هذا يوم الجمعة، وتساءل بعضهم عن سبب توقُّفهم عن الذهاب إلى المدرسة على بُعد عشرة أميال من الوادي، ارتدوا اليوم بنطلونات ثقيلة وقمصانًا وفساتين وأحذية مُرسَلة في براميل من إنجلترا ونيويورك، مع رابطات عنق عريضة مصنوعة للبالغين. أخبرهم القس أنهم سوف يلعبون لعبة جديدة، والرب يريدهم في أفضل حالاتهم.

حين قزّر الابن الأكبر للأخ چاكس عدم الحضور، ضربه بوحشية، ليس هذا هو يوم عصيان الأبناء للآباء. هذا يوم الخضوع للرسول يورك كأنه الرب. هذا يوم صنعه الرب، وهذا هو عمله. ألبس كلارنس الرسول؛ عدل رابطة عنقه ومسح الأوساخ عن حذائه بأصابعه، ثم وضع العباءة فوق رأس الرسول برفق، حتى انزلقت يداه من خلال الأكمام وانسالت طبقات القماش من حوله كماء الاستحمام، ثم أعطاه كتابه الأحمر وكتابه الأسود، ثم أعطاه شيئًا آخر.

***

فتح الباب الأمامي، وقفزت الأرملة صارخة: «ماذا سيفعلون به؟ ماذا سيفعلون به؟».

كان الشارع فارغًا، أذهلها الصمت. عادة، إذا مُنِحت الوقت، يمكن للشارع الإجابة على أي سؤال، لكن طريق بريللو رفضها، فشعرت بالوحدة، أكثر ممّا شعرت به في منزلها الفارغ.

ماري...

استدارت، لكن لم يكن هناك أحد، فعادت إلى المنزل. الأمر مختلف الآن، اختفت رائحتها ورائحة السيد جرينفيلد ورائحة القس، توجد رائحة جديدة، كانت قديمة بالفعل، ومألوفة. تعرف معناها وتعرف الصوت أيضًا. ذهبت إلى المطبخ وأخذت الدجاجة التي كانت قد تبلّلتها بالفعل، وأشعلت موقد الغاز، ثم دخلت غرفة النوم وأخذت فستانًا أزرق آخر.

***

لوسيندا في غرفتها تمشّط شَعرها إلى نصفين وتضفّر أطرافه. سمعت مرسوم الرسول، ومع أنه طلب منها الابتعاد ارتدت فستان والدتها الأسود، فقط لأنه مناسب. لقد تحوّلَت إلى نسخة من أمها، امرأة أخرى يعكس الرجال فشل الحياة عليها.

سمعت همسات قادمة من المرآة. في الخارج، ثار الغبار حولها.

***

وقف الرسول عند باب الكنيسة ناظرًا. لعق شفتيه وأمر الشخص الذي يقف خلفه «كلارنس، قُل للناس إن الرّبّ مُستعدٌ».

***

سيكاسا روبكا

ماكاسيا ليكوسو

***

اهبِطَا طريق إيمانويل أيُها الصبي والفتاة

لتكسِرَا الأحجار الصخرية اهبِطَا طريق إيمانويل

أيها الصبي والفتاة

لتكسرا الأحجار الصخرية واحدًا تلو الآخر أيها الصبي والفتاة

اكسراها اثنين اثنين أيها الصبي والفتاة

لا تبكيا أصابعكما المحطّمة أيها الصبي والفتاة

وتذكّرا أنها مسرحية نؤديها

منذ أن توقّفَت الشاحنة عن المجيء والذهاب، اختفت الكثير من الأحجار الصخرية. قال الرسول إن الشاحنة تعيد الروح الشريرة إلى القرية، وأي شيء من عمل الشر يجب أن نجتثّه! نجتثّه! نجتثّه!

***

قلّة من الناس جاءت مبكرًا، وجاءت قلّةٌ متأخرًا، لكن معظمهم جاؤوا في الوقت المناسب، تجمعوا في دائرة غير منتظمة بالقرب من الجسر حيث اعتاد كاسرو الحجر العمل. أثارت الرياح غبارًا أبيض على السترات والفساتين والبنطلونات السوداء والرّمادية. أحضرت السيدة فراكاس مظلّتها. لا تملك إستريلا إلا تنّورة قصيرة، لكنّ أحدًا لم يلاحظ.

وقف الأخ چاكس ينظر بفخر لزوجته الخجولة وابنه المفقود. لوّحت السيدة سميثفيلد بيديها لتهوية وجهها إزاء الحرارة العالية. ارتفعت الغمغمة لكنها توقّفَت بمجرد أن رأوا الرسول يأتي من خلف كلارنس، محتضنًا كتبه الحمراء والسوداء.

لوّح بأصابعه فبدأت الجوقة المنتشرة بين الحشد، في غناء ترنيمة «النعمة المجيدة».

«أقول لكم هذا.. استمِعوا إلى ما يقوله الرب في الآية السابعة يا أتباع يوحنا الثامن.. أنتم تسمعون الكتاب المقدس بشكل خاطئ.. تسيئون فهم كلمة الآب؛ لهذا يخدعكم الشيطان.. عندما طلب الرب مَن هو بلا خطيئة أن يرمي الحجر الأول، تكلم مع اليهود والأمم.. نحن لسنا يهودًا ولا أُمَمًا، بل مسيحيون.. لأولئك الذين وُلِدوا من جديد من قبل الرب نحن لسنا مع الخطيئة. وإذا كنت معه فأنتم خَلْ...».

«خلق».

«قلت، إذا كنتم معه...».

«خلق جديدا!».

«هللويا! ليتمجد الرب!».

لوّح بيده، وفجأة اندلع شجار وصراخ. جاء من خلف الكنيسة ثلاثة من الخمسة يرتدون ملابس سوداء يسحبون قسّ الرّم.

تعثّر بلاي، فالتقط الشماس بينكني السلسلة وسحبه عبر التراب، أمسك القسّ بالسلسلة لئلّا يكسر الشماس رقبته.

حاصره الثلاثة الآخرون لكنهم لم يلمسوه وهو يتدحرج مسحولًا على الحصى والطين. تمتم القسّ لنفسه، فاعتقد الأطفال أنه حيوان مجنون.

كان الشّمّاس يستمتع بهذا كثيرًا؛ يسحله بقوة حتى لو لم يكن هذا ضروريًا، لكنه كلما فعل ذلك نظر القش للحشد وابتسم.

كلّما حاول أن يمشي، يسحله الشماس، فيسقط وتصيب الأرضُ جِلدَه، لقد جعله الغبار الأبيض شبحيًا.

هو شبح، روح الليل المحبوسة التي خرجت إلى النهار، عيناه الحمراوان العلامة الوحيدة على أن الدم يسيل بداخله. سحله الشماس بينكني حتى وصل إلى وسط الدائرة. حدّق الأطفال فيه، وفكّر الرجال والنساء في العقوبة وبقيت أعينهم مثبتة على الرسول.

«أيها الآب، نطيع مرسوم كورنثوس الأولى.. اليوم نطرد الرجل الذي كان أخانا في يوم من الأيام، لكنه الآن وعاء إثم.. وهكذا، أيها الآب، نعيده من حيث أتى.. نعيده إلى الجحيم مع أبيه.. الشيطان.. جيبيه تكفُّر بالد..».

«أنتَ.. ل.. لا تستطيع.. حتى.. تقول...».

«أوه! أبا بابا مكا ديش! يا ليبرا كساكوكة مكا ديش! يا آكلة النار. يا أسد من سِبط يهوذا! أبا الأب! ريبيثاباباا لا كوسا».

«أيها الآب اغفر له...».

«العودة! العودة! أنا أربطك باسم نجمة الصباح! أنا أربطك! أنا أربطك يا هيكتور بلاي! أنتَ آفةٌ على نسيج الرب الثمين، أ..».

«جيبيه... لا يستطيع... يقول... نا..».

«بقعة على ستارة السماء!».

«يسو...».

ضربه الشماس بينكني بقدمه. قضم القس لسانه وبصق دمًا.

«لا! لا تنظر في عين الشر! إنه يطوف مثل أسد يزأر يبحث عن نفوس يلتهمها.. لقد انتهى أمر رجل الظلام. سوف نطيع نجم الصباح!».

«نجم الصباح هو الشيطان...».

«اليوم يوم الانتصار النهائي.. الآن يبني الرّبُّ سورَه ويغلق ملكوته.. تمامًا مثل مسعدة! آييه باباكوسا ماكا ديش! من اليوم فصاعدًا، ستكون جيبيه دائمًا في وجوده.. دعوا الأطفال يأتون إليّ أولًا!».

يعرف الأطفال ما عليهم فعله؛ ركضوا بسرعة، وعادوا بأيدٍ ممتلئة. رفع الرسول كلتا يديه ورفع كلارنس كلا الكتابين.

«الكتاب المقدس..».

«أنت لا تلمس أبدًا... الكتاب المقدس في... حياة... سقوط سليمان... سقوطك...».

«كفى حديثًا بكلام الشيطان!».

التقط الكبار الحجارة ورجموه بها. تدفّق الأطفال كأنهم يمارسون الرياضة، وقذف الشماس بينكني بقوة لاعب كريكت، ولم توفّر النساء شيئًا إلا وقذفن به، أمّا أولئك الذين فرغت أياديهم فقد ركضوا لجلب المزيد.

صلّى القس من أجل القوة، لكنه ما لبث أن صرخ قائلًا: «أرى.. السماء مفتوحة.. أرى السماء..».

شقّت الحجارة المنهمرة طريقها إلى لحمه، كسرت وجهه ومزّقَت فكّه، كسرت يده وثقبت ظهره، وكسرت جمجمته حتى صارت وردية. ثم بصق بلاي شريان حياته، وانهار على الأرض كظلٍّ جناحين، وفي دقائق معدودة تحطّمَت جثته ومات. استمر الحشد حتى كاد يدفنه تحت الحجارة، ثم رفع الرسول إصبعين فتوقفوا.

«*هو ذا يأتي مع السحاب! وستراه كل عين والذين طعنوه أيضًا، وتنوح عليه جميع قبائل الأرض*. نعم، آمين! أنا الألف والياء».

قوطع الرسول بلمسات رفيفة، ضربت بقعةٌ بيضاءُ كتفه وتدفّقَت على كمه. نظر إلى جثّة القس بلاي شبه المغطاة. هبط طائر فوق الحجارة، طائر أبيض قذر، حمامة، قفزت من حجرٍ إلى حجرٍ بلا مبالاة.

«أنا الألف والياء! البدا..».

«يا نهار أسودا».

أشارت السيدة فراكاس إلى أعلى، فرأوا سحابة من الحمام تطير في دائرة بيضاء تخسف الشمس. ركض الأطفال أوّلًا، لكن بعد فوات الأوان، وفي انقضاضةٍ واحدة، انهالت على الحشد، صارِخةً مُمزِّقةً الشعور واللحم بمخالبها ومناقيرها. وحين حاول الأخ چاكس إبعاد اثنتين منها عن صدره، ترك وجهه غير محميٍّ، كان آخر ما رآه مخالب تتجه نحو عينيه، ثم تفجّر دمه.

رفرفت الطيور وطارت وصرخت مع صراخ الناس. امتلأ شعر السيدة فراكاس بالطيور، فأرجحت مظلتها وضربت طفلها. في تدافُعهم داس الكبار الأطفال الذين لا يستطيعون الهرب بالسرعة الكافية. ومع ذلك، جاء المزيد من الحمام، وحفروا ثقوبًا في وجه كلارنس ومزّقوا الصفحات الفارغة في كتب الرسول. خدشوا أقدام ابنة السيدة سميثفيلد فصرخت، وحين انحنت للإمساك بأولئك الذين عند قدميها، هبطت حمامة على جانب وجهها، فقطعت أنفها وخدها. قتلت الطيور نفسها باصطدامها بالجدران والأسوار، ودفعت أحد الخمسة على الحافة حيث كان الجسر. تعثّر الشماس بينكني وهبط رأسه أوّلًا، قبل أن ينكسر عنقه.

في البقالة وقع انفجار، تلته قرقعة مدوّية بفعل الحريق. طار الحمام بامتداد طريق بريللو، طارد القرية ومزّق جلد مَن سقطوا. دخل عبر الأبواب التي لم تُغلَق في الوقت المناسب، وطارد الأطفال في الخزائن. لم تَرَ لوسيندا، وهي تراقب الغبار في الأسفل، حشدَ الطيور قبل أن ينفجر عبر نافذتها، محطّمًا الزجاج. صرخت ومالت، لكنه نقر جسدها بمناقير صغيرة وحادة مزّقَت ملابسها. قفزت حمامة على ظهرها وخدشت جروحها. ركضت في أرجاء الغرفة وجناحا الحمامة يرفرفان على ظهرها. في الخارج، دقّ على المنصات والعربات وهاجمَ النوافذ الزجاجية وكسَرَ أعناق مَن في داخلها.

ثم طار الحمام بعيدًا.

في المركز حيث وقع الرجم، تناثرت الحجارة في كل اتجاه، لكن

جسد القسّ اختفى. ارتجف الناس في منازلهم، لم يروا الجسر يسقط، بل ترنّح وتهاوى تحت وطأة الوحدة.

لم يُصَب الرسول بكدمات أو خدوش، لم يره أحدٌ يهرب. وعند غروب الشمس كان أمام منزل الأرملة جرينفيلد. وقف لعدة دقائق قبل اتخاذ الخطوة الأولى، ومع أن ساقيه تحرّكتا ارتفاعًا وهبوطًا، فإن قدميه لم تلمسا الأرض حتى وطأ حذاؤه عتبة باب الأرملة.

الباب مفتوح، وتنبعث منه رائحة اللحم المحترق، مائدتها تتّسع لشخصين، ومن الحمّام يأتي صوت الدُش الرتيب. في غرفة النوم كان فستانها مطويًا وممدّدًا على السرير. رحلَت الأرملة، ابتسم الرسول لنفسه وغادر، لكن ما رآه وهو يجتاز الطاولة أعاق روحه؛ صورة فوتوغرافية، بنية شاحبة لكن لا تزال تفاصيلها مروعة. صبي في الحادية عشرة من عمره، جاهل بالعالم، ومع ذلك خبير في الجنس، تَمَوضَع مثل فتاة مستسلمًا لأليوسوس جارفي وصديقه القس السمين، مثل عاهرة. فتى بُنّيّ بشَعر أسود جامح يلمع مثل ألف عين صغيرة. أُصيب الرسول بالقشعريرة، لم يستطع البكاء ولا الصراخ.

قال الصوت: لوكاس. شكّلت شفتا الرسول كلمة «عمّي»، لكنه لم يستطع أن ينطقها، غلبه اليأس والغضب، فضرب بقبضته على الطاولة، كسرها إلى قسمين. في الخارج، جمعت السماء غيومًا، وبدا احمرار أكتوبر خلال الشمس المحتضرة، ستهطل الأمطار قريبًا.

تصفية الحسابات

ضوء الشمس يلتوي ويرقص عبر الأوراق ليصدم الأرض بضربات صفراء جريئة. الأشجار أكثر خُضرةً ممّا رآها أي شخص، لا توجد أي حركة، لا يوجد سوى الضوء.

مرّت ثلاثة أشهر ممطرة على حرق جيبيه لإخوتها وأخواتها وأبنائها وبناتها. الحياة نعمة، هذه هي النبوءة، لم يتركهم الرب ولن يتركهم، لأن لديهم طعامًا ولديهم صحبة.

بعد شهر من مقتل هيكتور بلاي في القرية، دُفِنَت لوسيندا في مقبرة الكنيسة. بعد أن قفزت من نافذة غرفتها، مدفوعةً بثلاثة أصوات تتحدث إليها في المرآة المحطّمة؛ ألقت لوسيندا بنفسها ظهيرة السبت وعلى ظهرها حمامة ميتة، فاردةً جناحيها.

لم يقترب أحدٌ من منزل الأرملة. أمر الرسول بتركها وشأنها؛ تذكيرًا بنتيجة العصيان، الخطيئة الأعظم.

ستكون جيبيه مثل أقدس مكان في العهد القديم، وسرعان ما سيعود الرب ويقيم مسكنه هنا؛ لأن لديهم عبير الاستحقاق.

لماذا لا يجعل الرب بيته في جيبيه؟ لقد جعل بيته ذات مرة في بيت لحم، التي كانت حيًا لليهود آنذاك مثلما هو الحال الآن، وفي الجليل حيث نتنت رائحة الناس من السمك، وفي كفرناحوم التي كانت أكثر شرًا من الجليل. لا، الرب قادم، وستهبط السماء وتنزل عربات الضوء التي تحمل الجند السماوي.

الأطفال أكثر فائدة للملكوت. درّس الرسول بنفسه في مدرسة

الأنبياء، تعلّموا معًا، وأكلوا معًا، وناموا معًا. لا يوجد أم وأب، لا يوجد إلا الرب الآب الأزلي وابنه الرسول الإلهي. كانوا حجر الزاوية في كنيسته الجديدة، الجنة الجديدة، ومثل آدم لم يكونوا بحاجة للعار. لم تذهب الفتيات إلى المدرسة، بل عملن مع أمهاتهن في إعداد وجبات الطعام وتنظيف الخراء، حتى يقودهن واحد أو اثنان أو الخمسة جميعًا إلى الأنوثة المجيدة.

انضمّ ثلاثة رجال جدد إلى الخمسة ليعودوا خمسة؛ جميعهم في السادسة عشرة، جميعهم ما تحت بنطلوناتهم أكثر جوعًا ممّا فوقها. رفض الأخ چاكس التخلي عن مكانه، على الرغم من عماه التام. لم يعُد بوسعه فعل أي شيء؛ وصارت مغادرته لمنزله أمرًا خطرًا، مع وجود حجر عثرة عند كل منعطف. هو الآن تحت رحمة الآخرين، وزوجته المخلصة حتى النهاية، تقدم له الفطائر بالطريقة التي يحبها، بإضافة أقدام الدجاج إلى حساء القرع. خَدَمته كزوجة مطيعة، وحين تجعل أطفالها يبصقون أو يتبوّلون في الحساء، أو تخلط خراء الكلاب المجفّف بالفطائر، لم يفكر عقل الأخ چاكس سوى بالإخلاص.

انتهى بناء السياج، ليس بارتفاع سياج أريحا، لكنه مرتفع بما يكفي لإقناع الغرباء بعدم التعدي على ممتلكاتهم. اختفى الجسر وأصبح النهر مهتاجًا غير سالك، وسرعان ما هاجمت الكروم والأوراق والزهور الخشب والأسلاك الشائكة وأكلت السياج.

أحيانًا تختفي القرى القديمة من الخرائط الجديدة، سواء اختارت ذلك أم لا. داخل السياج لا توجد روح جائعة. كانوا يلتقون في

الكنيسة كشخص واحد، يجلسون في مقصورتها، ويشربون العصيدة التي تطهوها النساء من الذُرة المطحونة. تأتي المياه الآن من النهر، الذي يجري على الرغم من الثقوب المحفورة بالقرب من السياج.

للخمسة يد الدينونة، حين شَكَت السيدة سميثفيلد من مرضها وتعبها من عصيدة الذُرة، عبست وهي تبتلع آخر رشفة من عصيدة الذرة، وعبست طول طريق عودتها إلى المنزل، وفي خلال خدمة النساء، لم تَصِل أنباء استيائها إلى الرسول قبل أن يزورها الخمسة، فلم تتذمّر مرة أخرى؛ لكنها لم تغد تمشي دون عصا.

***

أزعج ضوء الشمس أنفه فاستيقظ، نزل كلارنس من السرير وذهب إلى النافذة. يعيشون في منزل جارفي بعد أن طهّروه من الآثام. لم يغد للنوافذ الفرنسية ستائر الآن، اندفعت أشعة الشمس إلى الغرفة فاستحمّت في الضوء. أمس، رأى أربعة من الخمسة يسيرون عبر البوابات حاملين صبيًا وفتاة، كلاهما لا يزيد عن أربعة عشر عامًا، ركض إلى الطابق السفلي، لكنه وجد المكتب مغلقًا من الداخل، فضغط بأذنه على الباب لكنه لم يسمع شيئًا. يعلم ما سيحدث؛ طفلان آخران، هذه هي المرة الثانية في شهرين؛ الأولان كانا صبيًا وفتاة، أُلقي القبض عليهما في أثناء محاولتهما تسلُّق السياج، وتأدّبا. لن يتسامح الرسول مع التحدي، وبخاصة من الشباب، بعد أن قال الرب دعوا الأطفال يأتون إليّ.

«هل أنتَ متزوج؟ هل أنتِ متزوجة؟» سمع كلارنس نبرة استهزاء للرسول، لم يستطع سماع المزيد من الكلمات، لكنه يعرف الأصوات.

ليست مفاجأة، فلدى الرسول أسلوب لفعل كل شيء. كانت صرخة الصبي متوقّعَة. ليس سوى مكان واحد على جسد الصبي يُبكيه مثل الفتاة عندما يُضرَب. كانت صرخة الفتاة متوَقّعة، طويلة وعالية في البداية، ثم طويلة وهادئة بعد لكمتين أو ثلاث أو أربع لكمات، يغتصبها توني كيرتس أوّلًا، فيغرق عواؤه الذي يشبه القرد في صراخها، وبعد أن يكتشف الأخ باتريك مدى ضيق فتحة شرجها، يترك مهبلها للأطفال في السادسة عشرة. والصبي المتمرد يراقب ويتعلم ويخلص، ثم يخبرهما الرسول أنهم يحتاجون فقط إلى حبٍّ واحد: حب الرب وخادمه الرسول.

المخلص. أعادت الكلمة كلارنس إلى الحاضر، إلى النور، الى الغرفة حيث الرسول يشخر تحت مُلاءات بنفسجية.

أراد أن يتبوّل، فخرج كلارنس من الغرفة تاركًا الباب مفتوحًا، كان للحمّام بابان، تبوّل، نفض نفسه، واستدار للعودة، وعندما نظر إلى الأرض رأى الدماء والوحل تحت قدميه، نظر حوله فوجد المزيد من آثار الأقدام، كلها مليئة بالدماء والوحل التي اختلطت لكن لم تختلط، جلس على المرحاض ورفع قدمه اليمنى ليرى القروح الرطبة، وعندما قام، وجد دمًا على المقعد.

في الخارج، تطاير الغبار.

الزهري، المُقلّد العظيم، السيمفونية ذات الحركات الأربع. مثل الدين، ليس له وجود في ذاته، بل يعيش في الحياة التي يلمسها.

مثل الرب أو الشيطان، له أربع حركات؛ الأولى موجودة غالبًا في الظلام، فهو يختبئ أكثر ممّا يظهر؛ بقعة في فتحة الشرج، جرح في

المهبل، جسم في الفم يختفي بأسرع ما يمكن مثل معجزة، الحركة الثالثة تختبئ أعمق من الأولى، تنتظر في قاع الجسد حتى يحين وقت النهوض مرة أخرى، أمّا الحركة الرابعة فتأتي بالجنون والعمى والهزال واعتلال النفس. هذا هو الثالوث؛ الواحد مع الروح والجسد بعدما يتعفّن العقل. لكن الحركة الثانية هي التي تترك أثرًا.

أثر من الدم والطين ينضح من القروح المليئة بالقطرات على ساقَي وقدَمَي كلارنس الذي اعتقد أنها بقع أو خدوش خلّفتها هجمة الطيور، ولم تلتئم بسرعة. ركض عائدًا إلى غرفة النوم وهو يلهث، لكنه توقّف عندما رأى الرسول يجلس منتظرًا على السرير.

قال الرسول: «هذا ليس الموت، بل الحياة.. هذا ليس الموت، بل الحياة.. لن يموت رجل يؤمن بي أبدًا».

دار رأس كلارنس، لقد وثق في أن الرسول هو المركز لا المغزل. بدت آثار قدميه الملطّختين بالدماء تسير بنفسها حول الغرفة صانعة دوائر فوق دوائر.

«لن يموت رجل يؤمن بي أبدًا».

قبل الرسول، لم يكن كلارنس متدينًا حقًّا، ولا حتى عندما اعتاد ارتياد المذبح. كان الرب شيئًا يعرفه، لكنه لم يشعر به قطّ.

علّمه الرسول عبادةً جديدة على مذبح الجسد البشري، بالتواصل مع العَرَق والسائل المنوي. يتذكر درسًا واحدًا من الكنيسة الآن، شيئًا واحدًا قاله الرسول، إنه لم يؤمن به حقًّا. لم يلاحظ كلارنس هذا من قبل، لم يكن لديه سبب ليقوله لنفسه، لكن دمه أعاد الكلمة؛ ممّا

أثار ذكرى دم شخص آخر، كأنه وُخز في ضلعه برمح، اسم مُحي من جيبيه بسهولة، فنظر إلى الرسول الذي كان يضرب نفسه وقال: «يسوع».

اختنق الرسول: «يسوع.. لا تقُل هذه الكلمة! لا تقُل هذه الكلمة اللعينة!».

«يسوع».

تدحرج الرسول من السرير صارخًا، غطّى أذنيه وحاول الركض لكنه تعثّر بخطوة ملطّخة بالدماء.

«يسوع».

«توقّف عن قول ذلك! توقّف عن قول ذلك! توقّف عن ذلك! أنا المسيا! أنا الطريق والحقيقة و..».

«يسوع».

تلوّى الرسول على الأرض، وظلّ يصرخ حتى اقترب منه كلارنس. كانت يداه تتأرجحان بعنف، تقاومان الأرواح التي يسيطر عليها.

قال كلارنس مرة أخرى «يسوع»، فشاهده يرتعش. أمسك كلارنس بالفانوس من على الطاولة بجانب السرير فتحرك الظل.

ارتدّ إلى الوراء ثم تقدّم ضاربًا وجه الرسول. ضربه مرارًا وتكرارًا، محطّمًا عينه حتى غارت في جمجمته، مفجّرًا شفته السفلية، كاسرًا أنفه، ومؤخّرة رأسه. أبدى الرسول القليل من المقاومة. ضربه كلارنس حتى تعبت يده، حتى غمره دمه، حتى تحطّمت جمجمته

مثل ثمرة قرع، حتى انكسر الفانوس، وتناثر الدم على جلده، فكان عمادًا جديدًا. ثم قال: «يسوع».

البداية

لم يُر الرسول منذ يومين. صدق بقية الخمسة كلارنس عندما قال إن يورك يريد أن يرتاح وألّا يزعجه أحد. ولأنه كان مهتمًا بالأطفال للغاية، فوجئوا عندما لم يحضر إلى مدرسة الأنبياء، تفاجأت القرية أيضًا. عرف كلارنس ما سيحدث لاحقًا، فأغلق الباب ووضع الرسول في البانيو المملوء بالماء. نقع جسده في ماء قرمزي، واختفى وجهه الجميل. أراد كلارنس أن يموت، لكنه أراد أن يعيش أيضًا. من المؤكد أن الخمسة سيقتلونه بمجرد أن يكتشفوا ذلك، لكنه يُحتضر بالفعل.

ربما كان بإمكانه هو والرسول البقاء في الغرفة إلى الأبد، لقد عرف يورك مَن هو حقًا، وليس لديه ما يعود إليه الآن سوى الأكاذيب. سمع همهمة في الريح، وعندما نظر من النافذة، رأى الحشد، سكان جيبيه، متجمّعين خارج المنزل. ذهب إلى الحمام، في أي دقيقة الآن سيركل الخمسة الباب ويقتلونه عقابًا على فعلته، فصعد إلى البانيو، واستلقى فوق الرسول: الشيء الوحيد الحي الذي أحبه على الإطلاق، واحتضنه. غرق الرسول تحت الماء القرمزي وكذلك غرق كلارنس.

أراد الناس إجابات، ليس الرسول مَن يترك قطيعه دون رعاية لمدة يومين. وقف توني كيرتس عند البوابة بينما اتجه الأخ باتريك نحو الباب، عندها فقط صرخت امرأة، وأصيب الحشد بالذعر، وفرّ العديد منه حين سقطت حمامة على البوابة، بجانب توني كيرتس، الذي ركض صارخًا في رعب.

لم يغادر الجميع، قلّة منهم تذكّروا أن الحمام طائر الوعد لا الحكم.

طار الحمام متابعًا رحلته على طول طريق بريللو، حتى وصل إلى السياج المغطّى بالخضرة. هاج النهر والطيور تطير إلى الجانب الآخر، ومن خلال الفراغات بين الأوراق رأوا الجانب الآخر أيضًا، رأوا الحكم والفداء والإنقاذ واللعنة واليأس والأمل.

كانت ترتدي فستانًا طويلًا أزرق فاتحًا، وحذاء عمل رجالي مربوطًا بأربطة حتى ربلَتَي ساقيها، وقبعة واسعة من القش تحجب وهج الشمس، وتكشف عن منظر وجهها. وبينما كانت الريح تهبُّ وتطيّر ثوبها مثل الأمواج، رفعت الأرملة يدها اليمنى مُلَوِّحة بإصبعين.